
رواية
عزبة
موسى
بثينة عثمان
S.D

عزبة موسى

رواية بقلم/ بثينة عثمان

جروب حلم-هن

"لنا مع الحرف حلم"

https://www.facebook.com/groups/7elmhon/?ref=bookmarks

عزبة موسى

رواية بقلم/ بثينة عثمان

تصميم غلاف/ صابرين الديب

تصميم قالب داخلي/ صابرين الديب

تصميم صفحات/ إيمان خليفة

إهداء إلى

الشجعان

القادرين على قراءة العالم من جانبه المظلم

عزيزي القارئ

امنحني بعضًا من واقعك لأمزجه بشيءٍ من

خيال

اعطني يدك

اخط برفق

حذار السقوط!

فضلًا؛ أغمض عينيك ودع بقية حواسك تعمل

خذ شهيقًا طويلًا، وعبق رأتيك بالرائحة النافذة

نعم؛ أنت تقف تمامًا بالمنتصف

قارب يتأرجح فوق صفحة زرقاء على امتداد

البصر..

هل تشعر بتخبط الأمواج الهادرة؟

تشبث بحالك جيدًا ولا تلتفت من حولك

هنا لا يوجد أحد

فقط أنا وأنت

لا تفزع!

اجلس بهدوء

نعم هكذا

والآن..

أعرني انتباهك وأبحر معي في صمت!

المقدمة

كان ثائرًا لدرجة تثير الهلع بالنفوس، أمواجه تقاتل بعضها بعضًا، كأنها قررت التناحر في ذروة عراك، فقد سحره تحت قتامة الجو، السماء ملبدة بغيوم شتوية مثقلة والقرقعة القائمة تهدد بنذر قريب، يشق البرق الفضاء واليم الثائر يبتلع انعكاسه بين طياته حتى عصفت، زخ المطر، أغرق واجهات البيوت، عبر الأزقة و الطرقات، وربما غسل في طريقه القلوب المتضرعة خلف النوافذ.

كانت ليلةً طويلةً على الجميع، فمنذ ما حدث ماعاد للزاد نفس تجبره، النوم صار ضيفًا وخمًا،

الوجوه تتقابل بتيهٍ، بضياعٍ سبغته قلة الحيلة والعجز، يتساءلون.. ماذا بعد؟

لا أحد يجيب

لا أحد يملك إجابة

حتى بزغ فجر الليلة العاصفة، كانت قد هدأت السماء وتشبعت الأرض بالماء حتى فاضت.

شابٌ نحيل الوجه بشعرٍ كث هو من حمل الخبر وطار حيث يجتمع رجال العزبة عقب صلاة كل فجر، تتبدل الصفوف السوية بعد السلام إلى حلقة تتسع للكل رغم ضيق المكان، يتباحثون في أمرهم ويتشاركون مصابهم بنفوسٍ صابرةٍ، لم يكن قد ابتدى أحدًا بالكلام حين اقتحم الشاب

صمتهم بلهاثٍ متقطعٍ، يقلب بصره بين الجميع ويستقر في النهاية فوق كبيرهم:

- لقد عادوا..

تتعثر أنفاسه لوهلة، يقاوم حشرجة مختنقة و يعود بعدها خلال لحظات لينطق بما نطقته القلوب الوجلة في صمت:

- انتهى أمرنا.

(١)

لوحةٌ ربانيةٌ بديعةٌ؛ يتابع فيها القمر آلاف الحكايا التي يشهدها كل ليلةٍ من علياه، حكايات لبني البشر وما أدراكم عن خبايا البشر، وحده شاهدٌ على عري أرواحهم بفكر سارح ونظرة شجن حملت فيها الكثير من السعادة الظاهرة والوجيعة المستترة..

و الليل المنطوي له حكاياه الخاصة عن استقباله الدؤوب الوفي لكل حائر، تلقفه لثورة الأفكار برحابة صدر ثم منحها التحليق حتى تتلاشى في النهاية بفرض نعاس أو ضوء نهار يدحرها قسرًا..

بينما يسرد البحر الهادر والنهر الهادئ عند نقطة التقاء جمعت بينهما حكاية قارب عتيق بطلاء بهتت زرقته وتقشرت، يعتليه سبع صيادين بأعمار متفاوتة، شحذت قواهم في طرح وجمع الشباك من بطن اليم الواسع، هدير الأمواج ما بين مد وجزر يختلط بهسيس الأنفاس اللاّهثة، وبينما الأيدي الصابرة كنفوس أصحابها تقوم بعملها في إتقان بالغ تحفظه عن ظهر قلب زعق كبيرهم في خشونه قاطعًا الصمت الطويل:

- أسرعوا، مازال أمامنا الكثير..

تشحذ الهمم أكثر وتتسابق الأذرع في سحب الشباك نحو الإنجاز الأكبر، ومن بين الوجوه المشدودة والعرق النابض جاءت صيحة طاهر

فزعه نحو ذاك المتناقض عنهم بهيئته وملبسه فنال لقب الغريب عن حق:

- إلياس!..

هطلت قطرات الدماء القانية من فورها ما إن حاد سن السكين الصغير عن موضع الشبكة وطال باطن كفه ليحدث شقًا ليس بالبليغ لكنه كاف ليتجعد جبين صاحبه في نغزات ألم وليدة.

- قلت لك انتبه حتى لا تتأذى!

قالها طاهر وهو يتفقد الكف الجريح ليقتحم وقفة الإثنين أربعيني بجسد مفتول وشارب كث، يقطع حديثهما بزمجرة:

- ماذا يحدث هنا؟

تكفل طاهر بالتوضيح نيابةً عن الآخر:

- جرح إلياس كفه بينما يحاول إصلاح الشبكة..

جرحه ينزف بغزارة ريس نعيم!

أخيرًا حرر إلياس همسًا مجلجلًا، مطأطأ رأسه في حرج بينما يكتم بكفه السليم نزف الآخر:

- لا تبالغ طاهر، مجرد جرح بسيط.

وكاد أن يعترض طاهر وعينه تتبع تقاطر الدماء حين جاء صوت الريس نعيم بارداً في اقتضاب:

- لا أحد يتعلم بسهولة..

وابتعد خطوةً يأمرهم في خشونة:

- انجزوا عملكم، لن نقضي يومنا في عرض البحر.

أومأ الشابان برأسيهما حتى تجاوزهما نافثًا صلافة حروفه في وجهٍ آخر، يميل طاهر ناحية إلياس يفضي له بغيظه في الخفاء:

- لها الجنة زوجته، معاشرة الريس نعيم تكفر ذنوب العمر يا رجل.

أفتر فمه عن إبتسامة قصيرة ويده تلتقط قطعة قماش ملقاة فوق سطح المركب بإهمال، شق منها شريطًا طويلًا وأخذ يلف به حول موضع الجرح حتى جاءه همس طاهر مقتربًا من جديد:

- سأساعدك.. لن تستطيع العمل ويدك مصابة.

- أنا بخير طاهر.. اذهب وأنهي عملك.

- لا تجادل، أصلًا لَمْ يتبقَ لدي الكثير.

- كفاكم ثرثرة!

أجفل الجميع على زعقة نعيم المفاجئة ليستدير كلًا منهم عائدًا حيث يعمل في صمت تام، وتنتهي رحلة اليوم برضا وحمدٍ لخير الأزرق الوفير وقد تراصت الصناديق المعبئة بالأسماك فوق العربة ويحفظ السائق وجهته حيث كبار التجار والبائعين.

~~~~

مسافة طويلة يقطعها على قدميه حتى يصل مسكنه بعد انتهاء العمل، يمر في طريقه على المقهى الكبير الذي يفوح دومًا بعبق عتيق خاصة مع الأنغام القديمة التي تشدو فيه كل صباح، يقابله البعض من رواده بسلام وودود بينما
~~~~

يكتفي البعض بتحية متكلفة، صار يعلم أن الكثير من أهالي العزبة لايروقه فكرة وجود غريب بينهم.

عادةً ما يرافقه طاهر في سيره فيتبادلان الحديث حتى يفترقان عند المنعطف..

وطاهر شاب خلوق في منتصف العشرينات، يعول أمه وثلاث شقيقات، هو رجل البيت وكبيرهم من بعد وفاة أبيه، قص عليه الكثير وجاد بالحديث في ود كبير وكأن ما بينهما صداقة عمر لا عشرة أيام!

- هل تشعر بتحسن؟

سأل طاهر باهتمام صادق فتحركت أنامله فوق الضماد الملتف حول راحة يده، أصر أن يأخذه إلى المركز الطبي الصغير الواقع على الطرف الآخر من العزبة حتى يطمئنان على وضع جرحه رغم اعتراضه الشديد، وهناك تم طمأنته بالفعل من قبل الطبيب والأمر كله انتهى بتعقيم وضماد مع اسم لدهان عليه أن يبتاعه ليضعه فيما بعد.

- أفضل بكثير..

أجاب بهدوء ثم أردف وقد ظهر الامتنان على وجهه جليًا:

- أنا عاجز عن شكرك طاهر.

لكزه طاهر بكتفه في خفه:

- لا شكر بيننا يا صديق..

ثم أردف بجبين مغضن وضيق مازح:

- لكن أتمنى لو أنك تتوقف عن إظهار امتنانك الكبير لكل شيءٍ أفعله.. هذه الرسميات تصيبني بالغثيان.

تطلع إليه إلياس لثوانٍ دون أن يبدي أي رد لمزاحه حتى قال بعد حين وبصره يعانق الأرض المنطوية من تحته بنبرة بدت لمستمعه غريبة بعض الشيء:

- أمثالك قليلون يا طاهر.

وغامت عيناه البعيدة عن ناظري طاهر الذي أخذ يدقق فيه محاولًا سبر أغواره دون فائدة،

هذا الغريب لغز كبير، هذا ما أكده لنفسه وهو يحك مؤخرة رأسه في حرج مصطنع ولم يجد غير أن يجيبه ضاحكًا ملء فيه:

- تشرفنا بمعرفتك سيد إلياس.

تعالت الضحكات والخطى تتسابق فوق الرصيف الجانبي، يستظلون من وهج القيظ بعروش ياسمينا كبيرة ونسيم البحر الجانبي يلفح وجوههم مع هتاف طاهر الحماسي:

- ما رأيك أن أمرك ونذهب للعرس معًا؟

تذكر كلامه عن عرس سليم ابن الريس عدنان الذي يتصدر قائمة الأحاديث ويصر طاهر على ذهابه، غمغم إلياس في تردد:

- لا أعلم، لست مقتنعًا بالذهاب، لم أفعلها من قبل دون دعوة.

زفر طاهر قانطًا، كم مرة عليه أن يعيد كلماته حتى يرضخ!:

- أستغفر الله العظيم.. يا أخي كم مرة يجب أن أقول لك أننا في العزبة عائلة واحدة ولا مكان للرسميات بيننا؟

قطب إلياس جبينه وتوقفت خطواته بغتةً، تحركت أصابعه نحو الصليب الصغير المتدلي من القلادة الفضية الملتفة حول عنقه، يضمه داخل راحته على مهل ويقول:

- لكني لست منكم.. أنا مجرد "مسيحي غريب" كما يلقبني الجميع.. لا طاهر، لا أحب أن أكون ضيفًا ثقيلًا فكما ترى لا يتقبلني البعض كما تفعل أنت.

حط طاهر بكفه فوق كتفه قبل ما يغمغم ببساطته المعهودة في محاولة لدحر هذا الانفعال المفاجيء:

- كيف تقول هذا وقد جمع بيننا عيش وملح؟.. ثم أنَّ ديانتك أمرٌ يخصك مال الناس وشأنك؟ وبالمناسبة لست المسيحي الوحيد هنا، لذا دع حساسيتك المفرطة جانبًا وجهز حالك ليلتنا طويلة.

قال كلماته ببشاشة والتفت عائدًا لسيرته الأولى يتبعه الآخر في صمتٍ مطبقٍ حتى وصلا المنعطف وافترقا على نبرة طاهر العالية وكفه الملوح:

- ستجدني أمام بابك في السابعة تمامًا.

سلك إلياس المنعطف وانحدر مع الأرض المنخفضة، خطوات قليلة وكان يصل المنزل البسيط، ردهة صغيرة تحوي غرفتين بحجم أصغر والمرافق الخاصة بالكاد، تآكلت أصبغة الجدران بفعل الأملاح والرطوبة العالية، حاله كحال صفوف البيوت التي تجاورت حد الالتصاق فوق الضفة الجانبية للنهر، مباني عتيقة بأجزاء مهدمة كانت أول ما بنى الصيادين فوق أرض العزبة وبقايا ألوان باهتة كانت الغلبة

فيها للأزرق، لا ينكر سحر المكان وصداه المنعكس بداخله من سكون وهدوء كان يبغيه، يكفي رائحة اليود التي تخالط أنفاسه حين يفتح النافذة ويتناول طعامه أسفلها، تؤنسه الأمواج بهديرها وضيء القمر الساهر من عليائه.. ممتن هو "للشيخ رحيم" على منحه هذا المكان ليأويه، منحه إياه دون مقابل مكرمًا ضيافته، عظيم هذا الرجل بكرمه وسمو أخلاقه، ويليق بكونه كبير العزبة وشيخها.

ارتفعت يده تدلك عنقه المتشنج مطلقًا تأوهات خافتة، نهض من جلسته أسفل النافذة مناشدًا الفراش وقد سد رمق جوعه ببضع لقيمات، كل عظامه تئن، عليه الاعتراف أن العمل في حرفة

الصيد يحتاج لجهد بالغ، أما كان من الأفضل القبول بعرض الشيخ والعمل في ورشته الخاصة بإصلاح المراكب بدلًا من مشقة الصيد كل يوم؟.. مجرد هذر يجتاح أفكاره المرهقة كل يوم مدفوعًا بألم عظامه لكن في النهاية وقبل مايتلاقى جفناه في تعب يعترف لحاله أن البحر أأمن خيار، يكفي أن يلوذ في عرضه عن كل محتمل ويتخفى بين أمواجه عن كل عين!

~~~~

رفعت الإبريق الساخن على مهل، رائحة الشاي المخلوط بالنعناع أنعشت حواسها مع نسمات الصباح وقد اكتملت سفرتها الشهية بعد سويعات قضتها أمام التنور، سفرة عامرة تليق
~~~~

بصباح كبير الصيادين ونبرته الحنون التي صدحت ما إن سقط بصره فوق المائدة:

- صباح الخير على خيرة النساء وأجملهن.

تتبسم السيدة "دليلة" في خفر وبصرها يعانق سفرتها، وجه وضاء أقرب لكونه مستدير منه بيضاوي، تجاعيد رقيقة تشعبت حول العينين والشفاه، عينان لهما عذوبة العسل وصفائه، تلملم ثوبها الواسع من حول جسدها البض وقامتها المتوسطة لتجلس على المقعد المجاور لزوجها، أصابعها تتشاغل دون داع، تخجل، بعد هذا العمر الذي تجاوز الأربعين بخمس مازالت تخجل حين يغازلها بالكلمات.

جلجلت ضحكات الشيخ على حين غرة مما دفعها لتخجل أكثر وقد بدأ في تناول فطوره مطلقًا همهمات متلذذة بمذاق الفطير المورق والمشبع بالسمن البلدي بين فكيه، كان الثناء رفيق لسانه ونظرات زوجته تلاحقه دون شبع. رجلٌ ممتلىء الجسد في الخمسين من عمره، بشرته البيضاء اشرأبت بوردية طفيفة و لحيته الكثة غزاها الشيب المبكر فغلب بياضها السواد.

كيف بدأت قصتها مع هذا الأشيب وقتما كان شابًا يافعًا يخطف بصر الصبايا وتنهيداتهم الخفية، وهي ابنة الخامسة عشر تقع أسيرة لنظرة من هوى، لم يطل الوقت وكانت تزف إليه

عروسًا، تتعلم على يديه كيف يكون للقلب رفيقًا، أغدق عليها بحبه وحنانه فعوضها عن طباع أبويها الجافة، لكن أبت أن تحيطها السعادة من كل جانب فكان حرمانهم من الذرية لسنوات طوال جذوة من نار تتقلب فوقها حين تسمع تهامس النسوة من حولها بكونها عاقر، كم مرة ألحت عليه حتى يتزوج وتقر عينه؟ لا تذكر لكنها تذكر كلماته الحانية مع ضمة ذراعيه مجيبًا طلبها أنه راضٍ بقضاء الله وإن كتب له رزق الذرية فستكون منها لا غيرها، وشاء رب العباد بعد سنين الصبر والاحتساب أن يقر عينهما بفتاة ملأت قلب أبويها بالفرح وصدر البيت الهادىء بصخب وضحكات لاتفتر. وظنَّ

كلاهما بعد حين أن هذا رزقهما فشكروا الخالق على عطيته بنفس راضية حتى جاد عليهم بكرمه وقر أعينهم ثانيةً برؤية "الحسن" قبل ست سنوات.

- ماذا عن خططك لليوم؟

سألها يقطع شرودها فيه فأجابت بحرجٍ خفيٍ وهي تضع له المزيد من العسل:

- سأذهب لأم سليم باكرًا، ربما تكون بحاجة شيء فأمور الأعراس لا تنتهي.

أومأ برأسه موافقًا متشاغلًا بتناول طعامه.. حتى قالت بعد حين:

- صحيح.. كيف حال ذاك الشاب؟.. ذكرني باسمه!

سألت فغمغم الشيخ وفمه يلوك لقمة كبيرة:

- تقصدين إلياس؟

أومأت في إيجاب صامت فتابع الشيخ عقب لحظة تفكير:

- شاب مهذب، أخلاقه لا غبار عليها، أخبرني نعيم أنه يتعلم بسرعة ويفعل ما يطلب منه دون شكوى أو تقصير لكن..

وصمت حائرًا فحثته على المتابعه وتركيزها يشتد:

- لكن ماذا؟

دار برأسه إليها وحاجبيه ينعقدان في تفكير حائر:

- أشعر بأنه يخفي أمرًا ما.. يتكلم بحرص شديد ولايسهب، حتى اللحظة لم يقل شيئًا؛ غير أنه ضاق به الحال فجاء إلى هنا باحثًا عن لقمة عيش.

ما إن صمت حتى هبت ذكرى "ريمون" صديق الطفولة والشباب.. تبسم الشيخ وشرد عائدًا بذكراه للأمس البعيد.

صبي يقاربه في العمر، نحيل الوجه والجسد، جاء بصحبة أبويه منذ زمن بعيد باحثين عن حياة بديلة لأخرى خربها زلزال مدمر فكان نصيبهم مع المشردين بلا مأوى.. مع الأيام نمت بينهم روابط الصداقة حتى تأصلت، لم تفرق

بينهما مادة ولا دين، عاشا أيامهما معًا حتى قرر ريمون دخول الجامعة فسكن المدينة وتزوج بها، ومع ذلك ظل الود موصول وإن حال إلى فترات متباعدة، كان آخر عهده معه حين لفظ الصديق آخر أنفاس الحياة في حادث مروع أودى بحياته في الحال تاركًا صغيره وأمه في وجه الحياة وحديهما.

ليأتي بعد كل تلك السنوات ويجد الصغير صار رجلًا وحول عنقه يلتف طوقًا من فضة كان يومًا لأبيه، يقف أمام بابه ويطرقه على حين غرة، يطلب منه ما طلب جده من أبيه الشيخ نعمان قبل سنوات؛ عجيبة هي الدنيا..

- من يصدق بعد هذا العمر أجد ابن ريمون فوق عتب بابي؟

لم يدر أن أفكاره المتعجبة ترجمت لصوتٍ مسموع حتى شعر بحركة مجاورته وأصابعها تعدل من وضع عباءته السمراء المرتاحة فوق كتفه، تبسم لها متابعًا تفاصيل الحكاية:

- كنت صبيًا في سن العاشرة ربما حين جاء أبو ريمون العزبة يسأل أبي المساعدة وقد ضاق به الحال، سبحان الله حين رأيت حفيده قلت الأيام تعيد نفسها.

- له عندك رزق مكتوب يا رحيم.

تطلع إليها للحظات ثم فرد يمناه فوق صدره مغمغمًا بالوعد الذي قطعه للشاب ما إن أخبره عن حاجته للعمل والسكن على استحياء وحرج شديدين:

- وأنا على وعدي، له ما يحتاج وأكثر.

حطت بكفها تحيط بيده المرتاحة فوق المائدة، تدعو له بصدق قلبها:

- أدام الله قلبك طيبًا عطوفًا.

احتوى كفها بين يديه بدفء محيط ويغمغم بمحبة خالصة:

- ولاحرمني منك يا دليلة القلب.

- يا ويلي!..

انتفض الاثنان على صخب عابث استحدث من العدم وسقط فوق رأسيهما قاطعًا خصوصية اللحظة

وحلاوتها.. تردف لأبيها غامزة إياه بشقاوة:

- شقاوتك زادت يا رحيم.

قهقه أبيها وأهتز جسده الممتلىء بينما زجرة أمها جاءت محملة بالحرج وأصابعها تتعثر فوق سفرتها:

- صدف!.. تأدبي يا بنت.

لم تأبه لزجرتها وذراعيها يلتفان حول رقبة أبيها، تمنح وجنته قبلتها القوية قبل ما تميل برأسها لتلاقي عيناه الرقراقة بضحكتها العذوب:

- صباح الخير على كبير المغازلين.. أقصد الصيادين.

غمزها ضاحكًا مبادلًا شقاوتها بربتة فوق خصلاتها المجعدة المحيطة بوجهها الشبيه بوجه أمها إلا من بعض النمش الذي تناثر فوق قصبة الأنف والوجنتين:

- صباح الخير ياشقية.

تركت أبيها وراحت لأمها بطبعها الخجول، تسترضيها و تهديها قبلتها الخاصة بينما تهتف من بين ضحكاتها ومزاجها الرائق:

- تخلي عن خجلك يا دليلة وبادلي زوجك بعضًا من المشاعر حتى لا تأتي غيرك وتملأ فراغه العاطفي.

ضربت وجنتها برفق، تغمغم ردًا على كلماتها والخجل قد بلغ مبلغه:

- لا فائدة ترتجى، قليلة حياء لاتعرفين معنى الخجل..

ثم تطلعت إلى زوجها ومحياه الباسم مردفة بغيظ:

- وكله من أبيك الذي دللك حد الفساد.

امتعض وجه الشيخ في اصطناع وعلق ساخرًا:

- عجبًا للنساء.. تحولت طيبة القلب لدلال فاسد خلال لحظات.

تأهبت السيدة دليلة في جلستها ملقية باتهاماتها عن ذات ثقة:

- تنكر أنك السبب وراء رأسها الشبيه بجوزة هند يابسة؟

وعلى أثر جملتها قفز إلى خاطرها على الفور رفض ابنتها لرجل لايعيبه شيء وأنما فقط تتدلل.. عقدت حاجبيها وأردفت تسأله في الحال:

- باللهِ؛ مما يشتكي زهير ابن الريس فاخر حتى ترفضه ابنتك زوجًا؟

- ها هي تقف أمامك لِمَ لا تسأليها بنفسك بدلًا من الإفتراء واتهامي باطلًا في جعل رأس ابنتي الجميل كجوزة هند بشعة.

- يا شيخ؛ لاتراوغ!

انطلق صفير عال أثر حشر صدف للسبابة والوسطى في فمها، ترفع كفها الحر وتوقف بداية الشجار الدائر في توبيخ مصطنع:

- لا يصح أن تتشاجران أمامي.. كبرتما على هذه الحركات.. سأخرج الآن وأتمنى أن تستغلا غيابي وتتصالحا فأنا لا أريد فضيحة بهذا العمر.

دمدم الشيخ ومازال على مزاحه:

- لا تقلقي حبيبتي أبيك خبير بأمور الصلح.

شهقت دليلة وابنتها تبادل أبيها الضحكات العابثة المبطنة، فلم تجد سبيل غير إدارة الدفة عن تلك المنطقة الوعرة:

- اجلسي وتناولي فطورك أولاً.

- العروس تنتظرني يا دليلة.

أضافت دليلة ببعض الخبث:

- العقبى لك حبيبتي، زهير زينة الشباب والله.. إذهبي ولاتنسي أن تمري على صفية في طريقك كما أخبرتك.

زفرت صدف دون صوت وبصرها يزوغ في عدم رضا بينما تهتف من خلف كتفها، مكتفية بالتعليق على الشق الثاني من الحديث:

- اطمئني لن أنسى.

- صدف..

أوقفها نداء أبيها فاستدار جسدها ملبيًا، يصلها تتمة حديثه وقد تلبسته روح الشيخ الذي يزود بالنفيس والغال فداءً لأهله وعشيرته:

- إن كانت تحتاج غالية لشيء.. أي شيء.. فقط أخبريني.

اتسعت ابتسامتها، تغمغم بفخر داخلي:

- أنتَ بالفعل قدمت لها كل ماتحتاج، أسعدتها كثيرا يا أبي.

- عسى أن تسعد دومًا وتكون لها زيجة الدهر.

وعلى أثر دعاه الحاني أرسلت له عبر كفها قبلتها الحارة وهمت خطواتها برحيلٍ متعجلٍ كان ختامه رد على خبث أمها السابق:

- سأخطب لك الليلة حسناء تسبي القلب.

~~~~

فوق أرصفة الشارع الكبير كانت تسير، لا تحبذ الطرقات والممرات الضيقة وإن كانت مختصرة، كيف يتبدل منظر البحر البديع على يسارها بنسائمه الصباحية المنعشة وترنم الطيور فوق صفحته بجدران البيوت الخانقة، رائحة القهوة القادمة من مقهى الريس فاخر تختلط بأصوات الباعه والجائلين والأحاديث الصباحية للماره تتجانس مع زعيق الصيادين في إيقاع معتاد لا
~~~~

تنفره النفس كثرثرة النساء من خلف الأبواب وروائح أطعمتهم النافذة.

ترفل بالتنورة المزركش طرفها في تبختر عجول بينما تتهادى خصلاتها المجعدة من خلفها ولايمنع تقافزها الماجن غير وشاح ملون تعقده من الخلف، بين ذراعيها لفافة ورقية تحوي ثوبها وباقي متطلباتها اليوم المنتظر، فالليلة عرس أحد أضلع مثلث الصداقة المتين..

الليلة غالية عروس.

انتشت بأفكارها حد ثغرها الذي أفتر عن ابتسامة واسعة، لملمت اللفافه القابعه بحضنها بحرص حتى لا تفسد الثوب الجديد، عكست طريقها إلى زقاق ضيق و طرقت أول باب قابلها،

لحظات وكان يوارب وتطل منه امرأة ثلاثينة تألقت عيناها برؤية الطارق:

- مرحبا خالة صفية.

- أهلا صدف.. تفضلي حبيبتي؟

لم تتحرك بينما تغمغم:

- شكرًا خالتي، تسألك أمي إن كنت تستطيعين المرور عليها عصراً حتى تضبطين لها خصر الثوب؟

هتفت المرأة وسبابتها تتنقل بين عينيها بود ومحبة:

- عيناي للغالية أم حسن، سأمر عليها لا تقلقي.

كللت كلماتها بالشكر:

- سلمتِ ياخالة، عن أذنك تأخرت على غالية وستقتلني لا مفر.

- أوصلي قبلاتي للعروس والعقبى لك حبيبتي.

ودعت الخالة عائدة لسيرتها الأولى، تضرب الأرض بخطاها على عجل حتى جذب بصرها بعض الصغار يبتاعون المثلجات، سال لعابها في الحال ولم تفكر مرتين، ثوان وكانت تنعطف ناحية الدكان صغير، تهتف

باستعجال مقتضب ويدها تمتد بالنقود:

- واحدة بالفانيليا لو سمحت؟

نبرتها العالية أجفلت العجوز الذي مالبث حتى تعرف على هويتها فهتف بتسلية:

- ما رأيك لو جربتي الفراولة يا صغيرة؟

زمت شفتيها، تزمجر بصبر فارغ:

- أنجز عم منير لا وقت لدي للتسلية.. وآآآه لست صغيرة في حال لم تعد ترى جيدًا.

- لِمَ العجلة يا ابنة الشيخ؟

نفخت بضجر قبل ما تجيب على ثرثرة العجوز عله يعتقها:

- اليوم عرس صديقتي ويفترض أن أكون عندها، هذا إن لم يكن لديك مانع.

- آآآه صديقتك الصهباء.. ستتزوج من سليم أليس كذلك؟

همهمت دون رد فعاد يثرثر:

- شاب جيد سليم لكنه سريع الغضب، أوصي صديقتك أن تكون صبورة.

- حسنًا سأخبرها وصيتك يا سيدي.. الآن هل أخذ طلبي أم يكفيني ما نلت من تأخير؟

ضحك الكهل قبل ما يناولها طلبها:

- ونحن لا نرضى بتأخير ست البنات.. تفضلي وبالفانيليا كما تفضلين.. العقبى لك يا حلوة.

شكرته بابتسامة عريضة وغادرت سريعًا، كل لعقة من مثلجاتها توازي همهمة متلذذة، وفي خضم معركتها المحتدمة وشرودها مع وجوه المارة لم ترى البقع المتساقطة فوق قبة ثوبها إلا بعد حين، نفخت بحنق بينما تتوقف وتنزل

لفافتها برفق فوق الرصيف، وأخذت تنظف الثوب بالمحرمة الورقية..

- اللعنة: كل القوة الكونية تتحد ضدي اليوم.

كانت ترغي وتزبد مع حالها حين قاطعها الصوت الأجش:

- تحتاجين مساعدة يا آنسة؟

شهقت:

- أفزعتني زهير!

بابتسامة عريضة:

- آسف.

زوت مابين حاجبيها وهمت باستعجال:

- يجب أن أذهب.

كانت حركته أسرع ليقرر بشهامة منقطعة النظير:

- سأحملها عنك.

نفخت بضجر:

- هل تراني عاجزة مثلا؟ ناولني لفافتي زهير ولا تتعب حالك.

بنظرة هيام مفضوحة وبحة عشق:

- لا بأس، أحب أنا أحمل عنك كل ما يثقلك.

بزمجرة ساخرة:

- أي ثقل زهير؟ إنها لفافة ورقية وزنها أخف من حذائي.

وتحولت نبرة العشق لأمل خائب:

- ستقتليني ذات يوم بنباهتك.

بابتسامة أقرب للسماجه:

- شكرًا لك.

- لا شكر على واجب.

انتهى الحوار السريع ويدها تجذب لفافتها بالقوة من بين أصابعه حتى خلصتها ولم تنسى قبل رحيلها أن تحدجه بنظرة ساخطة.

شاب جيد زهير، صحيح نحيل أكثر من اللازم حد بروز عظام وجهه لكنه يجيد مساعدة الغير، حاجباه لهما لون الشقرة الداكنة كحال خصلاته وعيناه ناعسة في هالة تليق بعاطفته

الجياشة لكنه من عائلة طيبة ويكفي أن أبيه صديق للشيخ رحيم، يقول أنه يحبها بل بلغ أوج عشقه، يرميها في الذهاب والإياب بنظرات العشاق ولا يضيع فرصة حتى يخلق برفقتها حديث، طلبها للزواج ورغم رفضها الواضح، الباتر، إلا أنه يتصرف بثقة كبيرة كون موافقتها شيء مفروغ منه وإن جاءت بعد حين.. وربما كانت لتفكر في القبول لولا أنفه المعقوف وخصلاته الراقدة على جانبها الأيسر وكأنه هارب من فيلم ستيني قديم.

~~~~

- أخرجي صدف.. لا أحتاجك.. اختفى من أمامي حالًا!
~~~~

صرخت صديقتها العروس في وجهها ما إن ولجت.. تركت لفافتها فوق المنضدة واقتربت تقابلها، تبرر بوجه محتقن:

- قفز العلقة زهير في طريقي وكالعادة أخذ يثرثر حتى أخرني..

وأضافت بينما تقترب أكثر وكفيها يلتقيان أسفل ذقنها في توسل:

- آسفة غالية، آسفة.. آسفة.

كتفت غالية ساعديها وبصرها يزوغ في كبرياء مزعوم:

- حسنًا.. سامحتك.

صفقت صدف بجذل وذراعيها يجذبانها بقوة ارتج لها الجسد، تقبل وجنتها بقوة وتعود تقابلها بضحكة بشوش، أصابعها تتشبث بكفيها والحماس يجتاح الغرفة الصغيرة:

- غالية.. هل حقًا اليوم عرسك؟.. متى كبرنا يا بنت!.. كنا بالأمس نلعب في قن الدجاج ونركض فوق الطرقات بأقدام حافية..

- كنتِ تفضلين لعب الصبيان يا وقحة.

جاء الصوت الثالث من عند النافذة يقطع اجترار الذكريات:

- عتاب!.. متى جئتي؟

- أوه أوه، من طلعة النهار وأنا هنا.

سألت صدف وأجابت عتاب قبل ما تردف سريعًا في ابتهاج:

- تعالي بسرعة؛ انظري من هناك..

تركت صدف العروس وراحت تجاور عتاب في فضول ورأسها يمتد خارج النافذة، دار بصرها وتخبط دون دليل حتى جذبتها عتاب من ذراعها، سبابتها تشير ولسانها الدليل:

- أين تنظرين؟!.. هناك فوق الرصيف..

وعادت عتاب ترتكز بكوعها فوق إطار النافذة الخشبي، تكور بكفها أسفل وجنتها وتتنهد بحرارة:

- إنه حبيبي طاهر.

ضحكت صدف ملء فيها حتى أدمعت عيناها وتغضنت:

- أرى عقدة لسانك انحلت، وتنعتيني بالوقحة يا سيدة الوقاحة.

دافعت عن حالها بترفع وتخصر:

- لا أرى وقاحة في التنفيس عن مشاعري المكبوتة لصديقاتي.. ثم أني لا أكذب؛ طاهر حبيبي وسيكون زوجي أن شاء الله.

- بالله عليكِ عتاب توقفي عن قول كلمة حبيبي أمامي، تذكريني بالعلقة زهير وتنقلب معدتي.. ثم أتركينا من طاهر وأخبريني من يكون هذا الطويل الذي يرافقه؟

شهقت عتاب تستنكر جهل الصديقة:

- كيف لا تعرفين المسيحي الغريب الذي جاء العزبة منذ أيام وصار حديث الجميع والفتيات بشكل خاص؟

حركت كتفيها بينما تغادر إطار النافذة:

- سمعت عنه لم أره.

ما إن استدارت صدف حتى وجدت العروس تنكفىء على حالها وتبكي في صمت..

تبادلت النظرات القلقه مع عتاب التي استدارت بدورها، تحرك كلتاهما إليها في وجل، جلست صدف القرفصاء أمامها وأخذت تمسد فخذها بينما احتوت الأخرى كتفيها معا بضمة حانية،

تتسائلان عما حدث بقلق استبد بهن حتى نطقت غالية بعد حين:

- أنا متوترة للغاية.. أشعر.. أشعر بضيق يطبق فوق صدري.. ولا أعرف أين راحت فرحتي؟

ضمتها عتاب لصدرها وقد ترقرق دمعها بينما تهتف صدف ويداها تدعكان كفيها بدفء:

- اهدأي غالية.. مجرد قلق يصاحب جميع الفتيات في يوم كهذا.. لا تستسلمي لشعور خادع وفكري في السعادة التي تنتظرك مع سليم.

غمغمت بعدها عتاب في تهدج وضمتها تشتد حول كتفيها:

- ستكونين أجمل عروس، تبهرين زوجك وتأخذين بقلبه قبل عقله.

أضافت صدف بتفكه، تبدد سماء الكآبة قسرًا:

- أراهن أن سليم سيلتهمك دون مقدمات.

و تابعت عتاب بمزاح جرىء تساندها:

- يا ترى من أين سيبدأ؟

هنا مسحت العروس عبراتها لتزجرهما معا بعقدة حاجبين:

- هذه الأفكار المنحطة هي إنعكاس لتفكيركما الوقح.. سليم لا تشغله تلك الأمور الخارجة عن الأدب.

نهضت صدف عن جلوسها وحاجبها الأيسر يرتفع لها في تحدٍ:

-حبيبتي غالية أفكار سليم وتحديدًا الليلة لن تقرب الأدب بأي صلة.

وصخب الضحكات مع دغدغة أصابعهم لمعدتها أجبراها على الضحك.. تسحبها صدف من الأمام وتدفع بها عتاب من الخلف وحروفها تتصاعد بخبث شقي:

- هيا إلى الحمام يا عروس، سنحممك كما لم تفعلي من قبل.

وتوالت الساعات فيما بعد، صخب النساء قائم في صدر البيت يستقبل الوافدين من الزوار

والمهنئين، تعلوالزغاريد وتتراقص الفتيات ويقفز الصغار مستأنسين بالأجواء الفرحه.. تنهي العروس حمامها عقب ساعتين ويزيد من ثم تستلمها امرأة معروف عنها أنها تجيد وضع الزينة وأخرى تنقش الحناء حتى تألقت في النهاية بثوبها الأبيض ليهديها بطلته الفرح.

في المساء تلألأت مياه البحر بفعل القناديل الممتده على طول الشارع الكبير والأضواء الملونة الملتفه حول أشرعة القوارب تزينها من كل جانب، يسير قارب العروسين المميز ببهرجة ألوانه بحركة وئيدة بينما تصدح أهازيج الزفاف وتضرب الكفوف فوق الدفوف من خلفهم، تترنم حناجر الرجال بالفلكور الشعبي وأغاني التراث

المتوارثة بينما زغاريد النساء من أعالي البيوت والشرفات لا تفتر.

~~~~

- إلى أين لم ينتهِ العرس بعد؟.. طاهر ما بك تبدو مرتبكًا.. طاهر أنا أكلمك!

توقفت خطوات طاهر المتسارعة والتف إلى صاحبه بأنفاس لاهثة.. مضطربة:

- سأقابل إحداهن.

لفظها دون مقدمات وثغره باسم مرتبك مما أجبر إلياس على الابتسام وحاجبيه يلتقيان بفهم:

- حسنًا فهمت.. لكن لم أفهم لِمَ تسحبني خلفك؟
~~~~

- حتى يبدو اختفائي طبيعيًا، لا أريد لفت الأنظار.. انتظرني هنا دقائق وأعود.

أومأ له موافقًا دون حديث حتى توارى عن ناظريه خلف شجرة كبيرة. استدار عنه إلياس بجسده و سار خطوتين حاذى بهما الصخور الكبيرة الفاصلة بينه وبين ضربات الأمواج القوية، تلفحه ضربات الهواء بشدة وبصره يمتد على طول اليم البعيد، غريب؛ كيف يتحول سحره الأزرق بالنهار لآخر مخيف ليلاً؟ كان البحر أمامه معتمًا وكلما امتد بصره زاد ظلامًا و وحشة.. سحب نفس طويل ملأ به رئتيه وزفر آخر تراخى معه جفنيه في لحظة هدوء ناقضت

الهمس الحاد، المزمجر بتحذير.. القائم على بعد أمتار منه:

- عتاب توقفي.. عتاب لا نريد فضائح تخرب عرس غالية.. يا حمقاء توقفي واستمعي إلي!

توقفت عتاب بغتة حد اصطدام جسديهما معًا، ترمقها شذرًا وتضرب بتحذيراتها عرض الحائط:

- صدف توقفي عن ملاحقتي، سأتكلم معه لدقائق فقط وأعود.

- ماذا لو رآك أحدهم وأخبر أبيك.. هاه؟.. سيفصل رأسك عن جسمك دون تفكير.

- أكرمينا بخفض صوتك ولن يرانا أحد.

وأردفت عتاب في سخرية مريرة:

- ثم أن أبي هو السبب في كل ما يحدث، لو وافق على طاهر يوم تقدم لخطبتي لكنت الآن زوجته وما فعلت ما يعيب.. لكنه ينتظر أمير متوج يطلب ابنته.. فلينتظر طويلاً إذن.

- وهل هذا جزاءه لأنه يريد لك الأفضل؟

- لا صدف، لكنه وأمي لايفهمون أني لا أريد أحدًا غير طاهر.

- طاهر.. طاهر.. ما بك عتاب؟.. ألهذه الدرجة صرتي مهوسة فيه؟!

زمت عتاب شفتيها في حنق لكن مالبثت أن انفرجت حين لمحت خياله يقترب من شجرة الليمون الكبيرة، مكمن اللقاءات العابرة ونقطة

التقاء تجمع بينهما بعد ما فرقهم الفقر والحال المدقع الذي يحياه طاهر والذي تدهور تمامًا من بعد وفاة أبيه.. راقبت وقفته بشيء من حزن لتغمغم وقدماها يتحركان ناحيته كمسحورة فقدت هوية الزمان قبل المكان:

- أقسم بربي يكفيني قربه بأي حال كان.

تأففت صدف وهي تتبعها على مضض وفي داخلها تبتهل أن ينشغل الجميع بالزفاف القائم ولا يفتضح أمرهاته المعتوهة.

كانت الخطوات تتقلص ليتقلص معها نبض العاشقين في ولهٍ مؤلم اختلط بحلاوة تزيد من وطأة الشعور، كم مر على آخر لقاءٍ جمع

بينهما؟.. كلاهما لا يذكر، كان بعيد بقدر ما بينهما من مسافات وطرق لا تجتمع..

يلتقيان دون سابق موعد، يكفي أن يمنحهما القدر فرصة ليطلب منها الإذن بطرفة عين فيرفرف قلبها السجين خلف قضبان العشق؛ وحينها لا تملك غير إيماءة صامتة تودعتها كل مكنونات الشوق والقبول.

- مرحبًا.. كيف حالك؟

بالكاد حرر عقال كلماته وعيناه تلتهم كل مافيها بنظرة، خصلاتها العسلية المسدوله فوق كتفيها بنعومة الحرير، قدها المياس الملتف بثوب نبيذي له خامة المخمل، وينهي رحلته القصيرة

فوق عيناها الخضروان، الضاحكتان كوجهها الوضاء.

- بخير الحمد لله.. وأنت طاهر.. كيف حالك؟

لم يجب، فقط ظل أسير عينيها للحظات لم يعِ كم طالت حتى أجبر حاله على التخلي ليتحرك بصره إلى الخلف قليلًا، يتطلع إلى تلك الواقفه خلف عتاب مباشرة وإمارات الحنق تلون صفحة وجهها، تنحنح دون حديث فتنبهت عتاب الساحرة بدورها، دارت برأسها ترمق وقفة صديقتها القريبة في استنكار:

- لماذا تقفين هكذا؟!

فجأة تحفزت صدف بدفاع وهي تقترب خطوة أخيرة كانت آخر مايفصلها عنهما:

- وهل يجب أن أتركك معه بمفردك؟

- صدف!

زجرتها عتاب بكبت حاد لتزفر غيظها وتسحب حالها للخلف خطوتين لا أكثر، تعقد ساعديها فوق صدرها في صرامة جعلت عتاب تكز فوق أسنانها وحاجبيها يتحركان في إشارة للإبتعاد أكثر وهي ترجوها بلطف حانق:

- خطوة أخرى عزيزتي.

تأففت بصوت مسموع تلك المرة، فكت عقدة ساعديها وأخذت خطواتها تضرب الأرض مبتعدة على مضض بينما تغمغم من خلف كتفها:

- لن أبتعد كثيرًا.

خطوتين قطعتهما لتعود مستديرة، ترمق طاهر بحدة وتحذر بشراسة:

- اسمع.. لو فكرت مجرد التفكير في أن تلمسها صدقني ستكون نهاية حبكم الأفلاطونية هذه على يدي.

وتركتهما بأفواه مفغرة.

أخذتها أقدامها حيث البحر، تمنحهما العزلة المبغية وتكون قريبة بقدر كاف لو حضر أحدهم

على حين غره، لكن على مايبدو أن الأحدهم

سبق تفكيرها

وكان حاضرًا بالفعل!..

انقبض قلبها بينما تدور برأسها سريعًا إلى

الخلف، تتأكد أن الشجرة الكبيرة تحجب

العاشقين المعتوهين عن

الأنظار ثم عادت إلى الظل الواقف وخطواتها

تتقدم بحذر، توقفت خلفه تمامًا ونظراتها

تضيق في محاولة

لاكتشاف هويته والظلام الغالب لا يساعد،

اشرأبت على أصابع قدميها تمد برأسها في

محاولة فاشلة قطعها حين استدار بغتةً لترتد إلى

الخلف فزعه ويتدارك إلياس حاله بالكاد فلا يسقط.

أول ما جال بخاطره هو التأكد بنظرة خاطفة أن طاهر وحبيبته يتواريان خلف الشجرة ولم يكتشف أمرهم بعد، لكن ماذا لو رأتهما هذه الصبية وفضحتهما؟!

صبية نحيلة الخصر بثوب من المخمل له جاذبية زرقاء ساحرة تشبه البحر في نهار صيفي مشمس، شعرها الغزير يحيط بوجهها ويتدلى من بين خصلاته المجعدة ماسة لها شكل القطرة ارتاحت فوق الجبين.

قاطعت تشوش أفكاره على حين غرة وقد تعرفت على هويته:

- أردت شم بعض الهواء وحين لمحتك ظننتك شخص آخر.. آسفة على تطفلي.

قالتها بحروف كاذبة حاولت صياغتها بإتقان وهمت باستدارة لتعود حيث صديقتها وتنقذها من فضيحة وشيكة:

- لا عليكِ.. كنت ذاهبًا على كل حال.

قالها إلياس سريعًا، بنبرة عالية مذبذبة غطت على صخب الأمواج بينما يتخطاها ليصل طاهر، نعم طاهر يستحق أن ينقذه من فضيحة محتملة، لكنه ما كاد أن يخطو خطوته حتى وجدها تقفز أمامه، تقطع طريقه بهتاف صارم:

- لا يمكنك الذهاب من هذا الطريق.

توقف يحدجها مستغربًا:

- لماذا؟

ارتجلت أول ما خطر بالبال:

- لأنه يكشف جلسة النساء ولايصح أن يمر رجلًا من عند النساء!

باستعجال كان ينهي المسألة:

- أنتِ مخطئة يا آنسة، أتيت للتو من هذا الطريق ولم يكن فيه أي نساء.. عن إذنك.

أوقفت حركته المناورة بكفين ارتفعا مقابل صدره وصياحها يزداد صرامةً:

- لااا.. لن تذهب.. على جثتي أن تذهب من هنا.

- وما شأنك بي؟.. رجاءً ابتعدي عن طريقي.

تقدمه السريع أجبرها على القفز أمامه مرة أخرى.. تقطع طريقه من جديد وتهدر فيه بعنف زاعق:

- قلت لك على جثتي!

" يا حقير!"

جاء الصوت الدخيل من البعيد يقطع وقفة الاثنين مهرولًا، يتطلع إلى قسمات صدف المتغضنة بجنون ويعود بصره إلى الواقف قبالتها وكما رآه منذ ثوان قليلة يقطع طريقها قسرًا وهي تحاول العبور بزعيق لم يفسر كلماته، لم يحتج غير ثوان أخرى وكانت قبضته تباغت فك إلياس بعنف أعاده للخلف.

- هل آذاكِ صدف؟.. هل تطاول عليكِ هذا النذل؟

يسألها زهير بجنون قاتل أشعلته غيرته العمياء وهو يتخيل هذا الغريب يتحرش بحبيبته وزوجته _باعتبار ماسيكون_ بينما صدف تطالع هياج زهير بفمٍ فاغرٍ ولسانٍ فقد هوية الحديث في حين دمدم إلياس وأصابعه تمسد فكه المتألم:

- أنت تسيء الفهم زهير، لا أعرف الآنسة من الأساس.. كنت مارًا من هنا مصادفة.

كان يعرف كلاهما البعض، معرفة سطحية لا تزيد عن الاسم والهيئة..

- لا عشنا ولا كان بنا عرق نخوة إن تجرأ وتطاول مخلوق على نسائنا..

صاح زهير بانفعال هادر وأصابعه تقبض على تلابيب الآخر الذي هاج بدوره وصاح بأعصاب منفلتة:

- هل أنتَ معتوه؟.. لم أفعل لها أي شيء!

- لنرى الآن من منَّا المعتوه أيها القذر.

واحتدم العراك!

(٢)

- لنرى الآن من منَّا المعتوه أيها القذر.

قالها زهير والدماء تفور في عروقه، يطلق لكماته كثور هائج، لا يصدق جرأة هذا الحقير، أهكذا يرد الجميل لمن استقبله وأكرم ضيافته؟

في المقابل بدا إلياس متحفظًا، حاول صد ضرباته دون مبادلة لكن عقب لحظات قليلة لم يجد خيارًا آخر غير لكم زهير بقوة ليحتدم العراك بينهما وصدف على حالها تراقب مايحدث أمامها بفم فاغر وتهذر بين الفينة والأخرى:

- يا ويلي.. يا ويلي!..

وبداخلها كانت تلعن زهير ودور العاشق حار الدماء الذي يتلبسه وكأنها بالفعل تخصه ومآلها إليه في النهاية.

أجفلها صراخ زهير:

- سأقتلك.. أقسم بربي لن أتركك حتى أعلمك معنى الرجولة يا خسيس.

جاء رد إلياس بدفعة قوية طرحت الأول أرضًا ونظرة مزدرية طالته بينما يبصق الدماء عن فمه، لينهض زهير من فوره ويقترب بإصرار أكبر، يمنحه رفسة جديدة فشل إلياس في صدها فطالت معدته، أغمض عينيه متأوهًا في ألم في حين جاء الصوت الهادر ركضًا ليشق العراك الدائر:

- توقفا.. توقفا..

ويردف لاهثًا:

- ما بالكم، هل جننتما؟!

خرجت كلمات طاهر قوية كفاية لينظر له إلياس دون رد ويتوقف زهير عن حركته الثائرة بينما يشير إلى الآخر بملامح مشمئزة و يصرخ من جديد بهياج رجل.. وغيرة عاشق:

- سأخبرك؛ لكن دعني أولًا ألقن هذا القذر درسًا لن ينساه أبدًا قبل أن أرميه خارج العزبة بيدي هاتين.

أنهى كلماته وجسده يتقدم بالفعل ناحية إلياس ليهرع طاهر يقطع تقدمه بهتاف عال وذراعاه يلتفان حول خصره:

- توقف زهير وأخبرني عما يحدث.. لا بد أنك أسأت الفهم.. مؤكد أسأت الفهم!

زمجر بحدة محاولاً دفعه:

- ابتعد طاهر.. ابتعد عن طريقي.. لم أرتَحْ له من البداية وها قد بانت نواياه الخبيثة.. لعنة الله على أمثاله!

- زهير!

جاءت الصيحة الغاضبة قريبة لتلتف الأعناق ناحية الشيخ رحيم الذي راح يتقدم بصحبة

إثنان من الرجال مستفسرين عن ماهية ما يحدث ليكون طاهر أول الناطقين وقد ضايقه حال إلياس الصامت وقد ظهر غيظه المكتوم فوق وجهه المكفهر بشدة:

- سوء تفاهم وقع بين الشباب وسنحله يا شيخ لا تقلق.

لم يعجب الشيخ ما قيل وعيناه تلتقط وقفة ابنته وصديقتها في الجوار ليعاود السؤال بشكل مباشر.. والتمهل بين الكلمات دليل الغضب:

- ليتكلم أحدكم الآن ويخبرني عما يحدث هنا بالضبط.

نفض زهير ذراع طاهر المحيطة بخصره وتقدم يقابل الشيخ رحيم هادرًا بغضب لم يهدأ بعد:

- كان هذا الحقير يقطع طريق صدف، تجرأ على ابنتك يا شيخ!

تعالت الهمهمات الغاضبة والعيون جميعها تحدق في هذا الواقف ولا يبدي أي رد فعل، فقط يخص زهير بنظرة مزدرية، صمت الجميع حين خرج سؤال الشيخ رحيم محملاً بالكثير وبصره يلتف ويضيق على مهل حتى شمل إلياس بنظرة:

- هل ما يقوله زهير صحيح؟

زفر إلياس وبصره يلتقي مع الشيخ رحيم، صدمته بكون تلك الصبية ابنته جعله يدحر غضبه المكتوم ويقترب خطوة واحدة يقابله فيها ويدمدم بتروّ مدروس:

- طوقتني بكرمك وقلت اعتبر حالك بين أهلك.. هل تراني وضيع يا شيخ لأرد جميلك بهذه الخسة؟

ظل الشيخ على حاله يحدجه في صمت حتى جاءت دمدمة أحد الرجلين محملة بغلظة شديدة:

- لنسمع من طرفك إذًا ونحكم بعدها إن كنت بتلك الخسة أم لا؟

دار إلياس على عقبيه ناحية الرجل ونبرته الغليظة ليبتلع لعابه في عسر ومنه تحرك بصره إلى طاهر الذي شحب وجهه ونظرته الهلعة ترجوه أن يحفظ سره، أرخى جفنيه باحثًا في دهاليز عقله عن مخرج من هاته الورطة لتصدح نبرة زهير محملة بالكراهية والبغض لونتهم السخرية:

- أراك صامتًا.. هل تفكر في كذبة جديدة تزين بها وضعك المخزي؟

- أنا سأخبركم بما حدث..

نبرتها القوية وازت خطواتها المتقدمة بثبات لا يقبل التراجع، لم تأبه لغمغمة عتاب المرتبكة وهي تأمرها أن تعود وتلتزم الصمت.. تواجه أباها

وتهتف له وحده دون الغير بأنف شامخ وفم واثق دون الحاجة إلى مقدمات:

- لم أجد أخي الحسن بين الأولاد، خرجت أبحث عنه وحين وصلت إلى هنا وجدت هذا الشاب فسألته إن كان قد رآه.. كنت منفعلة وأتكلم بقلق بالغ وعلى ما يبدو أساء زهير الفهم وظن أن الشاب يضايقني لكن وللأمانة لم تفارق عيناه موضع قدميه حتى أنه عرض المساعدة على استحياء.

سكتت وطرف بصرها يلتقط رغمًا عن الإضاءة الخافتة وجه زهير الذي تبدل وصار ألوانًا متضاربة، ذلك الأبله يظن أنه بذلك الأداء المبالغ

فيه سيكسب قلبها.. عادت تنظر لأبيها في تألق مردفة بنصر داخلي:

- هذا كل ما حصل بالضبط يا شيخ رحيم.

تمتم الشيخ بكلمات مبهمة بينما يأمرها بحركة من رأسه أن تأخذ صديقتها وتذهب، امتثلت لأمره وانسحبت في الحال ليعود إلى الرجال ويخص زهير بنظرة ذات مغزى:

- ما رأيك في هذا يا زهير؟

ارتبك زهير بشدة، تجلجلت حروفه ونظراته تخجل من لقاء الشيخ، يقول مدافعا:

- لم يكن هذا ما وصلني..

حرك الشيخ رأسه بغير رضا وأصابعه تشتد فوق حبات مسبحته اليُسر، يطالع إلياس بنظرة سريعة ويعود إلى زهير معاتبًا وقد هدأت نبرته:

- منذ متى وأذرعنا تسبق عقولنا يا زهير؟.. لماذا تقدم إساءة الظن بني؟

طأطأ في حرجٍ منه:

- ماذا أقول، هذا ما حدث يا شيخنا.

- أعتذر عما فعلت.. هيا تحرك، لن تناما الليلة وفي قلب كل منكما شيئًا على الآخر.

يهم زهير بفعل ما أمر كبيرهم وإن كان في داخله غير راض تمامًا، لكن هكذا قال الشيخ رحيم لذا وجب العمل والطاعة في الحال لكن جاءت يد

إلياس الممدودة تقطع تقدمه وهو يدمدم باقتضاب:

- سوء تفاهم وانتهى.. أستأذنكم بالذهاب.

قالها و ولى الدبر في الحال، تفرق الرجال بعد ما أكد الشيخ على زهير أن يتركه يهدأ الليلة ويصلح ما بينهما في الغد، أما طاهر أخذت خطواته تلحق به دون أن يوازيه، يشعر بالحرج الشديد، فلولاه ما جاء إلياس لتلك البقعة وتقابل مع صدف ثم جاء زهير وحدث ما حدث.. زفر بضيق وذراعه يمتد ليوقف متعجل الخطى على حين غرة:

- لحظة إلياس.. لحظة أرجوك..

دفع بيده وهتف بحدة:

- اتركني طاهر.

- بربك إلياس لا تأخذ كلام زهير على محمل الجد.. هو ليس شخصًا سيئًا لكن وقتما يمس الأمر الفتاة التي يريد يتصرف برعونة وتهور..

ويردف معترفا، معتذرا:

- و مع ذلك أنا الملام، بسببي تورطت معه.

توقف إلياس يهدر أنفاسه ويقابله:

- بل أنا من أخطأ حين وافقتك بالذهاب.

- يا أخي لا تقل هذا..

قاطعه:

- على كل حال أنا بخير لا تشغل بالك.. عد إلى بيتك تأخر الوقت كثيرًا.

قالها وأسرع بالخطى قاطعا على الآخر أي محاولة أخرى.

~~~~

تقف أمامه برأس مطأطأ، ذقنها يلتحم بصدرها بينما تعضعض شفتيها في انتظار أن ينتهي أبوها من وصلة التقريع الخاصة:

- هل سمعتني صدف؟.. لا أريد لما حدث أن يتكرر.. ابنة الشيخ رحيم لا تكون موضع شجار مهما صار.
~~~~

رفعت رأسها تقابل نظرات أبيها في جلسته فوق المقعد الخشبي المحفور بفن الأرابيسك من أعلاه وحتى قوائمه ليهديه الهيبة التي تليق بنظراته في هاته اللحظة، كانت عضلات فكه مشدودة رغم ارتخاء نبرته، ومع ذلك لم تستطع غير أن تغضن جبينها وتجادل بحروفها:

- وما أدراني بتهور زهير؟ حاولت إيقافه لكنه مثل الثور الأصم.

- دون كثرة كلام.. ما حدث لن يتكرر.. مفهوم؟

حركت رأسها في طاعة وملامحها تتباسط في براءة وقد شعرت بتهديد خفي:

- أمرك شيخ رحيم.. كل أوامرك نافذة يا سيدي وتاج رأسي، وهل هناك من يجرؤ على مخالفة شيخ الصيادين؟!

كانت نبرتها تتلون بدلال تجيد عزفه فوق وتر أبوته وتعلقه الشديد بها، حرك رأسه بينما ينهض عن جلسته، يشمر عن كمي ثوبه ويرفض تخابثها المفضوح:

- أساليبك الخبيثة هذه تفلح مع الجميع إلا أنا يا ابنة رحيم، تذكري هذا.

وينهي الحديث:

- إلى غرفتك هيا، أريد أن أصلي وأنام.

قفزت تقبل رأسه قبل ما تغادر الغرفة وتغلق بابها بهدوء لتصطدم بأمها عائدة وبين يديها طبق فاكهة كبير، تنظر لها بعدم رضا لرعونة تصرفاتها، نظرة تحذرها فيها من التمادي في طيشها فتقرر الأخيرة الهرب بتثاؤب كاذب.

حين دلفت غرفتها ارتمت فوق الفراش، ظلت تحملق في السقف للحظات ثم امتدت يدها لقبة ثوبها، أخرجت القلادة الفضية، ترفعها أمام ناظريها، تحملق في الصليب المتدلي لثوان قطعتها وهي تتذكر كيف سقطت حين جذب زهير قبة قميصه، ظلت تراقب الوضع من البعيد حتى غادر الجميع وحينها قررت العودة لأخذها.

اعتدلت تفتح الجارور المجاور لفراشها، تركتها متخفية أسفل بعض الأغراض، ربما تعيدها لصاحبها في الغد أو بعد غد لا تدري، ما يشغل تفكيرها في هاته اللحظة هي الخالة أم زهير، طوال الأمسية وهي ملتصقة بأذن أمها تهمس لها كل حين، كانت حجتها في السابق قوية، لكن الآن وقد أنهت مرحلتها الثانوية بطلت الحجة، كيف تقنع والديها برغبتها في الالتحاق بالجامعة؟

فعلى الرغم من كون أبيها رجلًا محبًّا للعلم والتعلم بل وكان له الفضل الأول والأخير في وصولها لهذه المرحلة إلا أنه يحسب ألف حساب للعادات والأعراف التي كبر وشاب عليها فلا يتقبل فكرة اغتراب ابنته في المدينة بمفردها..

لكن؛ عليها أن تملك الشجاعة الكافية إن أرادت امتلاك أحلامها البعيدة.

وعلى ذكر الأحلام عادت تتمدد فوق الفراش، تقوس خصرها النحيل وتغمض عينيها، أفتر ثغرها عن ابتسامة صغيرة وهي تتخيل حالها بين جموع من البشر رجال ونساء، تسير بين الزحام وتتخبط بين الوجوه، عابس، متعجل، متحمس، ضاحك.. المباني شاهقة الطول ومتلاصقة ببعضها كعظم ولحم، متاجر كثيرة أبوابها مشرعة من كل اتجاه وأبواق السيارات تختلط مع أصوات المارة، تتطلع حولها بانبهار فتغشي عينيها الإضاءة القوية..

حياة مختلفة..

عالم آخر يثير فضولها وتحلم برؤيته.

~~~~

تنتفخ عروقه النابضة فيشد بقبضتيه فوق تلابيبه، يزأر كأسد حبيس ويضغط بجسده فيزيد عليه الخناق، وجهه الممتلىء يتفصد عرقًا وقد بدت عليه إمارات الاختناق، يلهث بلسانه خارجًا كأنما يبغي النطق فلا يقدر، لحظتها قرر أن يدنو منه أكثر، يلتحم بشحم أذنه، يعبد له طريق النهاية ويلقي به فوق حافة الموت:

- سأقتلك.. أسمعتني فايد؟.. سأقتلك!

ومع تأكيده الثاني توقف بغتة، تدفق الدماء من بين أصابعه جعلته ينتفض مرتدًا خطوة إلى
~~~~

الخلف، يراقب السائل اللزج يقطر من بين أصابعه فتتقطع أنفاسه، يرفع بصره الذاهل نحو الوجه الممتلىء فيجده منحور العنق متبسما له في ظفر، فجأة تعال الضجيج، أصوات لا يعي مصدرها اختلطت مع ضحكات هذا الذبيح، وكلما زاد الصخب تضاعفت قطرت الدماء أكثر، حتى بات واقفًا في منتصف بركة من الدماء، رائحة مشينة تقترب، رائحة الموت تفوح.. أخيرًا حرر صوته من جديد، يهتف بجحوظ عينين أقرب للمجون:

- لا تضحك..

ويكررها في تجلجل، جسده المبتل بعرق فياض ينتفض لكن العينان الشامتتان لا تفارقه بل

تزداد اتساعًا مع قهقهة غلبت الضجيج، الطرق المؤلم داخل رأسه لا يكف، أمسك بجانبي رأسه متلويًا في ألم، يميل بجذعه صارخا بعنف ارتج له الجسد:

- عليك اللعنة؛ توقف!

انتفض الجسد الراقد شاهقًا من نومته مع اتساع عينين ولهاث ألم ضلوعه لشدة تحشرجه، قلب بصره فيما حوله ببطء أعاد له الوعي على مهل، زفر بتثاقل ويده تمسح عن جبينه المتعرق عائدًا بخصلاته الملتصقة فيه إلى الوراء و يلقى بوجهه بين كفيه يفركه في استفاقة تامة حتى تنبه على طرقات الباب العالية، نفض عنه غطاء النوم ونهض مثقل الخطى إثر كابوسه

المفزع، ما إن فتح الباب حتى ظهر له الوجه المألوف متململًا في وقفته:

- أما أخبرك أحد من قبل أن كثرة النوم تجلب الفقر؟

وخطى إلى الداخل ضاربًا كتفه براحته بينما يتخطاه:

- والعبوس أيضًا.

جاوره فوق الطاولة القابعة أسفل النافذة ملقيًا بحاله في صمت أثار ريبة الضيف، قائلًا:

- ماذا حصل؟.. هل ضايقك حضوري؟.. لكن ألم نتصافى صباحًا وقلت أنك نسيت ماحدث.. والله يا صاحبي..

قاطعه:

- على مهلك طاهر، هذا الأمر انتهى دعنا لا نذكره.

ضرب طاهر فوق الطاولة بغضب لون كلماته وقد عاد لتأنيب الضمير:

- والله لا أستطيع مسامحة حالي، يكفي فقدانك لسلسالك.. أكان ثمنه كبير بالله؟

- لا أعلم.. كان لأبي.

قالها باختصار ونهض متحركًا ناحية البراد مغيرًا دفة الحوار:

- جيد أنك أتيت، نتعشى سوية.

أشعل الموقد ثم دار برأسه يتطلع الى جليسه فوجده عابس الوجه، تنهد ونبرته تشتد رغمًا عنه:

- ما رأيك لو تخطينا تلك الليلة وكأنها لم تكن؟

بدا طاهر محرجًا أكثر بينما يثرثر بضيق حقيقي:

- لم تقل من قبل أنه لأبيك؟ مؤكد كان يعني لك الكثير.. وربما لا يجوز لك خلعه.. يعني.. أقصد فيما يخص الديانة المسيحية وما شابه أنا لا أعرف الكثير.

- انتهينا طاهر!

صاح ويده تلقي بالصحن الفارغ دون وعي ثم دار نصف خطوة سحب فيها أكبر قدر ممكن من

الهواء محاولًا ضبط أعصابه المنفلتة وأصابعه تفرك بين عينيه في تعب بينما طاهر يلقى ببصره خارج النافذة المشرعة في صمت مطبق.

كان قد أعد طبق من الجبن المهروس بالبندورة وبعض الزيت مع شرائح الباذنجان المقلية حين عاد إليه، وضع أمامه كسرة خبز وجمل كلماته بابتسامة صغيرة، متكلفة:

- انفعلت عليك دون قصد، آسف.

وشرع في تناول الطعام بشهية مفقودة حتى جاءته نبرة طاهر ومازالت شاردة نحو البعيد:

- أعلم أن هذا لن يفيد، في الأساس كل مرة أقول ستكون هذه الأخيرة.. هل تظن أني راضٍ عن

رؤيتها في الخفاء كحقير يرتضي لبنات الناس مالا يرتضيه لأهله؟.. والله إن الأمر ليس بيدي..

فهم إلياس أن طاهر يفصح عن مكنون قلبه بعفوية كما اعتاد منه، تبدلت نظرته لأخرى يائسة بينما يميل بجذعه بعض الشيء والسبابة مع الوسطى تنقران موضع قلبه كسيخ يحرك جمر متقد، يردف بقلة حيلة:

- يضعفني هذا يا أخي.

توقفت اللقمة بين يده وفمه مستفهمًا وقد ضاق صدره لنبرة القهر في صوت جليسه:

- لا أفهمك، إن كان الأمر كذلك لماذا لا تتقدم لخطبتها؟

أطلق طاهر ضحكة فاترة بينما يرتكز بساعده الأيسر فوق حافة الطاولة و يمناه تشير نحو الفضاء الخارجي:

- أترى تلك النجمة البعيدة؟.. المسافة بيننا بهذا القدر إن لم يكن أكثر.

وتنهد عائدًا إليه ببصره موضحًا أكثر:

- ذهبت لأبيها، قلت زوجني ابنتك وعهد علي لن تراها إلا سعيدة مرتاحة، ماذا تتوقع رده؟.. لم تمر ساعات وكان يقول لي: كل شيء نصيب.. لم يخبرها حتى، كنت في نظره أقل من أن يفعل.

وصمت هنيهة تابع بعدها وشفاهه تفتر عن ابتسامة ساخرة، مريرة:

- صدقني أنا لا ألومه.. من يرتضي لابنته رجلًا يعول أربعة نساء ورزقه بالكاد يكفي قوت يومه؟

لم يجد إلياس مايقول فآثر الصمت في حين تبدلت ملامح المتكلم نافضًا عنه رداء الغم محاولا تلطيف الأجواء التي تعكرت بحضوره:

- تقول مالي ومال هذا البائس، وكأن أحدًا تنقصه هموم.

- لا تقل هذا، صحبتك تؤنسني.

- إن كنت تعتبر ما بيننا صحبة حقيقية لماذا إذًا لا تتكلم معي عن أي شيء يخصك؟

- ماذا تريد أن تعرف؟

- مثلًا من أي مدينة جئت؟ هل أنت متزوج؟ ماذا عن عملك القديم؟.. أشياء كهذه.

سعل إلياس بينما يتحرك في مقعده وقد بدا متوترًا أكثر من اللازم وهو يقول:

- لست متزوجا.. وكنت أعمل في شركة بناء.. انظر؛ أخذنا الحديث ولم تأكل شيئًا.. سأغلي الشاي.. تريد؟

نفض كفيه وتحرك ناحية الموقد القابع بالزاوية متحاشيا النظر إلى طاهر المراقب لكل تحركاته وقد بات موقنا أن هذا الرجل لديه موال طويل يخفيه، ومع ذلك يشعر ناحيته بالود والألفة وكلما حثه عقله على التريث والحذر يجد حاله يفعل العكس، ناداه برفق:

- إلياس..

ولم يكن ينتظر ردًا حيث نهض واتجه ناحية الباب، يقول ويده تدور بالمزلاج:

- يمكنك أن تثق بي.. تذكر هذا دائمًا.

ارتكز بكفيه فوق سطح المبرد الصغير رافعًا بصره للسقف القريب وحفيف الخطوات الراحلة تصله على مهل، ليت الأمر يتعلق بالثقة يا طاهر، ليته بتلك البساطة..

هكذا حدث نفسه.

~~~~

كانت أقدامه تركل الحصوات الصغيرة من بين خطواته الوئيدة، شارد الذهن والبصر، يفكر في
~~~~

صاحبه الذي غادره قبل حين، ترى أي أمر جلل يخفيه هذا الإلياس، يزين له الشيطان أفكاره فتذهب به إلى أسوأ الظنون، يتنهد مستغفرًا، حائرًا، ويعود في النهاية إلى قرارة نفسه مستفتيًا قلبه فيجد حاله مطمئنًا من ناحيته..

- طاهر..

همس مفاجيء من الخلف نفض جسده وقطع فكره السارح، استدار في وجل متعجبًا وقد سبق صوتها صورتها:

- عتاب!

بنظرة خاطفة استطاع رؤية مقلتيها الدامعة، وجهها المنتفخ باحمرار شديد، انخلع قلبه ويده تمسك بعضدها متسائلًا في فزع:

- ماذا حدث؟!

مع سؤاله انفلتت شهقتها الصغيرة فنكست برأسها في اختناق، دار برأسه يمنة ويسرة متطلعًا من حوله في توتر، صحيح انتصف الليل منذ وقت لكن هذا لا يبيح لهما الوقوف فوق قارعة الطريق هكذا دون ساتر، سحبها من يدها حتى تواريا داخل زقاق جانبي يسبق بيته بخطوات قليلة وتكسوه عتمة الليل من كل جانب، توقف يقابلها وأصابعه تضغط فوق ارتجاف يدها دون وعي:

- تكلمي؛ انخلع قلبي.. ماذا حدث لتكوني بهذه الحالة وتأتين إلى بيتي في مثل هذا الوقت من الليل؟

- أبي..

- ماذا به؟

- سيزوجني.

ساد صمت مفاجيء أشد قتامة وعتمة من الظلمة المحيطة، لم تجد من لدنه ردا غير حشرجة أنفاس حارة كانت تلفح وجهها القريب على مهل، أصابعه المحيطة بكفها تراخت ببطء حتى أفلتها.. همسها القلق خرج بحشرجة مشابهة حين طال صمته:

- طاهر..

جاء صوته بعيدًا، بعيدًا جدًا:

- من يكون؟

- لا أعرفه، تقول أمي أنه قريب الخالة أم سليم، عاد لتوه من خارج البلاد و يبحث عن عروس مناسبة، رأتني أمه في عرس غالية و زارتنا ليلة البارحة..

وتابعت بنبرة مرتجفة:

- حددوا له موعد زيارة بعد يومين لكن أبي يراه أكثر من مناسب وينوي جعل الأمر رسميًا في أقرب وقت.

عاد خطوتين للخلف فأنار المصباح الجانبي للشارع منتصف وجهه، ملامح عادية لا يوجد بها ما يلفت النظر عدا عينين واسعتين داكنتين برموش كثيفة، بهما لمعة تقول أمه أن بريقها يشتد حين يفرح وتخبو مع الحزن والهم.

ختمت ارتجاف حروفها بسؤال واهن:

- ماذا سنفعل؟

صوته الجامد غلب نظرته الغائمة:

- ستعودين إلى البيت الآن.. ولن تكرري فعلتك هذه عتاب، هل فهمتني؟

سارت خطوتين تنهي ما بينهما من مسافة قطعها، تنظر لعمق عينيه في توسل عاجز:

- أقول لك سأتزوج رجلًا غيرك طاهر.. هل تفهمني أنت؟

رأت اهتزاز محجرية الداكنين قبل ماتصلها حروفه المثقلة:

- أفهمك.. أفهمك جدًا.

- إذن قل لي كيف نتصرف في هذه المصيبة؟

أطلق زفرة طويلة، مختنقه بينما يشيح بوجهه جانبًا، عاد لها بعد ثوان قليلة، ورأسه يهتز بعجز واضعا الحقيقة الواضحة نصب عينيها الحزينة:

- لن يقبل بي أبوك بكل الأحوال.

- حاول لأجلي.. ألا أستحق منك محاولة أخرى؟

وهطلت دمعتها الثقيلة تبعها الكثير بينما تتطلع إليه في صمت، سألته عيناها عن عهدهما القديم فأجاب قلبه أنه عاجز في بلاد العوز وقلة الحيلة.. ولا يدري هل شفقة على حالها أم قلبه المنتفض بين الضلوع هو من دعاه لتمالك نفسه وغرس الأمل في أعماق كليهما:

- لن نسبق الأحداث، دعيني أفكر ونتحدث بعدها.. ربما غدًا عند الشجرة.

وأردف دون انتظار:

- يجب أن تعودي الآن، إذا اكتشف أبوك غيابك ستتعقد الأمور أكثر.

محت أناملها بقايا دموعها العالقة وخطوتها تتأهب لرحيل لن تخطوه قبل ما يهديها وعد يطمئن به قلبها العليل:

- سأنتظرك غدًا.. لن تتأخر؟

- لن أتاخر.

~~~~

في الصباح كان يستعد لمغادرة البيت حين طرق الباب طرقة خفيفة، ظن أن طاهر جاءه ليذهبان للعمل صحبة كما يفعل أحيانًا، ولأن طاهر هو الشخص الوحيد الذي يطرق بابه لم يجل بخاطره أحدًا غيره حتى ظهر أمامه الوجه الأنثوي مخيبا لكل ظنونه، لم يتوان في إظهار
~~~~

دهشته وهو يراها تقف أمام بابه دون سابق إنذار..

- أنتِ!

حملقت فيه لثوان عادت بعدها وفضول الأنثى لديها يحثها على المماطلة، سبر أغوار الماثل أمامها والذي يثير حيرة أبيها وحيرتها منذ ليلة العرس:

- الناس تقول صباح الخير.. مرحبًا.. أهلاً وسهلاً.. أشياء من هذا القبيل.

أخرجه صوتها من ذهوله ليرفع حاجبيه في نزعة استغراب جديدة بينما حروفه تتشكل على مهل، ولا ينكر رؤيتها عكرت مزاجه من باكورة الصباح:

- بم أخدمك يا آنسة؟

كان دورها لترفع حاجبيها وابتسامتها تتسع بخبث دون إرادة منها مُفعلة من غيظه أكثر:

- يبدو أنك من أصحاب القلوب السوداء.

- عفوًا!

غاب خبث النظرة لتحرك كتفيها بجدية رائقة:

- أقول أنك مازلت غاضبًا من فعلة زهير.

ثم أردفت في الحال وملامحها ترسم فخر عجيب أثار سخطه:

- صحيح ما رأيك في دوري البطولي؟.. عليك الاعتراف لولا ذكائي الحاضر لكنت في خبر كان.

- رأيي أن تحلي مشاكلك الخاصة مع خطيبك دون أن تقحمي أي مخلوق بينكما، ما فعلتماه تلك الليلة كان مبالغًا فيه و سخيفًا.

كانت تبحلق فيه وتصخي السمع في استمتاع مع لهجته المخالفة لما اعتادت سماعه من ساكني العزبة، حتى انتهى فتشدقت ضاحكة:

- أرى أن لكمات زهير أصابت مراكز الوعي لديك..

لم تجد منه ردًا فتبدلت بشاشة وجهها لتقطيبة جبين ونظرة حادة وازت حروفها الخشنة:

- اسمع يا هذا، زهير ليس خطيبي، ولن يكون، لذا وفر نصائحك الغالية لنفسك.

- حسنًا، سأوفرها.. الآن ماذا تريدين؟

- يا لك من متبجح، تقف ببيتي وتسألني عما أريد؟!

جاء رده في خطوة إلى الخارج، يغلق الباب من خلفه على مهل ثم يستدير لها من جديد محاولًا تصنع الهدوء مذكرًا حاله أنها ابنة الشيخ رحيم، الشيخ رحيم الذي يأويه في بيته ويعمل لديه، وأنه مهما غضب من موقف سخيف وجد حاله ساقطًا بين شباكه عليه المرور، المضي دون الالتفات متذكرًا الحقيقة الوحيدة، أنه هارب من مصير حالك ولا يوجد أمامه غير هذا المكان يلجأ إليه، لذا عليه الصمت، إن تطاول عليه زهير أو غيره، إن تم اتهامه بقلة الشرف أو الخسه، عليه أن يخمد شعوره الثائر ويضمد

كبرياء الرجل في صمت، بل ويفعل كما يفعل الآن، يحني رأسه للأسفل ولا يدع أي محتمل للشك يشعر به الغير:

- تأخرت على العمل، إن لم يكن هناك ما تحتاجينه سأذهب؟

ولأنها لا تشبه الغير صدمته بالجواب:

- ولماذا أحتاجك؟ من تكون حتى أفعل!

قالتها ببعض الفظاظة والتعالي ليوليها ظهره في الحال مقررًا الرحيل دون رد حتى أوقفته بغتة:

- توقف.. معي شيء يخصك.

توقفت خطواته دون استدارة، زفر بحرارة، تحركت صدف بخيلاء تدور من حوله حتى

قابلته، تنظر له في صمت، تخرج من جيب ثوبها السلسال خاصته وتأرجح به أمام ناظريه:

- أظن هذا لك.

نقل بصره بين يدها وعينيها لوهلة، دمدم بعدها بخفوت:

- كنت أبحث عنه.. شكرًا لك.

وتقدم نصف خطوة، مد يده ليأخذه لكن حركتها كانت أسرع حيث أبعدته عن مرماه وعينها اليسرى تغمز بمقايضة:

- ليس قبل أن تخبرني عمن تكون يا هذا؟!

(٣)

- ليس قبل أن تخبرني عمن تكون يا هذا.!

في تلك اللحظة تكر وتفر بداخلك ألف مرة، ترتطم بين الحقيقة وما تخفيه فتسقط بين حيز ضبابي، تعيد حساباتك بتشوش، تنقب عن الثغرة، تسأل حالك أين الخطأ، وتضع أسوأ الاحتمالات كنتيجة حتمية..

لحظتها أنت تنتهج الغباء..

أو الغباء هو من ينتهجك كطوق نجاة دون وعي..

- لا أفهمك؟!

قالها ويده تعود حيث كانت، ترتكن جوار جسده، يغالب توتره الوليد بهدوء ظاهري،

يخمد ثورة عقله ويولي كل انتباهه لرفعة حاجبيها، نظرتها المتفحصة والتواء شفتيها الساخر بحروف متمهلة:

- هل تظن أننا أغبياء؟..

وتحتد نبرتها:

- ربما حياتنا الصغيرة لا تشبه عالمكم الكبير.. ربما نحن بكل عاداتنا وأفكارنا البسيطة لا نشبهكم في شيء لكن الأكيد لسنا أغبياء.

ضاقت عيناه بغباء حقيقي تلك المرة، لا يفهم عما ترمي إليه لكن حتما تقلقه نظراتها ولهجتها المحتدة دون مبرر يعلمه.

اقتربت تقلص بينهما المسافة أكثر مما يجب، تواجه عينيه عن قرب خطير أتاح لها الشعور بتعثر أنفاسه الحاره:

- حين يهرب شباب العزبة من ضيق الحال وقلة الحيلة فتأتي أنت وتقول: ضاق بي الحال وجئتكم باحثًا عن حل، نحن لا نصدقك لكن نحسن استقبالك، نقاسمك رزقنا ونصاحبك لا مشكلة، لكن لا نصدقك!

كلماتها المتمهلة واضحة، بصقتها في وجهه دونما يرف لها جفن، أخبرته صراحةً أن كذبته مفضوحة، وأن الأرض الذي يقف عليها قد تمنحه كل شيء عدا المال الذي يدعي حاجته وفي تلك اللحظة: آن لراية الصمت أن ترفع.

عادت نصف خطوة تتيح له رؤية تعابير وجهها دفعة واحدة، وجاءت حروفها بنغمة تحذير:

- إياك أن تظن في الشيخ رحيم لقمة سائغة.. كل رجال العزبة من صغيرهم حتى كبيرهم يقفون في ظهره.. وقبل الجميع تجدني أنا.

ذقنها يرتفع للأعلى شامخًا، متحديًا، حروفها لا تراوغ، لا تتجمل، عند أبيها كل شيء يجب أن يلزم حده، أبيها الذي يساوره الشك في هذا الواقف قبالتها ومع ذلك لا يتوانى عن تقديم المساعدة بل وأكثر والسبب كونه ابن صديقه الراحل، أي صديق وأي ثقة يا شيخ ونحن في زمن لا تأمن فيه لأخيك.. ربما يكون هذا الإلياس لصًا، طامعًا وجد في أبيها صيد سهل لنواياه

الخبيثة، ربما وراءه كارثة لا يعلمها إلا الله يتورط فيها أبيها دون وجه حق، ربما، وربما.. الاحتمالات كثيرة وكل شيءٍ جائز، كله وارد.

- خيالك جامح لدرجة تؤهلك لصنع فيلمين في وقت واحد.

انتشلها من أفكارها السارحة بقسمات هادئة لا تليق بسخرية كلماته، تقهقرت خطوة أخرى إلى الخلف، شملته كله بنظرة سريعة، حاجباه يلتقيان بتغضن صغير، قبضته اليسرى لم تتغير وضعيتها منذ قذفت سؤالها في وجهه، ابتلع لعابه أربع مرات بينما تلقي بكلماتها فوق مسامعه، وجسده بدا متحفزًا أكثر من اللازم لشخص من المفترض أنه يستمع لمهاترات.. ولأجل

كل تلك الدلائل التي أرضتها قررت اتباع خاصية النفس الطويل.

مدت يدها بالقلادة خاصته، طالعها بصمت لثوان معدودة بسط بعدها كفه فتركتها تسقط داخل راحته، واستدارت تنهي اللقاء بنظرة أخيرة.. كلمة أخيرة.. وتحد أخير:

- سنرى.

~~~~

- أرسلتي في طلبي؟

قالتها بينما تدفع بباب الغرفة وتدلف حيث الصديقة، عتاب التي تتكوم على حالها فوق طرف الفراش وتغص بشهقاتها، اقتربت على
~~~~

وجل وصوت بكاءها يربكها، تجاورها جالسة بينما تتحفز خلاياها وتسحبها من ذراعها، تسألها بنظرات حائرة، لتنهض الأخرى وتلقي بحالها بين ذراعيها، نحيبها يشتد مع تجلجل حروفها:

- طاهر تخلى عني صدف..

وتردف بصوت متقطع:

- لم يأتِ، لم يفِ بوعده.

أبعدتها برفق، تتطلع إلى عينيها الباكية وتسأل بجهل:

- عتاب لا أفهمك، اهدأي واحكِ لي ماذا يحدث معك من البداية؟

وأخذت تقص عليها بداية من طلب يدها للزواج، فرحة أبويها وقبولهم، مقابلتها لطاهر ليلًا و وعدهم باللقاء، كيف انتظرت وانتظرت، لكنه لم يأتِ، و لأنها أكثر من يعرفه فهمت أن غيابه ماهو إلا مباركة لتمضي في الحياة والآ تنظر للوراء عبثًا.. غياب يعني انفصام لقلبين لم يبغيا من الحياة غير نقطة التقاء تجمع بينهما.

حكت كيف غضب وثار أبوها حين أخبرته برفضها للزواج فضربها وفرض الخصام.

- إذن حبيب القلب قرر أن ينهي قصتكم الأفلاطونية بفراق لأن كرامته لا تسمح له بخوض محاولة جديدة تؤول للرفض.. حقيقي ونعم الرجال.

قالتها صدف بينما تنتفض من جلستها، ترمقها شذرا وتكشر فوق أنيابها، بينما العاشقة مازالت رهينة أرض الهوى:

- لا تغلطي صدف، الأمر معقد وطاهر عاجز عن فعل شيء، أنا أفهمه أكثر منك، يحسب أن ذلك أفضل لي، يفكر بي لا بنفسه.

صرخت فيها:

- وتدافعين!.. والله لا أصدق ما أسمع.. تتحملين الإهانة وحدك بينما هو ماذا فعل؟.. اختار أقصر الطرق ليلقي بحملك الزائد عن كتفه.

لم تجد ما ترد به تلك المرة فقط تجدد دمعها فانساب بصمت فوق وجنتيها، وكانت صدف

غاضبة منها ولها فلم تستطع إلا أن تكيل لها بالكلمات مايزيد:

- كنت تلهثين خلفه كالمغيبة انظري إلى حالك الآن..

وختمت حديثها قبل رحيلها الغاضب بصفعة وجهتها لقلبها و وجهها معًا:

- ابكِ عتاب، ابكِ كما تشائين، تستحقين ما يجري لك.

~~~~

أصر طاهر أن يطلع رحلة جديدة عقب انتهاء الأولى مع الريس نعيم والبقية، شغل محرك المركب الصغير وإذ يلحق به إلياس دون دعوة،
~~~~

ألقى بالشباك في صمت وجلس منتظرًا متلحفا بسكوته مما أثار ريبة شريكه الذي يجلس على الطرف الآخر من المركب وبين أصابعه إبرة يصلح بواسطتها ما تلف من الشباك، أكثر ما يجيد في تلك الحرفة، مراقبًا الشارد نحو الفراغ الواسع بحيرة مالبث أن قطعها بسؤال:

- مابك، تبدو مشغول البال؟

- لا شيء.

أجاب طاهر باقتضاب دون أن يلتفت، وسكوته هذا أكثر ما يقلقه إذ اعتاد عليه ثرثارًا، مرحًا:

- هل أمك بخير؟

- بخير وترسل لك دعوة غذاء.

وعلى أثر جملته الأخيرة إبتسم إلياس في شرود لماض ليس بالبعيد، قصيرة القامة بجسد ممتلىء لا تمل من الدوران طيلة اليوم، تصحو مع الفجر وتبدأ دورتها من ترتيب للأسره لتنظيف أواني عشاء ليلة البارحة ثم تجهيز فطور رغم بساطة مكوناته إلا أنها دائما تنجح في فتح شهيته من باكورة الصباح، أما عن قدح الشاي المنكه ساعة العصاري بعد وجبة غذاء دسمة ورأسه مرتاح فوق حجرها تلك حكاية أخرى، كل من عرفها كان يشهد لنظافتها ومذاق طهيها الذي لا يعلى عليه، كم يشتاق طيفها، صوتها، رائحتها، ضمتها التي تهون عليه أشد الصعاب..

ربما هي في أعين الجميع لا تختلف كثيرًا عن كل الأمهات اللائي يقدمن أولادهن قبل كافة شيء، أما له فهي دائمًا وأبدًا ستظل سيدة قلبه الأولى التي لا يشبهها أحد.

- أراك أنت من صار مشغول البال.

عاد له مجيبا سؤاله السابق، وذات البسمة تزين محياه:

- أبلغها تحياتي، وعن دعوة الغذاء فأعفني وقل لها الآ تحرجني أكثر بدعواتها المكررة كل يوم وآخر.

- لست في مزاج يسمح بمناقشة مشاعرك المرهفة لكن ليكن في معلوماتك أنت تفوت على

حالك صينية سمك مطهي داخل الفرن بخليط من البصل والبندورة وشرائح الليمون معها لا تقاوم..

- ألا تضيف بعضًا من الفلفل الحار؟

- وهل لأم طاهر أن تستغني عنه!

- أفكر لو نؤجل الحديث عن مشاعري المرهفة بعد القضاء على تلك الجريمة؟

- وهو كذلك.

حديثًا يبدو للرائي رائقًا، مازحًا، لا يظهر شجن الأول بين طياته الذي يعلن عن افتقاده لأمه، ولا حزن الأخير الذي يحاول إخفاءه ببراعة..

بعد قليل كان يلملم طاهر شباكه الفارغه ناويًا الرحيل، نفذ صبره، كل ومل الإنتظار فقرر الرحيل خاليًا الوفاض، نزل أولًا و انكفىء على وتد القارب يحكم ربطه ليتفاجىء وهو على حاله بوابل من الحصى الصغيرة تضرب ظهره وأخرى تصل إلياس و القارب مصدرة ضجيجًا متعاليًا، تقافز كلاهما في محاولة فاشلة لتفادي الحصى حتى كاد أن يفقد إلياس توازنه فوق القارب، حين استدار طاهر وجدها قريبة كفاية ليصرخ فيها وذراعيه يحميان وجهه من الإصابة:

- هل جننت صدف!

قابلت صراخه بآخر فجرته في وجهه ويدها تقذف بآخر الحصوات أرضًا بقوة:

- وهل رأيت جنونًا بعد؟!

لا يدرِ متى استطاع السيطرة على ثباته ومتى نبتت تلك الصدف من العدم وعلى وجهها عاصفة لا تبشر بخير، لم ينسَ بعد كلماتها التي ألقتها بوجهه صباحًا لتتحفه برؤيتها مرة ثانية في نهار واحد، في الثوان التالية كان يقفز من القارب مجاورا لطاهر الغاضب ويبدو لأول مرة ثائرًا محتقنًا حتى أنه خشي أن يتهور ويتطاول عليها فوقف بجسده حائلًا، يمنع تقدمه حين كان يتراشق وإياها بالكلمات وكلاهما يفهم الآخر دون استهلال:

- أنتِ لا تفهمين، بدلًا من محاسبتي كنتِ حاسبي أبوها قبلا، هل أنا من يقف في وجه تلك الزيجة اللعينة!

نبض عرقًا بوسط جبهتها بينما تهدر فيه وعيناها تبرق بغضب ساحق:

- إن كنت لا تستطيع المواجهة كالرجال لماذا كنت تعلقها بك كل تلك المدة؟

هنا تدخل إلياس مضطرًا وهو يشعر بحرارة جسد طاهر وانتفاضه تحت يديه:

- الحديث لا يكون بهذه الطريقة يا آنسة..

أخرسته بنظرة حارقة:

- أعرنا سكوتك ولا تتدخل فيما لا يعنيك.

برقت عيني إلياس واشتدت لهجته متعجبا أسلوبها الفظ:

- من تظنين نفسك!

أبعده طاهر عن مرماه واقترب منها خطوة محاولًا السيطرة على أعصابه المحترقة:

- وهل أكون رجلا في نظرك حين يرفضني أبوها للمرة الثانية؟..

- وهل حنثك بوعود قطعتها معها على مدار ثلاث سنوات من سمات الرجولة؟

- اسمعي صدف أنا لا أملك غير كرامتي على وجه هذه البسيطة، وأنا لا أرتضي لكرامتي المذلة والهوان..

ارتفع جانب ثغرها ساخرة:

- وأين كانت كرامتك وأنتَ تدفعها دفعًا لمقابلتك دون علم أبيها؟

حذرها بالسبابة و رفعت حاجبين:

- انتبهي إلى كلماتك، تجاوزتي كل الحدود يا ابنة الشيخ!

اقتربت هي خطوة أخيرة تفصل بينهما وتلك الضحكة الساخرة مازالت ترتسم فوق ملامحها بقوة:

- تعرف طاهر، قبل لحظات فقط كنت أظنك رجلًا بحق..

وعادت خطوتها تنظر لكليهما من أعلى لأسفل في تقييم غير راض، مردفة:

- بينما أنت هنا تتسلى مع صديقك و تغزل أشعار عن كرامتك وعزة نفسك الغالية هي هناك تتلقى الصفعات، حتى بعد ما خذلتها مازالت تحارب وتتحمل وكل آمالها أن تكون معك..

لم تأبه لنظراته الخابيه وابتسامتها تتسع له في تشفي حتى ظهرت نواجذها:

- أتمنى أن تجد في تسليتك الموساة الكافية لأن بعد دقائق سأكون عند عتاب أقول لها: لا تبك.. لا تهدري كرامتك عبثًا.. لا يستحق.

قالتها وذهبت، زعزعت ثباته في غمار حربا كان يخوضها سرا منذ الصباح، كشفت جرح قلبه للعيان وذهبت ببساطة، ظل واقفًا يتبع ظلها الراحل بجمود إلا من أنفاس متحشرجة تتناحر خلف الضلوع، ظلت تطبق على صدره حتى صاح، ولى بضيق صدره لرحابة البحر أمامه وصرخ بقدر ما أتاح لصوته أن يصل اللاشيء.

~~~~

تغيرت الخطة، بدلًا من أن يصحبه هو من أخذ به إلى بيته، منذ ساعات وهو على حاله، يجلس خارجا، منفردًا فوق الرمال، يضم بساقيه معًا إلى صدره ويغرق في صمت مطبق، صمت لا
~~~~

يناسب ذلك الضجيج القائم برأسه ويدوي إلى ما لا نهاية.

كان إلياس يراقب جلسته من النافذة القريبة تاركًا له كل الوقت الذي يحتاج ليلملم شتات نفسه، حتى تنهد وقرر التدخل أخيرًا، فوق بقايا مركب عتيق جلس وانحنى بجذعه يدنو، يسحبه من عالمه الصاخب حد السكوت بنداء خافت:

- طاهر..

- معها حق.

استغرق هذا وقت طويل حتى أقر به لنفسه فكانت الحروف حاضره على طرف لسانه، أكد إلياس على كلماته:

- نعم، رغم كل شيء هي محقة.

زفر طاهر زفرة طويلة، ساخنة، أودعها بعضا من لهيب جوفه قبل ما يلتفت ناحيته ويقول بانفعال:

- إلياس: الوضع أكثر تعقيدا مما يبدو، أنا لا أستطيع تجهيز بيت زوجية و كل ما أملكه غرفة صغيرة في بيت اتشاركه مع أمي وشقيقاتي الثلاث.. بأي وجه أذهب لأبوها وأقول زوجني ابنتك!

- وهل تعرف هي حقيقة وضعك؟

- مؤكد تعرف.

- إن كانت تعرف فهي راضية.. لِمَ تبني حواجز لا أهمية لها؟

- لأن أبوها لن يوافق.

- إذن هنا تكمن المشكلة، فكر كيف تحلها ثم بعد ذلك أظنك قادر على تدبر أمرك.

- كيف.. بالله أخبرني كيف!

صمت كلاهما حتى لاح في خاطره فكرة، طرحها إلياس في الحال:

- تكلم مع الشيخ رحيم يكون لك وسيطًا عند أبوها، كما أرى لا أحد يرد كلمته.

نفخ طاهر كمن استهلك كل الفرص:

- هل نسيت أن الشيخ رحيم لديه ابنه؟.. تدخله في أمر كهذا يعني أنه موافق على أي عامل لديه يطلبها للزواج وقد تنشأ بينه والعم ناجح بعض الخلافات بسببي، لا أدري.. لا أراه حلا مناسبًا.

- وجلوسك مكتوف الأيدي لن يصل بك إلى شيء، إن لم تلقِ بحجرك لن تتحرك مياهك الراكدة أبدًا..

حين لم يجد منه ردًا حط بكفه فوق كتفه، أردف على مهل وفي قرارة نفسه كان يهديه أكبر درس تعلمه من الحياة:

- اسمع طاهر، أحيانًا تكون المثالية أكبر خطأ نرتكبه في حق أنفسنا، فما يذهب لا يعود أبدًا.. قاتل وأخطف فرصتك إذا تطلب الأمر.

~~~~

فتح زر بذلته الكحلية الأنيقة على مهل مانحًا لحاله جلسة أكثر راحة فوق الدكة المنجدة بقماش زاهي مورد، ثم مال بجذعه متناولًا قدح الشاي الساخن مرتشفًا منه على مهل وعينه تلتقط جلسة الشيخ المتحفزه، كان يجلس منتصب الظهر، يضم بكفيه الأجعدين على مقدمة عصا غليظة وبصره ملقى أمامه نحو اللاشيء، بدا أكثر صرامة بالجلباب الفضفاض والعمامة الشاش المتلفه من حول رأسه، لم يتكلف عناء إخفاء تجهم ملامحه، وربما هي رسالة قصيرة لضيفه الغير مرحب فيه.
~~~~

- أرى جو العزبة أعجبك كثيرًا حتى نتشرف برؤيتك للمرة الثانية خلال شهر واحد سيد عمار.

قالها الشيخ رحيم وملامحه تزداد امتعاضًا مما جعل جليسه يترك قدحه ويبدأ حديثه:

- شيخ رحيم أنتَ رجلا لا تفضل اللف والدوران في الحديث ولا هذا طبعي في الحقيقة، لذا دعنا ندخل في صلب الموضوع دون مقدمات..

ولم يعطه فرصة ليرد، التقط من جانبه حقيبة صغيرة قام بفتحها وعرض ما فيها أمام عينيه المعرضة عن رؤياه بينما يقول:

- جئتك بعرض يفوق العرض الماضي بثلاث أضعاف، أرجو أن تفكر جيدًا هذه المرة، أنا أقدم لك صفقة العمر.

أخيرًا دار له برأسه، تطلع إليه لوهلة لم يلبث بعدها وكان يرفع عصاه إلى الحقيبة المفتوحة أمامه ليدفعها نحو صاحبها بشيء من فظاظة:

- أنتَ تعلم وأنا أعلم أن قيمة الأرض تساوي أكثر بكثير من صفقة العمر التي تقدمها، أوتدعي أنك تقدمها!

وأردف في خشونة قاطعًا أي تفاوض:

- خذ أموالك يا أفندي، وقل لمن أرسلوك أن الشيخ رحيم نعمان لن يبيع بيته حتى لو ترك الجميع أرض العزبة.

تبسم الرجل في سماجة تليق بموظف يريد إتمام عمله رغمًا عن أنف الجميع:

- أرى أنك تتسرع في القرار من جديد يا شيخ؟..

ضرب الشيخ بعصاه الأرض، قائلًا:

- قلتها سابقًا وأكررها لك اليوم، عرضك مرفوض، لا أنا ولا أحد من أهالي العزبة سيبيع شبرًا واحدًا من أرضه.

رفع له أحد حاجبيه مغمغمًا بخبث الحديث:

- هل أنتَ متأكد من أنها أرضكم يا شيخ رحيم؟..

- ماذا تقصد؟ إلى ماذا تريد أن تصل!

سحب عمار نفس طويل قبل ما يميل إليه في محاولة أخرى لفرد مهاراته بفن الإقناع:

- دعنا نتحدث بالعقل والمنطق، المجتمع الاقتصادي وضع أعينه عليكم والدولة تدعمه، أي خلال سنوات قليلة هذه الخرابة التي تتمسك بها باسم الأرض ستتحول لرقعة استثمارية تخدم البلد، أردت تصديق هذا أم لا هذا ما سيحدث وصدقني وقتها ستندم على فرصة العمر التي أقدمها لك الآن بالفعل!

قاطعه الشيخ رحيم بحدة ساخرة:

- المجتمع الاقتصادي الذي أرسلك.. أليس كذلك؟

رد سخريته بأخرى زادها بابتسامة واسعة، باردة:

- تمامًا، المجتمع الاقتصادي الذي أرسلني.

انتفض الشيخ رحيم من جلسته واقفًا، منهيًا الحديث ضاربًا بالضيف وعرضه بأقرب حائط:

- إذن؛ وحتى يحدث ما تراه بعقلك ومنطقك لا أريد رؤية وجهك هنا مرة أخرى.. شرفت سيد عمار.

نهض الرجل بخيلاء وازى استعلاء قسماته ونظراته، سحب حقيبته وعاد بزر بذلته الرسمية كما كان، خطواته الوئيدة توقفت

بمنتصف الغرفة، دار نصف استداره برأسه خاطب الشيخ فيها من خلف كتفه بلهجة حاول قدر الإمكان إخفاء سخطها:

- أمر مؤسف أن رجلًا مثلك وبهذا العمر لا يستطيع رؤية الصورة بشكل واضح.. أراكَ قريبًا.. جدًا.. شيخ رحيم.

نفث بحروفه و اختفى من أمامه، عاد الشيخ إلى جلسته وفي صدره غصة تضغط بعنف، كفيه المنتفضين تحطان فوق عصاه من جديد ومال يرتكز عليهما بذقنه، يسب في خاطره هذا الرجل عمار وكل عمار يحط بقدمه فوق أرض العزبة، العزبة التي صارت فجأة محط أنظار رجال الأعمال ومطمعًا يتناوبون عليه بعرض جديد كل

حين، لم يشغله الأمر كثيرًا في البداية لكن مع تكرار الحدث ربما عليه التحدث مع كبار العزبة ومناقشة الأمر في أقرب وقت. هذا ما كان يفكر فيه قبل ما تصله الطرقات والصوت الهادئ يقطع خلوته بسلام من أمام باب غرفة الضيافة الخاصة ببيته. هلل رحيم لمرأى ضيوفه وأخذ يهتف:

- تفضلا، أهلاً ومرحب بالشباب..

- مرحب بيك يا شيخ، أعذرنا لو أزعجناك!

- أي إزعاج يا ولد، تعال أنت لا تحتاج للإذن، تفضل إلياس لا تبقى واقفًا عند الباب.

تقدم كلًا من طاهر وإلياس حتى وقفا متجاورين في منتصف الغرفة، وكأن توتر طاهر المبالغ فيه شاع في الأجواء فطال الجميع، كما بدا أنه لن يستطيع الخوض في الحديث ولو بعد مائة عام لذا لكزه إلياس في الخفاء ودفعه دفعًا حتى يبدأ فيما جاء لأجله.. بل لن يترك له مجال للتراجع حين قال بصوت جهوري:

- شيخ رحيم؛ لدى طاهر ما يقوله لك.

نقل رحيم نظره من إلياس إلى طاهر في انتظار لما يقول وعلى محياه ابتسامة عريضة أخذت الكثير من اسمه بينما طاهر كان كمن صفع على حين غرة، تطلع إلى إلياس بعيون مؤنبة ، مرتبكة، عاد بعدها إلى الشيخ رحيم في ارتباك مضاعف،

يبتلع لعابه بعسر ويقترب من جلسته حتى قابله مطأطأ:

- شيخي، أنا.. أنا..

- أنت ماذا بني؟ تكلم ولا تخجل.

جاوره جالسًا إلى يسراه، تطلع إلى إلياس الذي جلس على الطرف الآخر وأخذ يدفعه ليبدأ بهزة من رأسه، عاد إلى الشيخ وبصره يهرب نحو الأسفل ملقيًا ما في جعبته على مهل وتردد:

- أريد أن أتزوج ابنة العم ناجح.. و أريدك أنت من يطلبها لي.

تبسم رحيم لرؤيته متعرقًا محمر الأذنين لكن سرعان ما رسم ملامح الجدية وهو يقول:

- لدى ناجح ثلاث بنات، تزوجت الكبرى تبقى عنده الوسطى والصغرى.. هل تريد أن أكلمه بشأن الوسطى؟

رفع طاهر رأسه بغتةً محملقًا في الشيخ، رادعًا الخطأ في وقته:

- الصغرى يا شيخ.. أريد الصغرى.

راوغه الشيخ:

- هممم إذا تريد عتاب أم العينين الخضراوين.. هل تحب الأخضر يا ولد؟

تضرج وجهه طاهر بحمرة حياء وراح يردد بلعثمة:

- أي حب يا شيخ، أستغفر الله.

قهقه الشيخ بقوة وذراعه تلتف حول رقبة طاهر، يقربه منه في مزاح:

- لا تحاول الكذب وأنت مفضوح يا ولد.

لم ينكر تلك المرة بل ارتسم فوق ثغرة أروع إبتسامة فقد زمام سيطرتها ففضحته أمام رحيم الذي حرك رأسه متفهمًا، لحظتها تنهد طاهر وأفضى لشيخه ما بقلبه:

- شيخ رحيم أنتَ تعرف وضعي والعم ناجح قد لا يوافق و..

قاطعة الشيخ بجدية لا تشبه مزاحه السابق:

- ما به وضعك؟.. لديك بيت وعائلة، تعرف كيف تعمل بكد حتى تكفي أهلك وبيتك.. إرفع

رأسك بني ولا تقلل من شأنك فيستصغرك الناس..

وأتبع هذا بيد تشد على فخذه:

- كثرة المال لا تصنع الرجال يا طاهر.

كان يستمع إليه بكل جوارحه فنزلت حروفه الراكزة، الحانية، كمسحة من برد شالت عن جوفه كل لهيب كان يسكنه، غالب غصته الوليدة بينما يقف ويميل بجذعه مقبلًا رأسه في تبجيل وامتنان:

- وأنتَ سيد الرجال وربي يشهد.

أومأ رحيم برأسه مانحًا طلبه القبول بود كبير:

- اليوم بعد صلاة العشاء نذهب إلى بيت ناجح ونطلب لك البنت يا عريس.. قدم المشيئة وربك يكتب الخير.

- إن شاء الله يا شيخ، إن شاء الله.

قالها بفرح غامر ويده تمسح عن رأسه في خجل قبل ما ينفجر ثلاثتهم ضاحكين غير منتبهين للأذن الملتصقة بالباب تصيخ السمع إلى الحوار الدائر منذ البدء وما إن إنتهى حتى هرولت إلى سماعة الهاتف، رفعتها ثم أدارت القرص وما إن وصلها الصوت الذابل حتى بادرت بعبث:

- مرحبًا بعتاب الحزينة..

ولم تنتظر، في الحال أحيتها بفيض من حياة:

- يا بنت؛ عندي لك خبر أتوقع أنك ستموتين بعد سماعه أو يصبك شلل رباعي، أيهما أقرب!

~~~~

الحب ابتلاء

والعشق ورطة

وما تلا ذلك هي حربك الخاصة، دربك الذي تختار، وهو كان محاربًا مهزومًا فوق بساط الفقر، حتى بث فيه بعضًا من حياة فقام باحثًا عن أمل، والأمل يولد مع الإصرار والمثابرة، والنجاح يأتي بعد السقوط، والسعادة هي غنيمة الفائزين.
~~~~

وربما هو اليوم من الفائزين إذ تحيط به السعادة من كل جانب، فما كان يراه مستحيلًا قبل شهر من الزمان صار حقيقة ملموسة في هاته اللحظة وهو محمول فوق الأكتاف المتراقصة بفرحٍ في احتفال خاص يسبق ليلة العرس، ليلة صاخبة تحت رعاية شيخ الصيادين، حيث اجتمع الكل مهللين مباركين فكانوا عزوة وسند لابن عزبتهم، بهجته معدية، وسعادته لم تخفى عن أعين الحاضرين، يرتدي زي تقليدي كثيرًا ما يتبعه في مثل هاته المناسبات، سروال طويل فضفاض يضيق بأساور عند القدم، يحيط وسطه بكمر عريض مزخرف، وصديري لامع له ذات الزخرفه ومن

تحته قميص ناصع البياض، يتحلقون في دائرة كبيرة، يدقون الأرض بأقدامهم في وصلة خاصة للرقص الشعبي..

ولم تكن العروس فرحتها أقل إذ تزينت بثوب أخضر نافس جمال عينيها، يحيط بها الرفيقات والنسوة يراقصنها على طبلة الحاجة نعيمة وصوتها المتمايل بأعتق الأهازيج، بوسط كفيها المضمومين تستشعر ملمس الحناء البارد فتزيد على ضمتها بحنو، تذكر حالها أنها تعيش الواقع لا الحلم فتغالبها الفرحة بضحكة خجول تراود الثغر.

في المساء التالي كانت ترتدي ثوب عرسها، تتوسط بيتها الجديد، حجرة منفرده بالدور

الثاني كانت لوالدي طاهر وصممت أمه أن
يستبدلها بغرفته القديمة إذ بها بعض البراح
والخصوصية عن خاصته بالأسفل، تجهزت
بغرفة نوم جديدة بالكاد اتسعت لها مع أريكة
صغيرة دون شيء آخر، وعلى قدر بساطة زواجهم
كان التيسير رفيقهم منذ أعلن والد عتاب
موافقته بل والتعجيل بالزواج إذ لا يحبذ لفترة
الخطبة أن تطول لأيٍ من بناته فمرت الأيام
القصار كلمح البصر.

جلست العروس فوق طرف الفراش ثم نهضت
ثم عادت تجلس، لم تمر الثوان وكانت تنهض
هامسة بتوتر لتلك التي صعدت برفقها حتى

تساعدها في حمل ثوب عرسها المنفوش والمرور به عبر الدرج الضيق:

- هل انتظره جالسة أم أبقى واقفة؟.. أظن الوقوف أفضل ما رأيك صدف؟.. هل رأيت طاهر كيف يبدو وسيمًا اليوم؟.. ما كل هذه الثرثرة؟.. صدف أنا متوترة!

ضحكت صدف التي كانت تضبط لها وضعية ثوبها من الأسفل ثم اعتدلت وبيدها محرمة تعيد بواسطتها ضبط زينة وجهها التي خربتها قبلات النساء وحرارة الجو المرتفعة فوق المعتاد:

- الآن توترتِ؟.. الحمد لله اطمئن قلبي أنك عروس طبيعية، كنت قد فقدت الأمل مع رؤيتك

ترقصين البارحة حتى أننا سقطنا تعبًا وأنتِ مازلت تتقافزين فوق رؤوسنا.

- أووف منك، انظري لقد بدأ قلبي بزيادة الخفقان، وأشعر بحرارة جسدي ترتفع.. ماذا يحدث معي هل هي بداية جلطة أم ماذا!

- لا حبيبتي أنتِ فقط تتزوجين.

- أكرهك يا لئيمة.

- وأنا أحبك وأغار من طاهر هذا لأنه أخذكِ مني.

- آآه يا قلبي، تجيدين التلاعب بالعواطف كعادتك، تعالي أضمك مرة أخيرة.

قالتها عتاب وذراعاها يضمانها بالفعل، لتشد الأخرى على ضمتها فتهمس العروس بعد لحظة تأثر طالت الطرفين:

- لم يتبقَ غيرك، أسرعي قبل أن يفوتك القطار وتنضمين لقائمة العوانس.

ابتعدت تضرب كتفها في خفه وخيلاء:

- فليمر قطار الزواج تصحبه السلامة، أنا قطاري سيذهب بي إلى أبواب الجامعة.

حركت عتاب رأسها بغير رضا:

- أما زلتِ تفكرين بهذا الأمر، متى بالله تتوقفين عن هذه الأحلام العجيبة؟!

" لا أود قطع خلوتكم لكن هل تنوي صدف المبيت معنا الليلة؟"

قاطعهما العريس المتململ في وقفته عند الباب إذ لم تلحظان وجوده غير الآن، احمرت العروس خجلًا وتحركت صدف بخيلائها حتى مرت من جانبه فألقت مباركتها دون توقف:

- مبارك للعريس.

شكرها بإيماءة مجاملة كحال مباركتها الباردة قبل ما يغلق الباب فور خروجها، اقترب على مهل حتى قابل عروسه، رفع عن وجهها طرحتها الشفافة فظل كلاهما رهين النظرة لمدة لم يعِ كم صارت حتى نطق بكلمات جاءت بعيدة بقدر قربها:

- أريد عناقًا يعوض ألف وخمس وتسعين ليلة حلمت فيهم بهذه اللحظة.

وظل القمر الساهر يسرد على قلبيهما حكاية عشق حتى مطلع الفجر.

~~~~

وعلى الطرقات كانت تسرد حكاية أخرى..

حكاية خطوات ساقت صاحبتها حيث المحظور..

بدافع من فضول أم علها الأحلام القصور؟!..

يوم بعد يوم كان ينجح في اجتذاب بصرها بصورته المغايرة، صوته الغريب وهالة الغموض المحيطة به على الدوام، وجوده الدائم في محيطها القريب طيلة الأيام الأخيرة جعل من
~~~~

الشيطان يزين لها أفكارها كل ليلة وأخرى، يبرزه أمام عينيها في هيئة رجلٍ يناوش أحلام الفتيات..

كانت تقف خلف دارهم القديم وتسأل حالها ما الذي أتى بها في هذا الليل البهيم؟..

البيوت قديمة ومعظمها فارغ، المحيط من حولها هادىء، ساكن إلا من البحر العباب، دار بصرها من حولها فاذا بالعتمة الشديدة تلقي بأجنحتها على طول المداد، ارتجف قلبها وخطواتها الوئيدة تقرر الابتعاد، مرت من أمام البيت وإذا بخاطر قفز لها من العدم جعلها تتسمر في مكانها لثوان تبعتها باستدارة، نقب بصرها عن شيء يساعدها فيما تنتويه فإذا بصفيحة من معدن ملقاة عن قريب، أخذتها وتحركت بحذر، وراء الجدار

الخلفي للدار قلبت الصفيح وصعدت فوقها على مهل، أخذت تفتش عن شق في الجدار كانت تحفظ مكانه قبل سنوات، الضوء النافذ ساعدها في الوصول فمالت تسترق النظر، مجرد لحظة وكانت تتسع عينيها مطلقة شهقتها في ذهول وتفقد توازنها فتسقط فوق مؤخرتها بقوة آلمتها في ذات اللحظة لتتبعها بشهقة أنين، وقبل ما تتمالك نفسها ويستوعب عقلها ما رأت..

جاءها أزيز الباب مع صياحه القريب في شيء من فزع:

- من هناك؟!

(٤)

- من هناك؟!

أفزعها، أطبقت بكفها فوق فمها تمنع النفس، لملمت ثوبها وجسدها إليها حتى التحمت بالجدار من خلفها، اغمضت عينيها بقوة توازي نبض قلبها الماجن..

مجرد التفكير في أن يراها ويكشف تلصصها، لا يمكنها حتى تخيل تبعات ذلك!..

أنقذها مجموعة هررة كانوا يتعاركون

في الجوار، لولاهم لراحت في خبر كان، أخيرًا جاءها صوت أزيز الباب وهو ينغلق كسيمفونية حياة تنفستها ببطء، أبعدت كفها

محررة أنفاسها المكتومة على مهل، وبعدها لا تدرِ هل عقلها كان أسرع أم أقدامها وهي تتعارك مع حبات الرمل، تركض وتركض دونما تجرؤ على استدارة إلى الخلف مرة أخرى..

تلعن نفسها مرة و فضولها ألف مرة، فضولها الذي ساقها إلى اقتحام خصوصية رجل و رؤيته مجردًا من

ملابسه!

توقفت، تنزوي داخل زقاق جانبي، يدها فوق قلبها اللاهث، عيناها تحملق نحو الفراغ، حلقها جاف، أطرافها ترتعد بقوة فقدت عليها السيطرة، أناملها تلامس شفاها المنتفضة بدورها:

- ماذا فعلت.. ماذا فعلت!

كانت تهذي لحالها ثم ترمي ببصرها نحو السماء بهذي جديد:

- يا ربي لم أقصد، أقسم لك لم أقصد!

بالكاد لملمت شتات حالها وتحركت تجر أقدامها المثقلة في محاولة فاشلة لتهدأة نفسها، حين دلفت من باب الدار وجدت أمها تجلس فوق الأرضية وبيدها الدهان الخاص بآلام المفاصل، تقوم بتدليك ركبتي أبيها المشغول بدوره مع أخيها الذي هتف ببهجة ما إن لمح طرفها بينما كانت تحاول المرور دون لفت النظر:

- جاءت أختي صدف.

ورغم حبها الشديد للصغير الذي لا يتخلى عن لفظة "أختي" قبل اسمها

إلا أنها سبته في هاته اللحظة في داخلها قبل ما تستدير ببطء وتتكفل بابتسامة مبتورة:

- السلام عليكم..

حيتها أمها ببهجة تشبه خاصة الصغير:

- وعليكم السلام، تأخرتي؟.. هل عتاب بخير؟

- نعم.. نعم عتاب بخير.. لم أستطع تركها قبل الاطمئنان عليها.. لكن هي بخير!

- ما بك ترجفين؟

جاءها السؤال المباغت من أبيها لترفع له عينين مفتوحتين في فزع، بشق الأنفس أخذت تهمس في تجلجل كاذب:

- ظهر أمامي كلب كبير.. أفزعني.

وأنقذها الصغير حسن حين ركض إليها، جاذبًا ثوبها مغيرًا دفة الحديث:

- أختي صدف هل تسمحين لي باستعارة دفترًا فارغًا من عندك؟ صنعت الكثير من الطائرات اليوم وانتهى دفتري وأبي يقول غدًا يأتي معلمي الجديد.. تعرفين من يكون؟.. إنه إلياس، أبوه كان صديق أبي حين كان صغيرًا مثلي.. لماذا لا تتكلمين، هل تعطيني أم لا ؟..

من بين ثرثرة الصغير لم تلتقط غير اسمه الذي دوى بصخب بين جنبيها حتى استشعرت ألمًا يضرب صدغيها، رفعت وجهًا متسائلًا ناحية أبيها دونما تستطيع النطق، فأتاها الجواب:

- يصر على دفع إيجار البيت مقابل السكن، لا أدري من أين أتى بهذا، لكنه أصر بشدة وفي النهاية وصلنا إلى هذا

الإتفاق، وصراحةً وجدت في هذا مصلحة لحسن، الشاب جامعي ويجيد التدريس.

ولحظتها رغم كل ما يحتمل فيها قررت اقتناص الفرصة:

- لو أنك توافق على دخولي الجامعة لوجدتني في مصلحة كل أطفال العزبة وليس حسن وحده.

وقبل ما ينطق كانت تهتف أمها ببوادر غضب:

- توقفي ولا تبدأي في هذا الهراء صدف..

احتقن وجهها واستدارت بكليتها، تقابل أمها وتصيح بصوت متحشرج فيه بوادر بكاء:

- هراء؟!.. ما السيء فيما أطلب.. لماذا كلما فتحت الموضوع تغلقينه كأني مجنونة لا يؤخذ بحديثها؟!..

تجمع دمعها و صوتها المبحوح يزداد اختناقًا بينما تردف ولهجتها تحتد أكثر رغما عنها:

- لا تفكرين سوى بالزواج، يا ترى من الأصلح، هل زهير أم غيره؟.. لم تقفي مرة واحدة لتفكري فيما ترغب فيه ابنتك وليس ما يريح بالك..

نهرتها:

- هل تحاسبيني لأني أريد لك الأفضل؟

دافعت:

- أنا لا أحاسبك، لكن هذا الأفضل لا يناسبني.. أنا أريد الذهاب إلى المدينة.. أريد أن أدرس بالجامعة.. بعدها أعود وأتزوج كما تشائين.

امتقع وجه دليلة وامتعض:

- وتبقين هناك وحدك؟.. مع الغرباء؟.. هل نفرط بك هكذا بسهولة!؟

- ثلاث ساعات وتكونين عندي وأكون عندك، حتى تنتهي سنوات الدراسة، لماذا تعقدين الأمور أكثر؟.. هناك آلاف من الشباب يغتربون لمسافات أطول.. هل كل أولئك تم التفريط بهم!

عادت تهادن بمنطق أمومي:

- ومتى تتزوجين إذا بليتي حالك بالدراسة؟ كل من في عمرك تزوج وأنجب..

زاغ بصرها في قلة حيلة، عند تلك المنطقة لن تسعفها كل الصيغ والحروف لتزحز أمها عن رأيها وقناعاتها.. لم تجد غيره تسأله العون:

- أبي لماذا لا تتكلم؟ أرجوك قل شيئًا..

أجابها بحنو وتفهم:

- نحن نخاف عليكِ صدف، الحياة في المدينة ليست بالسهولة التي تتخيلين.. كيف الحال وأنتِ وحدك؟!

زمجرت له زوجته:

- دلالك هذا من يعطيها الأمل، لماذا لا تنهي الأمر بصرامة حتى تقتلعه من جذور عقلها؟

صاحت تقاطعها ببكاء فقدت سيطرته قبل ما تهرول نحو الأعلى وجسدها يختض في نوبة بكاء حاد:

- توقفي عن قول هذا.. أرجوكِ أمي فقط توقفي.

~~~~

وعلى الطرف الآخر، أقصى العاصمة، حيث تزاحم المباني و الأنفاس هو المعتاد، كانت تحتل بجسدها الممتلىء قلب الفراش بنصف رقود، متدثرة بغطاء حتى نصفها رغم حرارة الجو، صقيع قلبها كان غالب، وجيعة أيامها كانت أشد وطأة على امرأة مسنة، عليلة، اختار القدر أن يختبرها في أغلى ما تملك..
~~~~

- ضاع الولد، ضاع ولن يعود..

اقتربت منها امرأة في مثل سنها، جارة في مرتبة شقيقة إذا جازت المسميات وأتاحت عشرة سنين العمر الطويلة بمنح اللقب لمن هم دون الدم والعقيدة:

- الصبر يا حليمة، ستمر الصعاب ويعود إليك سالمًا، فقط اصبري.

ولولت بوجيعة أم في وحيدها:

- ومن أين لي بالصبر يا مريم وأنا منذ شهرين لا أعرف كيف تمر أيامه، هل هو بخير أم أصابه مكروه..

زجرتها:

- لا يصح ماتفعلينه بنفسك، صحتك يا امرأة.

جاءت النبرة الأجشة الدخيلة تقطع الحوار الدائر في محاولة من صاحبها للتخفيف عن المرأة التي يعدها في المرتبة التالية لأمه:

- أفضل من يصنع البابونج بالنعناع على الإطلاق.

وضع الكوب جانبًا وجاور المرأتين، لتبادره حليمة:

- إلياس بني، ألا توجد طريقة للوصول إليه؟ أريد فقط الاطمئنان يا ولدي..

بادل إلياس النظر مع أمه لوهلة في قلة حيلة، عاد بعدها محاولًا دحر قلق الأخرى بحنو حروفه:

- حبيبتي أنتِ تعرفين، من الأسلم أن يبقى بعيدًا.. لا داعي لقلقك هذا كله، هو يعرف كيف يتدبر أمره جيدًا، اطمئني.

غمغمت بحرقة قلب ودمعها ينهمر:

- ليس بيدي، يحترق قلبي عليه، والله يحترق.

وقبل ما يتكلم أيًا منهما دوى قرع صاخب فوق الباب نفض ثلاثتهم على حين غرة، قفز إلياس من مكانه وكله يقين عن هوية الطارق، لم يخيب ظنه إذ صاح في وجهه ما إن قابله:

- ستكسر الباب على مهلك!..

- ابتعد عن وجهي..

وقف إلياس حاجزًا بينه وبين الباب، يدفع بجسده خارجًا وينهره بخفوت:

- كفى فضائح عادل، المرأة ترقد مريضة لا تزيد همها.

حين لم يستطع عادل العبور صرخ بكل ما فيه:

- وهل يوجد فضائح أكبر من ولدها الذي قتل عمه؟!

- قلت لك كفى!

ابتعد عادل ينقر بالسبابة فوق صدر الذي يقابله مزمجرًا:

- قل لصاحبك أنه لو ظل مختبئًا ألف سنة سأصل له في النهاية وأخذ روحه بيدي..

قالها قابضًا على كفه بقوة ثم عاد يرفع صوته قاصدًا الراقدة في الداخل:

- هل سمعتي ما قلت يا زوجة عمي؟.. لن أرتاح حتى أثأر لدماء أبي من ولدك القاتل.

بالكاد دفعه إلياس وأغلق الباب عائدًا خطواته إلى حيث ترقد حليمة وتولول بصوت لا يتعدى الجدارن الأربع:

- ظلمك حيًا وميتًا يا ولدي..

ومالت برأسها إلى الجوار، تطالع صورة زوجها المؤطرة وهي تعود إلى ولولتها محدثة روحه الغائبة عن دنياهم:

- ضاع الولد يا محمود، ضاع.

~~~~

"ظلمك حيًا وميتًا يا ولدي، ظلمك حيًا وميتًا"

كانت الكلمات تتردد تباعًا داخل رأسه حتى أقلقت مضجعه وأخذ يتقلب يمينًا ويسارًا، افترق جفنيه مستسلمًا لليلة طويلة عنوانها الأرق، يتذكر هيئتها الفزعة وهي تردد كلماتها في لوعٍ قبل ما يغادرها مرغمًا، أي ظلم ذاك الذي
~~~~

يدفعه لترك أمه العجوز وحدها هاربًا بهوية غير الهوية واسم غير الاسم؟!..

نفض عنه الغطاء ونهض وسط الظلام الدامس، فتح النافذة على مصرعها فضربه تيار الهواء ضربًا، سحب شهيقًا طويلًا معبقًا برائحة اليود المركزة ثم زفره على مهل وعقله يغيب نحو الماض البعيد، البعيد جدًا..

طفل يقف بثبات لا يليق بسنون عمره العشر، يتلقى العزاء في أبيه الذي رحل دون سابق إنذار، كان قد تناول الغذاء برفقتهم ثم تمدد فوق الأريكة في قيلولة صغيرة يحب أخذها في مثل هذا الوقت قبيل العصر، وإذ به ينهض ويده فوق موضع قلبه، أخد يسعل للحظات

فقد بعدها الوعي، لم يتأخر الطبيب، لكنه حين حضر قال مات.. يومها عرف معنى اليتم ولعق حروفه واحدًا تلو الآخر.

بعدها كل شيء تغير، العالم الرحب الذي كان يحياه اختل ميزانه، وكل عام كان يمر كان يكبر على حقيقة واحدة

(فايد علام)

عمه

طامعًا

آكلًا لإرثه

مرت السنوات مثقلة مكتفين بالفتات الذي يلقي به إليهم كل حين حتى بلغ السابعة عشر،

كره ما يجود به عليهم ويمنن وراح يطالب
بحقه في إرث أبيه كاملًا، يومها حدث بينه
وعمه أول شجار وكان مجرد بداية لسلسة
طويلة غير منتهية من الشجارات، حين أتم
العشرين أخد بماله المرسل وألقاه في وجهه
فارضًا قوانينه ومايرتضيه كرجل، اضطر أن
يعمل جوار دراسته حتى تخرج، وبعد الجامعة
عبر جميع المراحل، بداية من الجلوس فوق
مقاعد المقاهي مرورًا بالبحث المضني ومرة
تصيب وأخرى تخيب حتى وجد وظيفة بشركة
بناء، صحيح لا علاقة لها بمجال الدراسة
لكنها كانت كافية لتغنيه عن مد يد الحاجة إلى

عمه الذي كان ينتظر التجائه والعمل تحت إمرته.

حتى جاء ذاك المساء الأغبر!

قبل شهرين..

كان ذاهبًا إلى العمل صباحًا، فإذ بعمه يقيم الذبائح والموائد أمام بيته كنوع من التفاخر وكسب قلوب الفقراء بأرذل النوايا، تبادل وإياه النظرات قبل ما يتجاوزه، عاد مساءً بعد العاشرة وإذ يرى كيس اللحم راقدًا فوق الطاولة، لحظتها جن جنونه، لم يشعر بحاله إلا وأصابعه تطبق على قبة ثوبه داخل مكتبه بمحل الأقمشة الكبير الذي يعود لجده وطمع فيه وحده هذا الذي يكاد يزهق روحه لولا

بقايا إيمان ظلت تزرعه فيه أمه طيلة ست وعشرين عامًا جعلته ينفضه عن يده ويتركه ويرحل..

ماذا حدث بعد ذلك؟..

لا يدري!

يهزه إلياس، ربيب الطفولة والشباب، الجار والصديق، يسأله بفزع ويحكي عن انقلاب الحي، فايد علام غارقًا في دمائه، مقتولًا، وجميع الأصابع تشير إليه في اتهام.. يسأله إن كان قد تشاجر معه، فيقر بذلك وينكر تبعاته، أمه تولول"ظلمك حيًا وميتًا يا ولدي" والخالة مريم تسحبه من بين الفوضى إلى شقتها القابعة فوق شقتهم، يذهب إلياس ليتقصى

الجديد ويعود بوجه مكفهر، وصوت مضطرب، يقول: عادل جن جنونه ويقسم بأغلظ الأيمان أن يقتلك.

تسب الخالة مريم وتلعن المقتول وخلفه ثم تأخذه من يده وتجلسه مرغمًا، ترغي وتزبد بلهوجة، بالكاد يجمع خيوطًا مما قيل: محطة القطار.. عزبة موسى.. الشيخ رحيم.. زوجها العم ريمون.. اذهب.. لا تعود..

ومن بين هذا الجنون يمسك بكفها الثائر مع حروفها التي ترسم خطة نجاته أو نهايته، لا يدري، في هاته اللحظة يبدو كليهما سيان، يقول بعقل لا يستوعب مايقال أو يحدث:

- لم أقتله!

يمسك إلياس بكتفه ويشد بأزره جاذبًا إياه من غياهب اللاوعي:

- مؤكد لم تفعلها.

وتصفعه الخالة مريم بالحقيقة الواقعة:

- لكنك متورط.

ثم تشير إلى ولدها وإذ به يخلع قلادة أبيه الراحل وتلف بها من حول عنقه. تمسك بوجهه بين كفيها وتحشر بحروفها داخل عقله المستغيث:

- عليك أن تنسى من تكون حتى تظهر الحقيقة.

و أخذت تتلو لأجله صلواتها ويدها ترتفع عند الجبين، أعلى البطن، عن شمالها ثم اليمين وختامًا فوق الفم مغمغمة باسم الإله الواحد الأمين..

كان مسيرًا بين يدي إلياس الذي سلك به الشارع الخلفي، على طول الطريق كان يعيد فوق مسامعه حديث أمه السابق حتى ألقى به داخل أول عربة قطار وصوت الصافره تزامن مع عناقه الطويل، بعدها تحرك القطار وتوقف كل شيء عداه.

مر شريط الذكرى كنصل حاد باترًا كل الحقائق، تاركًا له مجموعة من العناوين بلا أجوبة، متى سينتهي هذا كله؟..وكيف ينتهي!

هل مقتولًا على يد ابن عمه أم شنقًا بعد رحلة طويلة خلف قضبان السجن والمحاكم؟

رمى برأسه المثقل كسائر جسده إلى الخلف، يدور بصره فوق رحابة السماء ونجومها الساهرة ليهمس باختناق زار صدره:

- ضاقت يا الله..

وعلى أثر حروفه صدح آذان الفجر داحرًا معه كل الذكرى وما كان، ماء الوضوء كان يتقاطر من ذقنه ومرفقيه بينما يستقبل القبلة ويرفع كفيه مكبرًا..

حين التقت جبهته مع الأرض اللينة في موضع سجود هطلت دمعة ثقيلة آخذة معها هموم القلب وسقطت.

~~~~

قبيل المغرب كان يجلس بغرفة الضيافة يجاوره الصغير حسن، ينكفىء كلاهما على الطاولة القابعة أمامهما في تركيز تام مع الدرس الأول لهذا الصغير، وكان هذا الاتفاق الذي عقده مع الشيخ رحيم مقابلًا مكوثه في بيته حين رفض أخذ المال، كان هذا في رأيه أفضل من أن تأتي ابنته مرة أخرى وتقول له بعين قوية: هذا بيتي.
~~~~

وعلى ذكر ابنته دلفت إلى الغرفة وبين يديها قدح من الشاي تركته جواره على مهل فأومىء لها شاكرًا، ابتعدت قليلًا، ارتكزت بساعديها فوق حافة المقعد من الخلف وأخذت تراقب كيف يلقن الصغير المعلومات بروية و وضوح، يترك له المساحة الكافية ليفكر ثم يأخذ بيده نحو الصواب، لا تدري لم أصابتها الغيرة في هاته اللحظة فقاطعته بسؤال مباغت:

- ما هو مجال دراستك؟

لم يستدرْ، ظل على وضعه موليًا لها جانبه وتركيزه مع الصغير بينما يجيب سؤالها باختصار:

- الهندسة الميكانيكية.

التقى حاجبيها بجهل وفكرت قليلًا قبل ماتقول:

- هل لهذا علاقة بالآلات؟

- والسيارات والمحركات.

انتصبت في وقوفها لتهتف بغيرة حقيقية هذه المرة:

- لا أرى في هذا شيئًا مميزًا، فالعم سرور لم يعرف القراءة من الأساس ويقوم بتصليح محركات المراكب كلها..

ولم تنتظر جوابًا إذ أردفت في الحال:

- أنا أيضًا سأدخل الجامعة.. قريبًا.. لم أختر المجال حتى الآن، لكن سيكون مميزًا بكل تأكيد.

تدخل الصغير ناظرًا له بفضول:

- وماذا عن الطائرات، هل تعرفهم مثل السيارات؟

ابتسم له قائلًا:

- ليس كثيرًا، هل تحب الطائرات؟

تبدلت ملامح الولد من الفضول إلى البهجة وهو يجيب بانفعال:

- جدًا، جدًا.. سأكون طيارًا حين أكبر.

داعب خصلاته بكفه:

- حسنًا، إذا أنهيت حل هذه المسائل الحسابية بشكل صحيح سأخبرك بعضًا من المعلومات التي أعرفها عن الطائرات، اتفقنا؟

فرح الولد وانكب على مسائله بينما زادت غيرة الأخرى وسخطها قبل ماتتحرك بضيق ضاربة الأرض بخطواتها ملبية نداء أمها، حين شعر بخطواتها تبتعد التفت يراقب طيفها الراحل وعاد متناولًا قدح الشاي، يرتشف منه ببطء ويسأل الصغير المتشاغل بخاطر مر بداخله:

- هل ستدخل أختك الجامعة حقًا؟

- لا هي تكذب على الجميع، أمي وأبي لا يوافقان لأن الجامعة بعيدة.. قبل أمس ظلت تبكي طول الليل لكن لم يوافقوا أيضًا.

عقب كلمات الصغير التفت مرة أخرى يطالع مكانها الفارغ وقد شرد ذهنه فيها لوهلة..

وهلة نفضها بعيدًا وعاد بكامل تركيزه إلى الصغير.

~~~~

لا تسأل جائعًا عن الوطن

خائبًا عن الأمل

مغلولًا عن الطموح

ولا خائفًا عن الأمان

أقول لك؟

لا تفتش عن الحياة بين ربوع الفقر.
~~~~

مقدمة جيدة إذا ما قررنا الحديث عن حياة مهلهلة تفتقر لأبسط احتياجات الفرد ليعيش أيامه بكرامة، قصور في الأحلام والمتطلبات، عمر ينطوي وأرواح تشيخ قبل أوان..

تعجز أمام تلك اللوحة أن تفهم إذا ما كان السر في القناعة أم هي لعنة التأقلم بما هو متاح وتطاله اليد؟!

في الحالتين كان الرضا والقبول هو سيد الحياة، حتى تفتحت الأعين وأصبح النظر لتلك الرقعة بعين الطمع لمن هم فوق كل شيء، أصحاب الجاه والمال، هذا يقول منتجع سياحي يستقبل الوافدين من الخارج وفرصة لا تعوض حتى ننهض باقتصاد البلد وأرصدة

البنوك بلا شك، وآخر يرى ناطحة سحاب جدرانها من زجاج تتيح للناظر رؤية سحر البحر وهو حاضنًا للنيل، وثالث يرسم مطعمًا فوق رمال الشاطىء، ينعم فيه الرواد بوجبة مميزة والمياه الباردة تداعب الأقدام من الأسفل بينما القناديل الذهبية ترمي بظلالها فوق الأرجاء لتكتمل الصورة وتظل الذكرى عالقة بالأذهان حتى تذكرة العودة، ورابع يحسب ربح ساحة ألعاب مائية للكبار ومثلها للصغار، وخامس يقول ملهى ليلي مهم للترويح عن الشباب المترف، وسادس وسابع..

لحظة!

ماذا عن أصحاب الحق؟

ألم أقل لك لا تفتش عن الحياة بين ربوع الفقر!

ذلك أمر لا يستحق الذكر

اسحب من تحتهم بساط الاختيار وامنح فقط ما هو متاح..

حينئذ سوف يجتمعون عند كبيرهم، بكل ما جمع بينهم من روابط أسرية ومصاهرة وجذور تربطهم بأرض العزبة من قبل مئات السنين..

تعلو أصواتهم ما بين معارض ومحتج وآخر جاهل لحقيقة ما يصير، لكن جميعهم يتفقون على قول واحد:

- تعبنا..

ويتابع أبا القاسم بصوته الجهوري، المنفعل:

- تعبنا يا شيخ، بح صوتنا ولا أحد يسمع، يفرضون قوانين ويمنعوننا من الصيد لشهور ونصبر، كل يوم نتعرض للمخاطر في سبيل لقمة العيش ويموت شبابنا في عرض البحر هربًا من قلة الحيلة ولا فائدة..

ويعلو صوت ثانٍ مقاطعًا:

- ولدي قعيد، يريد أن يذهب للمدرسة كإخوته لكن لا يستطيع عبور النهر كل يوم حتى يصل وإذا وصل لا يقبلونه..

وثالث ينطق مؤيدًا:

- نعم نريد أن نعلم أولادنا ونستر بناتنا، يريدون العزبة؟ حلال عليهم.

ويعود أبا القاسم إلى شيخهم الصامت:

- هل تلومنا يا شيخ لأننا اخترنا حياة خارج العزبة التي ضاقت علينا وعلى

أولادنا؟

عندها يزفر الشيخ رحيم ولا يملك غير القول:

- أنا لا ألومكم يا أبو القاسم، أنا فقط

أسألكم كيف نقبل ببيع بيوتنا وأرضنا بثمنٍ بخس حتى يقيموا عليها أبنية تدر عليهم آلاف الجنيهات كل يوم؟!

ويقوم رابع ليدلي بدلوه:

- عليك أن تنتظر العرض المناسب يا شيخ، وعندها لا تفكر مرتين.

لحظتها انتفض طاهر عن سكوته وصاح بغضب غير آبه لفارق العمر بين الحاضرين:

- أنتم متخاذلون، تعلقون ضعفكم أمام المال على قلة الحيلة، لو أننا بقينا يدًا بيد لما استطاعوا الدخول بيننا، أنتم من سمح لهم بذلك..

قام أبا القاسم ليقابله، يسأله بهدوء ظاهري:

- وماذا كان علينا أن نفعل يا طاهر؟

أجاب بعنفوان شاب يتلقى صفعات الحياة بثبات وجسور:

- أن نصمد خلف مطالبنا، من حقنا أن يكون لأولادنا مدرسة ولمرضانا مشفى.. شبكة صرف جيدة وجسر يغنينا عن عبور النهر لنصل وجهتنا..

لحظتها ابتسم أبو القاسم، ابتسامة لخصت سنوات عمره الستين:

- كم عمرك يا طاهر؟.. أربع وعشرين عامًا صحيح؟..

سأل حاله وأجاب.. ثم أردف الرجل وشبح الابتسامة يتلاشى:

- نحن نطالب بتلك الحقوق من قبل ولادتك.

بعدها؛ عم الصمت و انصرف الجمع، راح كلًا إلى همه يغنيه، من قرر الرحيل يحزم أمتعته والبعض الآخر قرر انتظار الفرصة المناسبة وهو..

هو سار بهامة محنية وخطوات مثقلة، بنظرة كان يكشف بيوت العزبة متراصة جنبًا إلى جنب كبنيان واحد يفترش البسيطة، يرى النهر يشق المنتصف كشريان يمدهم بالحياة.. يرى خمسين عامًا ويزيد، عمره الذي قضاه فوق هذه الأرض وجذوره الممتدة حتى أعمق نقطة ممكنة، رأى عقدًا انفرطت حباته وما عاد يملك من الأمر شيء.

~~~~
~~~~

- صدف لا تكذبي..

قالتها عتاب التي تتوسط الغرفة بتحفز وتمد بيدها نحوها في موضع اتهام:

- هل بينكما شيء، تكلمي؟!

وأخذت تبعثر الكلمات بفزع حقيقي:

- أنتِ تعرفين أن ذلك لا يجوز.. بل حرام بشكل قاطع.. ديننا لا يقبل.. مؤكد تعرفين ذلك، أليس كذلك حبيبتي؟

نهضت صدف من جلستها المسترخية تحت نظرات الصديقة المغتاظة، ترمقها ببرود ثم تجيب:

- أنتِ ضيفتي ولأجل هذا لن أرد عليكِ.

اشتاطت عتاب غضبًا وأخذت تكز فوق أسنانها:

- دعك من هذا البرود وأجيبي.. ماذا تريدين من الشاب؟.. رأيتك البارحة عصرًا تقفين معه عند المفترق العلوي فلا تكذبي وأخبريني الحقيقة.

رفعت لها صدف حاجبًا واحدًا لتزيد من حنقها وهي تقول:

- أنتِ من يكذب سيدة عتاب، زوجك هو من رآنا وراح يقول لك كعادته، لا يستطيع كتم شيء في نفسه.. والله لا أطيقه بسبب أفعاله هذه.

زفرت عتاب بعضًا من حنقها:

- نعم زوجي هو من رآك معه وأخبرني.. لكن أنا أيضًا رأيت نظراتك له يوم عرسي.. ماذا بك صدف، هل جننت تمامًا؟!

احتدت نبرتها:

- هل جئت من بيتك حتى تسمعيني محاضرة في الدين والأخلاق؟

- أنا خائفة عليكِ.. أنتِ تلعبين بالنار.

- لا تخافي، أعرف ما أفعله جيدًا.

- هذه هي المصيبة، تعتقدين أنك تعرفين كل شيء.

- صرتِ نسخة من زوجك البغيض.

- هو سؤال واحد وأريد له إجابة واضحة دون لف أو دوران، اتفقنا؟

- يااا صبر أيوب.. ماذا هناك بعد؟!

ولم تكن تعلم كلتاهما أن الشيخ رحيم يمر في هاته اللحظة من أمام غرفة ابنته بفعل القدر ليقع على مسامعه ما تبقى من حديث الفتيات:

- صدف؛ هل تفكرين بالشاب المسيحي؟

- نعم، يعجبني كرجل.

(5)

- نعم، يعجبني كرجل.

شحب وجه عتاب، وأخذت تتطلع نحوها في ذهول ولسانها يتمتم بجلجلة:

- لقد جننتِ.. جننتِ تمامًا.

بادلتها النظر الصامت لبرهة ما لبثت حتى كركرت ضاحكة. تكبح ضحكها قسرًا وتسحبها من يدها، تجلس بها فوق الفراش وتقول:

- على ما يبدو قتل الزواج روح الدعابة فيكِ.

لم تجد صدى لدى الصديقة فآثرت الجدية:

- حسنًا، سأتكلم معك بصراحة..

وتنهدت قبل ما تردف:

- كل الحكاية أنه يثير شكوكي وأحاول معرفة ما وراءه.

احتجت عتاب:

- ماذا يعني هذا؟

أوضحت صدف:

- يعني أنه يخفي أمر جلل، أنا متأكدة مما أقول.

عارضت بتغضن حاجبين:

- وإذا كان، ما شأنك أنتِ معه؟

تعجبت قائلة:

- يعيش بيننا ويدخل بيتنا وتقولين ما شأني؟!

نهرتها عتاب بلطف:

- صدف، لا تتدخلي فيما لا يعنيك، دعي مسائل الرجال للرجال.

راوغت في الحديث:

- اشتقت لغالية..

سخرت الصديقة بفهم:

- تغيرين الموضوع.

- لم نعد نجتمع مثل السابق، يلعن الزواج!

- صدف!

- أعرف ما أفعله جيدًا عتاب، لا تشغلي بالك بي.

- حسنًا، كما تشائين.

ونهضت تردف بحدة:

- سأذهب.

لاحقتها صدف، تمسك بعضدها وتقول بلطف الكلام:

- ابقي قليلًا.

- لا أستطيع، يجب أن أعود قبل عودة طاهر.

قالتها ورحلت.

ربما تذهب لها في الغد وتسترضيها، هكذا فكرت قبل ما تدور على عقبيها وتبدأ في ترتيب غرفتها، تلملم الأغراض المبعثرة، ترتب الفراش وتطوي الشرشف، بعدها أخذت حمامًا باردًا وتربعت

فوق الأرضية تمشط شعرها المجعد وتجمعه برباط أحمر عريض.

قبل ماتفكر في التالي كان يقتحم أخيها الغرفة:

- أختي صدف، ألن نسبح كما وعدتني البارحة؟

- أووه حسن، لقد نسيت، حتى أني تحممت، دعنا نؤجله للغد ما رأيك؟

احتج الصغير وأخذ يوجه لصدرها اللكمات:

- أصدقائي ينتظرونني، لقد وعدتني.

حاولت تكتيفه ودغدغته معًا:

- تقول أختي وتحترمني ثم تضربني، حقًا لم أرَ طفلًا في مثل تهذيبك.

صرخ في أذنيها رافضًا فرضخت:

- حسنًا أستسلم، هيا بنا..

سحبته من يده وغادرت الدار بينما تسأله ويدها الأخرى تضرب مؤخرة رأسه:

- من أين لك بهذا الرأس العنيد يا سوسو.

- لا تقولي سوسو.. هذا لقب فتيات.

- حسنًا يا سونة.

- لا تقولي سونة.. لا أحبه.

- احترت معك، بما أدلل سيادتك؟

- قولي أخي حسن.

- هل تعلم؟.. ستصبح رجلًا كئيبًا أخي حسن.

وسار كلاهما يتراشقان بالكلمات حتى لمح الصغير شخصًا بداخل قارب عند المرسى فصاح وذراعه يشير إليه:

- انظري أختي، الأستاذ إلياس هناك.

- إياك أن تحدثه، امشِ في صمت.

جملتها خرجت للفراغ إذ وجدته ترك يدها وانطلق ركضًا باتجاه معلمه، وقفت تسبه وهي تراه يقفز بشقاوة لداخل المركب، ويرحب به مُعلمه:

- مرحبًا حسن..

- مرحبًا أستاذ إلياس.

- ماذا عن فروضك يا بطل؟

- أنهيتها كلها وأختي صدف تكافئني اليوم بالسباحة في البحر.

- حقًا؟

- أقسم لك.

تبسم له في جذل:

- حسنًا، أصدقك.

- حسن!..

وصلت تنهره لآهثة وطرف عينها يلتقط وقفة هذا الإلياس بمنتصف المركب، يرتدي قميصًا داكنًا ذا خطوط طولية وعرضية وأكمام مثنية، يتفصد العرق عن جبينه حيث كان ينقل السمك العالق بالشباك إلى داخل صناديق

مستطيلة. أردفت وقسمات وجهها تتغضن إثر وهج الشمس المصوب قبيل عينيها:

- هيا تعال وإلا لن نذهب.

أسرع الصغير ملبيًا فساعده على الصعود بينما يتمتم دون النظر:

- البحر مضطرب منذ الصباح.. انتبهوا.

صاح حسن بفخر في الحال:

- أختي سباحة ماهرة، تسبح حتى منتصف البحر بمفردها، هل تجيد السباحة مثلها؟

بينما تمتمت هي بامتعاض ويدها تسحب أخيها:

- هل معك شهادة خبرة في المِلاحَة إضافة إلى الميكانيكا؟

و تحركت تحت النظرات الواجمة تجر الصغير من خلفها جرًا حتى ابتعدا وحينها همست له من بين أسنانها:

- حسن..

- نعم أختي؟

- ذكرني حين نعود أقص لك لسانك.

~~~~

- ماذا تفعل هذه هنا؟!

انتشله طاهر من بحلقته نحو الفراغ بسؤال مباغت ليستدير من وجومه إلى هذا عاقد الحاجبين بغير رضا:
~~~~

- من؟.. تقصد أولاد الشيخ رحيم؟.. نعم مر حسن، سلم علي ثم ذهب مع أخته.

وأخته هذه لا يستطيع أن يفهم حتى اللحظة ما خطبها، تتعمد إلقاء الكلمات الفظه والساخرة وحين تلقاه من جديد تعيد الكّرة ببساطة، وفي كل مرة تزيد من دهشته، وفضوله..

ضاقت عينا طاهر مراقبًا الواقف لبرهة ثم تحرك بالصندوق الفارغ إلى داخل المركب، أخذ يعمل بصمت قبل ما يتمتم ببعض الحدة بلهجة أمر دون النظر:

- ابتعد عن ابنة الشيخ..

استدار إليه والجملة القوية تضرب مسامعه قبل ما يتكلم طاهر مردفًا:

- فتاة متهورة وتتعامل مع الجميع دون تكليف.

لم يعجبه مسار الحديث، استفسر بتغضن جبين:

- ماذا تقصد؟

اعتدل طاهر في وقوفه، يقابله:

- أوضح لك الصورة حتى لا تسيء الفهم.

احتدت نبرته بجمود:

- أنتَ تسيء الظن كثيرًا طاهر.. لا شأن لي مع ابنة الشيخ رحيم.

أكد طاهر على كلماته ونظرته تضيق ورأسه يهتز برفض قاطع:

- محال أن يكون.. ديننا لا يسمح.

صمت إلياس لثوانٍ عاد بعدها محاولًا ضبط أعصابه المنفلتة:

- ما سبب هذه التلميحات؟ كن صريحًا.

شد طاهر قامته وسحب شهيق أتبعه بزفير في مواجهة جادة، آن أوانها:

- هذه ليست أول مرة أراكما فيها معًا إلياس.

نفى واعترض بانفعال:

- ماذا تقصد بـ معًا!.. أنتَ تعلم أني أدرس حسن، الولد كلما رآني ركض إلي، هل أمنعه؟

- لا أتكلم عن حسن، أقصد أخته.

- قلت لك وأكررها، لا شأن لي معها!

- وأنا أصدقك.

خمد الجو المشحون فجأة، استدار كلًا منهما ينهي ماتبقى له من عمل في صمت، حين انتهيا من رص الصناديق ورفعها خارج المركب سأل إلياس باقتضاب:

- إذا أردت إجراء اتصال، أين يمكنني ذلك؟

نظر له طاهر من جديد موليًا كل تركيزه:

- تريد أن تكلم أمك؟

- نعم.

- غريب، هذه أول مرة تفكر بهذا منذ مجيئك.

- كلٌ له ظروفه.

- هل ظروفك سيئة لدرجة تجعلك لا تتصل بها كل هذه المدة؟

- وأكثر مما تتخيل.

توقف طاهر عن استجوابه متمتمًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

وأردف داعيًا بصدق قلبه:

- إن شاء الله تُحل كل أمورك وتجتمعان في القريب العاجل.. عليك بالصلاة والدعاء حتى يفك كربك، لعلمك هذه وصفة أم طاهر التي لا تخيب.. الصلاة والدعاء.

هرب بصره نحو الفراغ بينما ينهي الحديث قبل الوصول به إلى منطقة وعرة:

- ربما أقصد الكنيسة غدًا.

ضحك طاهر دون فكاهة حقيقية حتى بدت نواجذه فسأل الأخير مستغربًا:

- ما الذي يضحكك؟

هتف بلا مبالاة ظاهرية:

- لا أظنك تحتاج الذهاب إلى الكنيسة.. المسجد أقرب.

غابت الحياة عن وجه الماثل أمامه وهو يرى نظرات طاهر تعود لسبر أغواره، يبتلع لعابه

ويقول محاولًا الهروب بتفكه وشبه ابتسامة مبتورة:

- هل هذه محاولة لخلق فتنة طائفية؟

لكن طاهر لم يبتسم لدعابته المفضوحة..

فقد أدرك أنه كاذب، مدعٍ، وقد كشف أمره منذ حين، بدأ الأمر حين وجده لا يقيم أي طقوسٍ للمسيحيية كالبقية الذي يعرفهم من أهل العزبة وخالطهم، لا يحمل دقًا للصليب يعبر عن هويته ويحفظها، يزلق لسانه دون أن يشعر بكلمات لا يقولها غير ألسنة المسلمين بإعتياد، كل ذلك زرع الشك فيه وجعله يراقبه عن كثب حتى وجده يأكل ذوات الأرواح في صيامهم الكبير مما أثقل كفة الشك لديه وراح يتتبعه منذ

حينها بل ويحاول إيقاعه في أفخاخ شباكه الكاذبة دون أن يدري أنه يفعل كما الآن، و لأجل هذا كله لن يترك مزيدًا من التضليل يعبث بعقله، واجهه بزبد الحقيقة التي بات متيقنًا من مدى صحتها في هاته اللحظة:

- أنتَ مسلم إلياس.

صفعه بها ولن يمنحه الفرصة ليتكلم أو يرواغ إذ تابع في الحال بهتاف احتد بلهجة عتاب:

- لا تحاول الإنكار لأني لن أصدقك، هذا أمر مفضوح بالنسبة لشخص تقضي أكثر من نصف يومك معه.

انعقد لسانه، حاول إيجاد مخرج لكن حلقه الجاف لم يسعفه كما تعطل دماغه عن العمل، فإن تكلم لن يزيد حقيقته المخفية إلا عريًا وفضاحة، لذا ظل ينظر له في صمت حتى تكلم طاهر مرة ثالثة:

- على كل حال لن أسألك لماذا تخفي شيئًا كهذا ما دمت لا ترغب في إخباري، لكن لأجل ما بيننا من صحبة وجب علي أن أحذرك، قد لا تستطيع كتمان الأمر لفترة طويلة، الخلق هنا ينشغلون بحال الآخرين أكثر من حالهم.

أخذت تتعاقب الانفعالات الصامتة فوق صفحة وجهه..

بائس..

حائر..

مغلوب على أمره..

ربما يكون اعتناقه للإسلام هو السبب وراء تركه لأهله وبيته ومدينته أجمع، كانت تصب أفكار طاهر وتخميناته في هذا المنحدر، حتى انقسم شعوره بين من عرفه وعاشره لفترة ليست بالهينة وبين هذا الذي أكد حقيقته وقطع شكوكه بسكوت.

همهم طاهر بلسان الصاحب في محاولة أخيرة:

- لكن إذا أردت..

تكلم أخيرًا يقاطعة بملامح بدت مرهقة للغاية في هاته اللحظة وأنامله تفرك جبينه وبين عينيه:

- لا تسأل طاهر، صدقني لا أملك أي إجابات لأسئلتك في الوقت الراهن.. لكن حينما أستطيع سأخبرك بكل شيء.. أعدك بهذا لأجل ما بيننا من صحبة.

عندها أومأ طاهر برأسه متفهمًا، يكفيه اليوم ما نال من حقائق، رفع ذراعه يشير نحو البعيد و يقول شارحًا:

- على الطرف الآخر اسأل عن محل العم ظافر، هناك تستطيع أن تجري أي اتصال تريد.. اذهب بالقارب وتعال قبل عودة الريس نعيم.

شكره بإيماءة من رأسه بينما ينحني للأسفل:

- إذن دعنا ننتهي من نقل الصناديق أولًا.

- أترك أمرهم لي، أنا أتصرف.

وعلى إثر جملته عاد للمركب وتحرك.

~~~~

في زاوية جانبية من محل العم ظافر كما أفاد ووصف طاهر، يدير ظهره للعالم بينما أصابعه تمسك بهاتف نقال صغير الحجم، كان الرنين المتصاعد يوازي وجيب النبضات فيه، حين انبثق صوتها الذي لا يخطأه ولو من بين عشرات النساء، لخص كل مايعتمل فيه من افتقاد ونطقها في كلمة واحدة:

- أمي..
~~~~

وإن كان هو يميز صوتها من بين عشرات النساء هي تحفظ نبرته من بين رجال العالم أجمع:

- يا قلب أمك..

أغمض عينيه يمنع وغزات تطرق جفنيه ليهمس بصعوبة بالغة:

- لا تبكي رجاءً.

بنحيب مضاعف أخذت تغمغم:

- اشتقت إليك يا نور عيني، قتلني الشيطان بأفكاره..

ولم تعطِه الفرصة ليرد إذ تابعت من فورها:

- هل أنتَ بخير؟ أخبرني الصدق؟!

غمغم لها بخفوت:

- أكون بخير حين تكونين، لا شيء يؤذيني بقدر أن يصيبك مكروه لا سمح الله.

- كيف تمر أيامك يا حبيبي؟

- تمر يا أمي؛ تمر.. اطمئني.

- حسبنا الله في من كان السبب في شتاتك يا ولدي.

زفر بتثاقل قبل ما يسألها مقتضبًا:

- هل يضايقك عادل؟

- جاء كم مرة وتبجح بالكلام لكن يعرف إلياس كيف يوقفه عند حده.

- هل يأتي إليكِ إلياس بالمال والعلاج؟.. معه حسابي المصرفي إن كان ينقصك شيء أطلبي منه ولا ترددي.

- لا ينقصني غير رؤيتك يا حبيب أمك.

- فرجه قريب إن شاء الله..

وأردف:

- يجب أن أغلق الخط الآن، سأكلمك كلما استطعت.

وكان آخر ما وصله دفء حروفها:

- في أمان الله يا حبيبي، في أمان الله ورعايته.

عجل في الخطى متذكرًا عودة الريس نعيم، إذا عاد ولاحظ غيابه والمركب سيكيل له عشرات الأسئلة ولن يجد جوابًا واحد يقدمه له حينها..

ارتوى قلبه بصوتها، ارتوى والتاع على حد السواء، لن تنام الليلة، ستظل تبكي وتبكي لأيام، أمه ويعرفها، وربما لأجل هذا لم يرد أن يهاتفها لولا القلق الذي استبد به على حالها وصحتها رغم يقينه بأن إلياس والخالة مريم لن يقصران معها في شيء.

كان يظن أن الهموم والمعاناة والحظ العثر فقط يلاحقانه في هذا العالم حتى جاء إلى هنا ورأى بعينه كيف يقع أهل العزبة تحت صخرة المعاناة والاضطهاد في ذات الوقت، تشتتوا تحت مظلة

قلة الحيلة وسوط الحاجة يضربهم دون رحمة، أزمتهم كبيرة، والحلول تكاد تكون معدومة بين أيديهم.. شرد فكره وعاد على رؤية أحدهم ينازع الغرق من البعيد، انتفض فزعًا من جلسته جوار المحرك ويده تدير اتجاهه ناحية الغريق، يمشط الأرجاء من حوله إذ بها أقرب للخالية إلا من بعض الصبية يستطيع رؤيتهم فوق الشاطىء يركضون خلف بعضهم البعض، وعلى خاطر الصبية أضاء خيط معتم لديه ليدقق النظر والمسافة تتقلص أكثر ليتأكد من هويتها فتصدق ظنونه في الحال..

سبها في نفسه قبل أن يصلها ويوقف القارب في الحال، ينحني بجذعه جاذبا أذرعتها التي تصارع الموج بزبده الشديد..

كان رأسها يغطس ويعود يطفو في الحال، تنقطع أنفاس الحياة وتعود بعد ثوان، شعرها ضاع رباطه فصار مثل الستار فوق وجهها يحجب عنها الرؤيا ومع اشتداد الموج سحبها التيار المائي إلى الداخل حتى فقدت السيطرة وأوشكت على الغرق بحق لولا ذراع امتدت لها لا تدري من أين لتسحبها من بين فك الخضم الواسع..

وبالتأكيد لن تشرح له كيف وصل بها الحال إلى هنا وهي محتجزه معه بقارب واحد في عرض

البحر بينما ينظر لها بتمعن ويسأل بقسمات قلقه:

- هل أنتِ بخير؟

تنفست بصعوبة ويدها تزيح خصلاتها المبعثرة فوق وجهها إلى الخلف، تبحلق فيه وتلهث بالكلمات الثائرة بشبه زعيق:

- لم يكن الأمر يحتاج مساعدتك، ليست أول مرة نسبح وسط الموج المضطرب.. نفقد السيطرة ونعود نتحكم، لا بأس في ذلك.

- واضح أنكِ بخير تمامًا.

تمتم بها ويده تشغل المحرك متوجهًا إلى الشاطئ ومديرًا بوجهه بعيدًا عن مرماها، زمت

شفتيها وأخذت تنظر له بغضب مكتوم، سوف تمزع حسن تمزيعًا حين عودتهم إلى البيت، بسببه صارت في هذا الموقف السخيف بين يدي هذا البارد في حديثه وانفعلاته وكل شيء يخصه، وعلى طاري يديه تطلعت إليهم لثوان مالبثت حتى سألته بنصف عين:

- أين وشمك؟

استطاعت أن تحوذ على التفاته وانتباه، بسؤالها أكدت له مدى صدق نظرية طاهر لطبيعة الخلق عامة ولهذه الفضولية خاصة..

تابعت ونظرتها تزداد تركيزًا:

- ألا تدقون أنتم المسيحين الصليب منذ الصغر عند المعصم ويعتبر هذا شيء مقدس للجميع.. هكذا أخبرتني زميلة بالمدرسة من قبل.. لا أرى خاصتك؟.. لماذا ياترى!

أجابها بهدوء وابتسامة لا يعرف لها سببًا ولا مدلولًا تناوش ثغره، لجمها ليقول:

- نعم صحيح، يفعل هذا الكثير من المسيحيين لكن ليس بالضرورة أن يكون عند المعصم.

نجح في إخراسها بل ورؤية ملامحها تتلون بالحرج ثم الغضب المضاعف، حينها هتف ليعود بالدفة إليها متعمدًا إثارة غيظها:

- البحر لا يعاند بالمناسبة.

على أثر جملته وقفت على قدميها فأبطىء حركة القارب، نظرت إلى الشاطىء القريب ثم قفزت في الماء متمتمة من خلف حركة ذراعيها:

- شكرًا على النصيحة..

راهن حاله أن لجملتها بقية، وكسب الرهان في الحال حين منحته نصف التفاته ونظرة نارية:

- احتفظ بها لنفسك.

لم تر ثغره الذي أفترعن إبتسامة حقيقية هذه المرة بينما يستدير عائدًا إلى وجهته وتكمل هي سباحة ما تبقى من مسافة.

أخذت أخيها وعادت إلي البيت في الحال لتجد أبيها في انتظارها بحال غير الحال.. يمسك

بذراعها ويشمل حالتها بنظرة ثم يسأل بصوت مخيف:

- أين كنتِ؟

ارتجف صوتها كحال جسدها المبتل، بصرها ينتقل بين أمها الحائرة وأبيها الغاضب دون سبب معلوم:

- كنت قد وعدت حسن أن نسبح..

قاطعها بحدة لم تألفها في صوته:

- عودي إلى غرفتك ولن تغادري باب البيت بعد اليوم دون إذن مني.. هل فهمتِ؟

- أبي، ماذا..

- هل فهمتِ صدف؟!

- فهمت.

~~~~

يتقلب جسده فوق الفراش كجمر متقد، تحتج نفسه وتقف معها لكن سرعان ما يعمل العقل ويقدم دلائله.. صغيرة.. طائشة.. أفكارها دومًا تحلق نحو الغير مألوف، يجذب عينها المختلف وتعشق التميز، طريقها دومًا مخالف لبنات جنسها، أصرت على إستكمال دراستها رغم مشقة ذلك حتى أنهت مرحلتها الثانوية، والآن تحارب لأجل التالي رغم معرفتها لصعوبة تحقيقه، كان دومًا متفهمًا، مقدرًا روحها الطموحة، أجنحتها المحلقه نحو الأعلى رغم قيود العادات والتقاليد، لا ينكر أن إصرارها وسعيها
~~~~

الدؤوب خلف أهدافها كان له مصدرًا للفخر وإن كان هو نفسه عقبة في طريقها.. كل شيء كان يمضي برتمه المعتاد حتى صباح اليوم، زلزلته جملتها، لأول مرة يهاب أفكارها وجموحها، يهلع من طيشها وينبت فيه بذور من الشك لا أول له ولا آخر، ألف سيناريو يدار داخل عقله العاطل عن العمل من وقتها، والآن صورة واحدة تدار وتعمل ببطء.. بقلب سوق الخضرة يتحلق النسوة ويتهامسن فيما بينهن بينما مفيدة الخاطبة تمسك زمام الحديث هامسة بصوت خفيض كنوع من الإثارة:

- هل رأيتن ابنة الشيخ؟..

تضيق لها العيون وتتفتح الآذان فالقادم بعيون مفيدة خطير، مهول.. الحروف تتمرغ بالتوابل اللآزمة ثم تتسربل عبر لسانها على مهل لتستقر أخيرًا فوق مسامع الجميع:

- اللهم احفظنا، على علاقة بالشاب المسيحي!

فتتعالى الشهقات وتضرب الكفوف الصدور، يذاع اسم ابنته فوق الطرقات، تتناقله الأبواب، الألسنه تلوك سيرتها، تنهش شرفها، وشرفه من قبلها!

عند هذه النقطة أزاح الغطاء و انتفض من فوق فراشه المتقد، أخذ بجلبابه يرتديه على عجل وعصاه يتوكأ عليها بين سراديب الظلام..

بعد حين كان يطرق بابه بعنف، يقابله الوجه الناعس متفاجئًا من قدومه في مثل هذه الساعة:

- شيخ رحيم؟

والشيخ لن يفاوض في شرف ابنته:

- ستغادر العزبة.. الليلة.

(٦)

- ستغادر العزبة.. الليلة.

خرجت الكلمات هكذا ببساطة.. لا.. ليس تمامًا..
كان حاجباه معقودين وأصابعه تقبض بقوة على
رأس عصاه المغروز في باطن الرمل الرطب،
أنفاسه تتقطع بينما يلفظ الكلمات، حين انتهى
ولى الدبر سريعًا في خطى مثقلة متباطئة، لا
يستطيع أن ينظر في عينيه وهو يطرده من بيته،
كما لا يحتاج أن يقول له أحدٌ وهو في مثل هذا
العمر أن هذه أفعال أهل الخساسة ولا تخرج
من أصحاب المروءة والكرم، كان يعلم هذا كما
يعلم أن لا ذنب له فيما تفكر فيه ابنته، لكنه
ببساطة لا يستطيع أن ينتظر حتى يفعل هو

الآخر، ينظر ويتجرأ وربما أكثر، كيف له أن يكون عليمًا بما يدور في خلد أحدهما بينما تعصف بهما رياح الشباب؟.. هل ينتظر حتى يكون

الإثم إثمين والعواقب وخيمة!

هكذا أفضل، بتر الضرر من البداية أفضل من انتظار العواقب وترك باب التخمينات على الغارب، أراح ضمير الأب فيه وأتعب ضمير الشيخ رحيم كبير صيادي العزبة وملجأ كل محتاج.

- شيخ رحيم..

أوقفه بنداء وخطواته تلحق أثره، أخذه على حين غرة، فاجئه وأيقظ الناعس فيه، لم تصل بعد

أفكاره لتبعات ما قال، هو مازال واقفًا عند ما قيل..

هل كشف أمره؟

هذا أول خاطر قفز إلى ذهنه المشوش، مؤكد لن يقول له غادر العزبة دون أسباب، الرجل الذي عرفه لا يفعلها.. لذا سأل بحيرة وتوتر زادته صفعات الهواء الشديدة لجذعه المستور بقميص خفيف:

- هل أخطأت في شيء معك؟

استدار إليه بكليته، لن يكلمه من خلف ظهره، تفوه باختصار:

- لا.

سأل في الحال:

- إذا كان الأمر كذلك، هل لي أن أسأل عن السبب؟

كان قد رتب إجابة لهذا السؤال المتوقع أثناء مجيئه، لذا ودون تأخير كان يلقي ما في جعبته رغم تباطىء الحروف:

- أنتَ مدرك لوضع العزبة وما آلت إليه الأمور مؤخرًا.. جاء مشتري جيد.. سأبيعه.

ذقنه ارتفع بإشارة صغيرة نحو البيت من خلفهم، ليصل الماثل أمامه الجواب واضحًا كشمس ساطعة في هذا الليل الدامس، لم يجد تفسيرًا منطقيًا لكونه أتى وقال هذا في الثلث

الأخير من الليل، ألم يكن الأمر ينتظر الصباح، أو أن كبير الصيادين عجز عن إيجاد حلًا بديلًا عن طرده؟ بدا البحث عن تفسير أمرًا سخيفًا لا أهمية له، لذا وبطريقة ما وجد حاله يتمتم بنصف ابتسامة مبتورة:

- نعم، أفهمك، هذه فرصة جيدة أعتقد..

كل ما نال هزة رأس وخطوات سريعة أخد يتلوها الشيخ فقاطعه من جديد، دون أن يتبعه هذه المرة:

- شيخ رحيم..

وانتظر حتى توقفت خطواته فتابع بامتنان صادق:

- شكرًا على كل شيء.

لم يستطع الشيخ رحيم أن يديرله وجهه هاته المرة، ولا حتى أن يومىء برأسه في صمت، كل ما استطاع فعله هو جر أقدامه المثقله حتى ابتلعه الظلام.

دار الآخر على عقبيه وبدت خطواته العائدة إلى الباب المفتوح متعبة، حائرة أكثر، استغرق ثلاثون دقيقة وهو واقفٌ، متصلبٌ بمنتصف الدار، لا يفعل شيئًا غير التحديق فيما حوله. بعدها تحرك بآلية في هدوء يلملم حاجياته القليلة، لم يكن لديه الكثير من الأشياء، الكثير كان هناك خلف الضلوع، بعمق صدره وقلبه..

أما القليل فكان قميصًا وسروالًا معلقين فوق الحائط بمسمار كان هو من ثبتهما في تلك البقعة، أخذهما وطواهما بعناية ثم وضعهما بداخل حقيبته الصغيرة، قطع أخرى متناثرة هنا وهناك لأجل أن تجف، لم تجف تمامًا لكن لا بأس بهذا، فرشاة شعر، منظف أسنان، أدوات حلاقة، وقبعة زرقاء كانت تحميه من حرارة شمس الظهيرة، كلها أغراض ابتاعها وقت الحاجة، حين انتهي ارتدى سترة خفيفة فوق قميصه، هي ذاتها التي دخل بها العزبة، وبها سيغادر، رفع القلنسوة خاصتها فوق رأسه ثم الحقيبة على ظهره، شيع المكان بنظرة أخيرة، أغلق الضوء والباب من ورائه بهدوء ثم رحل.

في ذلك التوقيت، كانت خيوط الفجر قد بدأت تنقشع لتبدد الظلام المحيط وتلون السماء بأرجوانية محببة للنفس قبل العين، جلس فوق صخرة كبيرة جوار المرسى، كان عليه أن ينتظر لبعض الوقت حتى تبدأ حركة المراكب والمعديات بالسير، ويتمكن حينئذٍ من العبور إلى الطرف الآخر ومنه يأخد وسيلة أخرى تصل به إلى محطة القطار.

تداخل زحام البشر مع صفير القطارات، وحده كان واجمًا فوق مقعد صلب، يتقاطع ساقاه أمامه وتلتقي يداه بينهما في صمت، ظلَّ هكذا لوقت طويل حتى رفع رأسه يراقب وجوه المارة من حوله، سأل حاله، هل الجميع يعرفون

وجههم؟ أم هناك من مثله، هائم دون عنوان أو مستقر؟..

ترك العزبة أوجد غصة وضيق بصدره، لم يرد الاعتراف بهذا حتى يغادر أرضها تمامًا، تعلق قلبه بها وأهلها لن ينكر، كان قد اعتاد لقاء المراكب والبحر كل صباح، إلقاء الشباك وجمعها، الصيادين وحكاياهم الكثيرة.. طاهر.. أمه.. الصغير حسن وحلم الطائرات الذي يراوده ليل نهار.. الشيخ رحيم.. النافذة والطاولة من تحتها وقرص القمر المنير كل ليلة.. مذاق الطعام المختلف.. صخب النهار وسكون الليل.. وهي..

لم يرد ذلك أيضًا، لكن جاء وجهها بضحكته ثم تكشيرته واحتل المشهد مرغمًا.

قطع سيل أفكاره بنهوض، تذكر، عليه محادثة إلياس ليخبره بما آلت إليه الأمور، حين عثر على هاتف كان حاله أول ما أخبره عنه عقب تبادل التحية:

- إلياس.. تركت العزبة.

فزع الصديق من جلسته مرددًا:

- ماذا!.. كيف؟.. لم تركتها؟ هل افتضح أمرك؟!

غمغم زافرًا:

- لا ليس هذا، ولا يهم الآن.. أردت إخبارك فقط بالمستجدات، لا داعي أن تخبر أمي، سينتابها القلق أكثر.

تنهد الآخر عبر الشبكات بيأس عاجز:

- لكن أين ستذهب؟

قال بنبرة فارغة:

- لا أدري.. حين أعرف هذا.. أخبرك.

صمت الطرف الآخر، بدا مترددًا كثيرًا فيما يريد قوله، في النهاية حسم القرار، كان يجب أن يقول:

- حدث شيء سيء، كنت أفكر كيف أخبرك به..

وأتبع جملته باعتذار لكونه يزيد السوء بسوء:

- أنا آسف حقًا يا صديقي.

غمغم ورأسه يميل ممرغا جبهته بتعب فوق لحم ذراعه الممتد إلى الجدار من أمامه:

- لا تأسف إلياس، لا أظن هناك أسوأ مما أنا فيه الآن.. ماذا حدث؟

- تحدد موعد محاكمتك.

قالها بسرعة وعم الصمت، في هذه اللحظة لا يوجد ما يقال، لذا تبرع إلياس بالمتابعة السريعة كنوع من التخفيف والمؤازرة:

- لكن قد يظهر القاتل الحقيقي بإذن الرب ومعه برائتك.. لا تقلق سنجد حلًا.. وإذا عجزنا.. ربما.. ربما تغادر البلاد أو..

قاطعه بحدة أقرب لزعيق مكتوم:

- وأمي إلياس؟!

تمتم الصديق بيأس:

- حسنًا؛ نفكر في هذا حينها.. المهم انتبه إلى حالك وحين تستقر أمورك أخبرني فورًا.

وعلى هذا أغلق الخط، صعد إلى القطار الذي يوشك على السير بينما يتكاثف دخانه وتعلو صافرته، كانت العربة معظمها فارغ، فقط رجل وامرأة فوق كتفها صغير يبكي تحاول تهدأته وعلى بعد مقعدين كان يوجد ثلاث رجال تعلو أحاديثهم وتنخفض، من خلفهم جلس فتاتين دفنتا رأسيهما معًا بداخل كتاب واحد..

اختار ركنًا فارغًا ليلقي بحاله فوق المقعد، كان قد بدأ القطار بالحركة حين عاد برأسه للوراء وتعلق بصره بخارج النافذة، أخذ يراقب بنظرات

فارغة كيف يمر من أمامه شريط الصور ويتبدل، آخذًا به إلى وجهة جديدة..

يختارها القدر.

~~~~

حين دق الباب ثلاث مرات ولم يجد منه ردًا تعجب طاهر، عادة يفتح له بعد الدقة الثانية. زاد تعجبًا واستغرابًا حين ذهب إلى المرسى ولم يجده. لاحقًا، حين انتهى من العمل عاد إليه مرة أخرى، طرق ثلاث أخريات لكن لم يجد جوابًا أيضًا. أخذ يفتش عنه في الجوار، سأل عنه البعض قالوا جميعًا أن لا أحد رآه اليوم، حين تعبت أقدامه ذهب إلى داره، تناول غذاءه بشهية مفقودة ثم أخذ قيلولة راح فيها حتى طالت..
~~~~

صلى المغرب جماعة وانتظر حتى بدأ المصليين بمغادرة الجامع، بعدها اقترب من الشيخ الرحيم الذي كان متربعًا في جلسته، محني الجذع بعض الشيء، مشغولًا بتلاوة الأذكار مع مسبحته الأثيرة، سأل عنه عقب ما أخبره عن اختفائه، بدا الشيخ كأنما لم يستمع إليه جيدًا، فكر طاهر حين لم يجد منه جوابًا، كاد أن يعيد على مسامعه ما قال لكن قبل أن يفعل تكلم الشيخ بصوت خفيض:

- غادر العزبة.

ونهض بعدها ليغادر الجامع، كان يعلم أن طاهر لن يكتفي وسوف يسأل لماذا، كيف ومتى؟..

وحينها لن يستطيع الإجابة في بيت الله، بدا هذا

ثقيلًا جدًا لتحمله، ما إن انتعل حذاؤه وخطى كان يلحق به طاهر بوابل من الأسئلة الحائرة، المصدومة:

- ماذا!.. كيف غادر؟ ولماذا لم يخبرني بذلك؟!

وأردف بحيرة مقطبًا ما بين حاجبيه:

- هل هو من قال لك أنه غادر يا شيخ؟.. ألم يقل السبب؟

أوقفه بإجابة واحدة، صارمة:

- جاء بدون سبب ورحل كذلك طاهر.

نام طاهر ليلتها وفي نفسه شيءٌ من كدر، كان غاضبًا لكونه رحل دون أن يخبره، لكنه كان حزينًا أكثر لأنه رحل، تقلب كثيرًا فوق الفراش،

وزفر أكثر، حتى أن عتاب لاحظت هذا وقامت من رقودها تطل عليه بخضرة عينيها الناعسة وتسأل:

- هل أنتَ بخير؟

- بخير.

قالها مختصرًا قاطعًا المزيد من الأسئلة، حين عادت إلى موضع رقودها السابق محاولة جلب النعاس من جديد، اعتدل عن جانبه وصار مثلها ممددًا فوق ظهره، حملق في السقف لبرهة رمش بعدها ثلاث مرات ثم قال لزوجه بهمس ظهر فيه الضيق جليًا:

- غادر إلياس العزبة.

~~~~

جالسة بوضع جانبي تؤرجح بأقدامها المتدلية خارج المقعد، بيدها تفاحة تقضمها وعيناها شاردة مع التلفاز الذي يعرض فيلم عربي قديم، شرود قطعه خبر رحيله..

- توقف عن أسئلتك حسن، قلت لك غادر ولن يعود، هذا ما قاله أبوك، أذهب واسأله.

- ماذا!.. لماذا ذهب؟

قالتها صدف باندفاع والتفاح يقف بحلقها حتى سعلت لتجد إجابة أمها الغير مهتمة بينما تطوي الملابس التي أنزلتها عن حبل الغسيل من خارج الدار:
~~~~

- ما الغريب؟.. مؤكد لم يكن ليبقى للأبد.

همهمت على حديثها وهي تعود إلى وضعها السابق، لكن بأقدام ثابتة وشهية لم تجدها لتكمل التفاحة المقضومة فظلت عالقة قرب فمها دون أن تمس، حين انتهى الفيلم انتبهت لحالها شاردة في الراحل لا معه، قامت من جلستها وصعدت إلى غرفتها، أخذت تروح وتجيء بأفكار متضاربه.. رحل؟.. لماذا رحل!.. مؤكد لم يكن ليبقى للأبد، بدت إجابة أمها منطقية، لماذا إذن لا تتوقف عن التفكير؟

كان عقلها يعمل كطاحونة أفكار فقدت عليها السيطرة، تتذكر، حين رأته أول مرة فوق الرصيف، وآخرها حين سحبها من بين الأمواج

الهائجة، يوم زفاف عتاب حين كان يحاول طاهر تعليمه الرقص على طريقتهم الشعبية فقام بحركات خرقاء ضحك بعدها الإثنان وتعانقا، وأخرى كان يدرس لحسن ويحك ذقنه النامية بذيل القلم قبل ما يتناول رشفة ماء، خطواته، خصلاته، طول ظهره، عرض منكبيه، وعسل عينيه الذائب تحت وهج الشمس..

زاد اضطراب أنفاسها مع تدفق الصور دفعة واحدة، ركضت تشرع ضلف النافذة، أخذت تسحب شهيقًا وتطلق زفيرًا عدة مرات حتى هدأت أنفاسها، مسحت بظهر كفها عرق نبت فوق جبينها وراحت تعبث بخزانتها دون هدف، حين لم تجد بهذا أثر فعال، مازال رأسها الغبي

يفكر فيه، هرولت إلى الأسفل، رتبت بعض الأغراض المبعثرة وجدتها بالمطبخ، أفرغت الطعام المطبوخ فوق الموقد في أواني أصغر بدلًا من القدور الكبيرة وقامت بتنظيفها رغم كرهها لذلك، شطفت أرضية الدار كلها بعد ما نفضت الغبار عن النوافذ والأثاث، أطعمت الدجاجات ونظفت من تحتهم المخلفات.. آخر النهار أخذت حمامًا باردًا، ولم تجد بها قدرة لتمشط شعرها لذا ألقت به وبمياهه العالقة مع جسدها المتعب فوق عرض الفراش، حين أغمضت عينيها وجدت وجهه هناك خلف الجفون المغلقة، ما كانت تهرب منه طوال النهار وجدته الآن ساكنًا لأقرب بقعة فيها!..

انتفضت من رقودها إثر رعشة سرت على طول ظهرها، قابلت وجهها في المرآة، أخذت بسبابتها بعبث بملامح وجهها، تدعك كرمشة الحاجبين، وتمط بجانب الشفتين في محاولة يائسة للابتسام، حين فشلت في فرد عبوسها همست لصورتها المعكوسة فوق سطح المرآة:

- ماذا أصابك يا مخبولة؟

حين تكلمت وجدت كآبة بصوتها لم تعهدها، استغفرت ربها كثيرًا، بداخلها كانت يقينة بكونها تقوم بإثم كبير لأنها تفكر بتفاصيل رجل وإثم آخر لأنه محرم عليها، وثالث تظنه عظيم لرغبتها الشديدة في أن يعود..

وحتى تتخلص من هذا الشعور وتبرأ حالها أمام ربها وقفت تصلي، أدت ركعتين بذهن نصف صاف، حين سلمت عاد طيفه من جديد يقتحم فكرها كأنه يعاندها، لحظتها همست بيأس قاتل تناجي ربها في هذا الليل البهيم:

- يارب هذا عقلي.. لا تعاقبني.

وتمددت على جانبها بإزار الصلاة خاصتها فوق الأرضية الصلدة، أصابعها اليمنى تنقر فوق السجادة دون صوت بينما الذراع الأيسر طوته أسفل رأسها، أخذت تترنم بتهويدة قديمة تحفظها وتحبها حتى ثقلت أجفانها وغفت.

في الصباح، لم تستطع أن تمنع لسانها الذي كذب وقال للشيخ رحيم أن عتاب مريضة

وتستأذنه في الذهاب إليها، تأخر جوابه، ظلت واقفه أمام باب غرفته في توتر بالغ حتى أذن لها بإشارة من كفه دون حديث، لم تفكر في جفاء أبيها معها منذ أيام بقدر ما تفكر في هذا الإلياس الذي رحل، كانت بحاجة شديدة لمعرفة سبب رحيله، ربما وقتها تتوقف أفكارها عن التدفق وترحم رأسها الذي بات مزدحمًا به.

استقبلتها عتاب بضمة ترحاب كبيرة، شعرت أنها كانت بحاجة إلى ضمة كهذه بالفعل، أخذتها من يدها وصعدت بها حيث غرفتها بعد ما استأذنت من أم زوجها وشقيقاته الثلاث، صبت لها مشروب البرتقال الغازي، ملأت حجر ثوبها بالفول السوداني وأحضرت لها صحنًا من الأرز

بالحليب المفضل لدى طاهر، قالت ضاحكة بينما تضعه أمامها وتجاورها:

- لو عرف طاهر أني قدمت لك صحنًا من خاصته قد يصدر فرمانًا بمنع دخولك إلى البيت مرة أخرى.

وقهقهت بشدة حتى أوقفتها صدف بتعابير هازئة، بمزاح:

- بغيض وبخيل .. وماذا أيضًا؟.. نعم؛ ثقيل دم.. لطفك يارب.. أظن حان الوقت لتعترفي أن الزواج بهذا الطاهر أكبر مقلب أخذته في حياتك.

رفرفت لها عتابى بأهدابها، تثير من غيرتها أكثر:

- بل أفضل ما بحياتي يا غيورة.

زمت صدف شفتيها باعتراض:

- لست غيورة.

- بلى.

- إذن سآكل الأرز بالحليب شكاسة فيه.

وضحكن بصفاء حتى أدمعت العيون، بعدها فكرت كيف تصل إلى مرادها دون أن تلاحظ عتاب اهتمام زائد من ناحيتها، لن تضمن خيالها الجامح أين سيصل بأفكارها وأسئلتها، قالت بخبث داخلي:

- صحيح؛ هل عرفتِ برحيل زهير وأهله عن العزبة؟.. يقول الناس أنهم باعوا بيتهم وأرضهم لرجل أعمال كبير من العاصمة.. المهم أني لا

أصدق أخيرًا تخلصت منه.. كان مثل الهم يلاحقني.

قالت عتاب بتأثر كاذب:

- كسرتِ قلب المسكين حتى رحل.

- لا تبالغي في دراميتك، جميعنا نعرف أنه كان يريد نسب الشيخ رحيم لذا كان يصر في طلب الزواج ولا يمل.

غمغمت ويدها تفرك حبة فول سوداني وحين قشرتها رفعتها إلى فم صدف:

- على كلٍ راح لحال سبيله.

ثم أردفت بتأثر جدي:

- الكثير يرحل صدف، حين أمر وأرى بيوت العزبة العامرة صارت خراب فارغ يوجعني قلبي.

غمغمت على حديثها:

- نعم، أنا أيضًا، لكن ماذا نفعل إذا كانت هذه رغبتهم.

استرسلت عتاب في حديثها:

- حتى هذا إلياس رحل.

وهذا تمامًا مرادها الذي جاءت لأجله، تركت الصحن وتناولت المشروب الغازي، ترتشف منه ببطء وتغمغم كمن لايهمه الأمر:

- نعم عرفت هذا من أبي، لكن لماذا غادر يا ترى؟

- غادر دون أن يخبر أحدًا.. حتى طاهر لم يخبره.. يا حبيبي لقد حزن و تأثر كثيرًا برحيله.

أخذت تسحبها أكثر في الحديث:

- على كل حال كان شخصًا غير صريح، مثير للشك والتساؤلات، من الجيد أنه رحل برأيي.

أخذت تقرض عتاب حبة الفول بمقدمة أسنانها وعقلها يحتار بين إفضاء مافي جعبتها للصديقة وبين الصمت حفظًا للسر، حاولت، تقسم أنها حاولت لكنها لم تستطع ابتلاع الأمر في بطنها أكثر من ذلك:

- سأخبرك سرًا صدف.. عرفته من طاهر.. لكن إياكِ أن تخبري أحدًا..

تحفز جسد الأخرى في إثارة لما هو آت، تظن أنها وصلت أخيرًا لما تريد:

- بالطبع يا روحي، لمن سأقول أساسًا.. هيا، هاتي ما عندك؟

حذرتها بالسبابة:

- صدقًا صدف قد يقتلني طاهر لو عرف أني أخبرتك بهذا.

غمغمت بقلة صبر وبوادر حنق بينما تصر فوق أسنانها:

- أعدك لن يعرف أي مخلوق.. هيا تكلمي!

بللت شفتيها بطرف لسانها وهتفت على مهل بحروف واضحة:

- هذا المسمى إلياس ليس مسيحيًا.. بل مسلمًا مثلنا.

ارتعشت يدها فسقط بعضًا من المشروب على الأرضية وتبعثرت قشور الفول عن حجرها بينما تفك تربيعة ساقيها بغتة، والتالي كان شهقة وبحلقة عيون..

- مهلاً صدف.. يا الله!.. اتسخت السجادة.

وتحركت تجلب مايلزم لتنظيفها تحت نظرات الصديقة المصدومة، جثت بقربها تلملم ما تساقط وتكلمت حتى تسحبها من البئر الذي أسقطتها فيه عنوة:

- وأنا صدمت مثلك ولم أصدق في البداية، لكن طاهر أكد لي.

وجدت صدف حالها تمعن فيها النظر و تنطق بشبه زعيق لم تشعره:

- كيف يخفي أمرًا كهذا؟!

حركت عتاب كتفيها وبين يديها خرقة تدعك بها السجادة المتسخة:

- خمن طاهر أن أهله يرفضون إسلامه لذا تركهم وجاء إلى هنا.. لكن لماذا أخفى هذا عن الجميع ولماذا ترك العزبة دون أن يخبر أحد.. لا نعلم.. أخذ سره معه و رحل.

بذلت جهدًا جبارًا حتى تبدو أمام عتاب مجرد مستغربة وصدمتها مؤقتة مثلها، لكن في الحقيقة لم تكن مثلها أبدًا، جحيم الأفكار كان قد استعر أكثر، شعور بأنها أضاعت شيئًا ما كان يلازمها طوال النهار وحتى عندما خلدت إلى فراشها ليلًا تتوسل النعاس من بين ثرثرة حسن الذي لا تتذكر متى اقتحم غرفتها وقرر أنه سيبيت ليلته معها وجعل من ذراعها وسادة أسفل رأسه، يقول:

- قال لي أيمن اليوم أن في القمر أُناس مثلنا وأطفال يلعبون البلي كما نفعل.. هل هذا صحيح أختي؟

أجابته ورأسها المائل يقابل القمر وماحوله من نجوم عبر النافذة المفتوحة والستائر المرفرفة بفعل نسائم الليل الباردة:

- لا ليس صحيحًا، كالعادة يحب أيمن أن يستعرض عليك بمعلوماته الخاطئة.. لا تصدقه.

- حسنًا ماذا يوجد.. أخبريني؟

- صخور وحجارة وأشياء من هذا القبيل.

- وأنتِ كيف عرفت هذا إذا كان لا يوجد أحد هناك؟

- هناك أناس يسمون رواد الفضاء، تمكنوا من الصعود إلى هناك وإخبار الناس بما رأوه.

هتف بانبهار طفولي:

- واو يبدو هذا مثيرًا.. أنا أيضا حين أكبر وأقود الطائرة سأذهب بها إلى هناك.

همهمت له بثغر باسم دون حديث وأناملها تمسح عن جبينه وخصلات شعره وبصرها شارد نحو نحو اللاشيء، بعد حين تغيرت ملامحه الطفولية إلى أخرى عابسة ليقول بنعاس بدأ يخالط حروفه:

- هل تعلمين أختي..

وصمت لبرهة أردف بعدها بتنهيدة:

- أنا أفتقد الأستاذ إلياس.. كثيرًا.. ليته لم يذهب.

حين وصف لها الصغير شعوره ولخصه ب-"افتقاد" بدا لها هذا التوصيف أقرب وأشمل لما تشعر به فيما وراء الضلوع.

~~~~

في الصباح التالي لم يكن هناك فرصة ليشعر أيٌّ منهم بغيابه والفراغ الكبير الذي خلفه وراءه، استيقظ الجميع على صوت مناوشات وجلبة قادمة من الجهة الشرقية للعزبة، حين وصل طاهر حيث يقف خمس رجال ببدلات رسمية أمام بيت العم شاكر الذي يلتحم معهم بزعيق شديد وبعض الإهانات المتناقلة بين الطرفين.. حاول تهدأت الوضع دون أن يفهم أبعاد الخلاف لكنه لم يفلح، لم يطل الوقت وكان الشيخ رحيم
~~~~

قد حضر مهرولًا هو الآخر وقد انكشف أساس النزاع.. قطعة الأرض هذه تم بيعها من قبل مالكها والنتيجة أن البيت الذي كان يستأجره العم شاكر ويقطن فيه مع أولاده أصبح لمالك جديد، وهذا الجديد يريد إخلاءه في الحال، وقطعا لن يهمه أين يذهب العم شاكر الرجل الستيني بأولاده الخمس؟!..

في البداية حاول الشيخ رحيم الوصول إلى حلول وسطية ترضي الجميع، لكن الرفض والتعنت كان باديًا فوق الوجوه الصلدة لذا لم يستطيع طاهر التماسك أكثر حين بكى العم شاكر عندما حاولوا الرجال الخمس دخول البيت قسرًا ليخرجوا أولاده وزوجه عنوة..

وقف طاهر وعشر آخرين من شباب العزبة إلى جواره، بين أيديهم عصيان غليظة مشرعة للأعلى، يتصايحون بصوت رجل واحد:

- إذا مررتم من الباب تخرجون محمولين على الأكتاف.

كانوا يعنون هذا بكل جدية، التحدي في أعينهم كان صادقًا لحدٍ مخيف، تراجع الرجال الخمس ورحلوا بسلسلة من وعيد وتهديدات، بعد رحيلهم نفضوا الغبار عن جلباب العجوز شاكر وتركوه يعود إلى داره يطمئن أولاده ويطمئن بهم.

لم يكن يعلم أحد حينها أن بعد يومين لا أكثر سيعود الخمس رجال ومعهم مالك الأرض وعدد كبير من رجال الأمن يحيطون بالبيت والأرض

التي يقع عليها النزاع وبقلبها العم شاكر لا يدري أين يذهب بمن معه، كان عددهم كبير حتى ظن البعض في البداية أن وقع أقداهم ماهو إلا زلزال محقق، وكان كل فرد منهم يقف بسلاح له فوهه يوجهها للأمام..

ثلاث أكوام كونتها حاجيات العم شاكر، ملابس تمرغت بالأتربة، إبريق ملقى على جنبه دون غطاء، وأحذية الصغار تبعثرت كلًا على حدى، كانت الأكوام جوار بعضها وبقربهم تجثو زوجته تندب على وجهها و ثلاث فتيات هن الأكبر وصبيان يشاركون أمهم العويل..

حين حاول الكبار التدخل أخرسهم الضابط الغاضب بثلاث أعيرة نارية أطلقهم من مسدسه

في الهواء، بعدها عم الصمت، أفرغوا البيت، وضعوا له قفلًا جديدًا، ثم حذر الضابط قبل رحيله قائلًا: إذا حاول أيًا كان التدخل سيعاقب حسب ما ينص القانون.

قال هذا والجميع صامت، لملم الرجل الستيني ما استطاع من أغراض وجاء بمركب كبير ينقله هو وأولاده إلى حيث لا يدري أحدٌ، تفرق الجميع ولم يتبق غير الشيخ رحيم وطاهر يتبادلان النظر، لكن لم يوجد شيئًا يقال غير الصمت..

حين أدار رحيم ظهره خذلته قدماه وبدا تحريكهما كمن يزحزح الصخر الراسخ، دعمه طاهر بجسده حتى أوصله داره، قابلته النظرات

بفزعٍ، كانت صدف أول من اندفع ناحية أبيها، تسنده من الجهة

الأخرى مع طاهر بينما تهتف بجزعٍ:

- أبي هل أنتَ بخير؟!.. هل أصابك مكروه؟.. لماذا لا تتكلم... ماذا حدث له طاهر؟

- سيكون بخير.

طمأنهم بها طاهر، صعدوا الدرج بصعوبة وأخيرًا ساعدوه ليرتاح فوق فراشه بروية، كانت قد لحقت بهم زوجته بكوب ماء وقرص دواء، بعد حين كان يعود برأسه المثقل إلى الوراء وأنفاسه المتقطعة اللاّهثة تنتظم باعتياد، رحل طاهر وراحت زوجته تحضر له بعض الطعام حتى

يصلب بدنه، بقيت هي وحدها تتشبث بكفه الدافئ، تجلس بالقرب منه فوق الأرضية وبصرها مثبت عليه، ظلت دموعها تتساقط فوق وجنتيها دون إرادة، كان من الصعب رؤية الشيخ رحيم بكل هذا الضعف والهوان!..

حين فتح عينيه بقي صامتًا، فقط ينظر إلى الفراغ والهم يتجلى فوق قسماته، همست تسأله بصوت بح من كثرة النحيب المكتوم:

- من السبب في كل هذا أبي؟ ما ذنب العم شاكر المسكين حتى يلقون به تحت تهديد الرصاص.. ماذا يريدون منا؟!

أجابها بصوته المتعب:

- يريدون العزبة صدف.

وتابع بوهن أشد:

- إما نقبل بالفتات الذي يعرضونه أو نتحمل ما يصير.

- لكن هذا الظلم والتجبر لا يرضي الله!

- لو كانوا يعرفون الله مافعلوا.

- ونحن؟.. هل سيلقون بنا خارجًا مثل العم شاكر؟!

لم يجب على سؤالها هذه المرة، غاب في شروده مع الفراغ حتى اعتدل من رقوده، جلس فوق حافة الفراش وترك أقدامه تنزل خارجه، صار يحملق فيها الآن، يراقب عينيها الغائرة بدمع لم

يجف بعد، احمرار أنفها وارتعاش شفتها السفلى، قال ويده تمسح جانب وجهها وتقطع سير دمعة كانت تنحدر على مهل:

- ستذهبين إلى العاصمة صدف، وتدخلين الجامعة.. سأضعك على بداية الطريق بنفسي.

قال هذا ثم لم يلبث حتى أردف بأحرف مرتجفة:

- إذا كان مقدرًا لأحد منا أن ينجو من هذا الخراب، فليكن.

تضاعف دمعها وزاد نحيبها، أخذت تحرك برأسها رفضا وهي تقول:

- لن أترككم..

وألقت بجبهتها فوق فخذه، تنتحب بحرقة وتكرر تشبثها بأصابع جعدت ثوبه:

- لن أترككم.

مسح عن رأسها وغمغم بقرار غير قابل للعصيان:

- بلى ستفعلين.. لأجلك وأجلنا معا، ستفعلين.

(7)

- بلى ستفعلين.. لأجلك وأجلنا معًا، ستفعلين.

صار الحُلم بغيةً، هدفًا مقننًا عليها أن تصل نقطة ارتكازه، لأجله هو، لأنه أراد وقال افعلي هذا لأجلي، أما عن حلمها آنذاك، صار شيئًا ضبابيًا، ماتت فيه اللهفة، اضمحل الشغف وصار كورقة خريف ذابلة سوف تهوي مع أول ريح عابرة. قد تكون أحداث العزبة الأخيرة من تشتيت

لأهلها وقمعهم داخل زاوية ضيقة ماجلب لروحها كل هذه الكآبة، زادها وداع أمها التي اعتصرتها بين ذراعيها دون أن تنطق كلمة واحدة، حاربت دموعها، لم تترك لها حرية

الهطول، بل طمئنتها بكون هذا ماتريد ويسعدها، لكن حين ركبت العربة تركت وجهها خارج النافذة حتى يطير الهواء دموعها التي أخذت تنحدر واحدة تلو الأخرى، في القطار أسندت رأسها على كتف أبيها وبقيت لوقت طويل صامتة حتى همست له وأصابعها تشد على ذراعه دون أن تشعر:

- الشتاء يقترب..

وعلى إثر همهمته تذكرت شجرة البرتقال التابعة لمزرعة العم فايز، ذات الطعم الحلو بلذوعة خفيفة لم تتذوق في مثل روعتها قط، كانت تقبع مباشرة خلف السور القريب من بيتها، حيث تحب أن تجلس هي ورفيقاتها متنعمين بدفء

الشمس في بدايات موسم الصقيع، وحين يشتهين كانت تتبرع هي بالصعود على راحتيهم المتشابكة، تتمدد بجذعها حتى تقطف ثلاث ثمرات بعددهم في لهوجة وسرعة متخبطة خوفًا من أن يكشف أمرها، يقضين نصف النهار يتسامرن بحكايات من الشرق وأخرى من الغرب متبادلين الأسرار الصغيرة كأعمارهم الفتية، يضحكن ببالٍ صافٍ بينما يقشرن البرتقال بأظافرهن ويأكلونه بنهم غير مباليات بعصيره السائل على جانب الفم وعالق بين الأصابع، يقلن لن نعيدها لكن حين يجلسن هكذا وتهز الرياح أغصان الشجر من فوقهن تهفو إلى صدورهن الرائحة العطرة

مزكمة في طريقها الأنوف فينهضن على اتفاق أن تكون هذه آخر مرة ولا تكون..

من بين ذكرياتها الكثيرة تظل هذه أكثرهم تعلقًا بعقلها وقلبها معًا، كانت تظن بعقل الطفلة فيها أنه سيمر شتاءات كثيرة أسفل ذاك الجدار يكون فيه الفتيات الثلاث أكثر نضوجًا بكل شيء، لكن صباح قبل أمس جاءت عربات تابعة للشرطة وقامت بجرف مزرعة العم فايز، قالوا أنهم بحاجة إلى قطعة الأرض تلك وحين عرضوا على العم فايز مبلغًا زهيدًا رفض، ولأجل هذا أخذوها عنوةً من بين يديه وأمام عينيه ولا عزاء للخائنين أعداء التطور وازدهار البلاد..

اقتلعوا كل الأخضر فيها، تبعثر الثمر وتهاوت الجذوع مع تهاوي صاحبها ونقله إلى أقرب مشفى خارج العزبة، حتى السور طالته الضربات القاسية حتى غدى كومة من الحجارة المكسورة وبعضًا من ذكرى صارت مطمورة.

- متى ينتهي هذا؟

همست على حين غرة، قرب رأسه من رأسها حتى التصق، ثم أخذ يستفسر بخفوت يليق بسكون ليل في عربة قطار:

- ماذا تقصدين؟

- ما يحدث في العزبة؟.. متى يتركونا نعود إلى حياتنا السابقة، يرحلون بعرباتهم الضخمة

وأسلحتهم المزخرة.. نسير فنرى الوجوه التي نعرفها لا تلك الساخطة على الدوام؟

كانت أجفانه تلاقي بعضها بنصف ارتخاء حين قال:

- لكل شيءٍ نهاية، لا شيء يدوم للأبد.

عادت تسأل بتقطيبة جبين:

- دومًا أتساءل، لماذا لا يستمع لنا أحد؟ دائمًا صاحب المال صوته أحلى وصاحب حق.. هل الفقر من يذل أهله ويدني به لتلك المنزلة؟

- الحاجة و قلة الحيلة هي من تفعل.

- هذا لا ينفي أننا ضعفاء نرهب الصوت العالي، لو تكاتف الجمع وصاروا يدًا واحدة ما استطاع

مخلوق أن يفرق بيننا ويأخذ منا ماهو في الأصل من حقنا!

افترق جفناه على نبرة الحنق في صوتها، يقول بحنانه المعهود:

- عنفوان الشباب شيء جميل، لكن الواقع أقسى وأكبر من هذا صدف، تحتاجين عمرًا فوق عمرك حتى تفهمين ما أقول.

ابتعدت عن كتفه، أخذت تتطلع إلى الأمام، نحو نقطة وهمية وهي تهمس برأس شبه منكس:

- كرهت الوطن، رائحة الظلم والعفن تفوح من كل ركن وزاوية.

- توقفي عن إرهاق عقلك بأمور أكبر منه.

عادت إلى كتفه، أخذها الصمت بعيدًا حتى تكلمت بعد حين بحروف في طياتها الغم:

- كيف سيمر يومي بدونكم؟

- أنا أثق بابنتي وأعرف أنها تجيد التأقلم والاعتناء بنفسها جيدًا.. أليس كذلك؟

- ابنتك تحبك كثيرًا شيخ رحيم.

~~~~

بدا أبوها أكثر كهولةً وعجزًا وسط هذا الزحام الكبير، فاجئتها الحياة السريعة في العاصمة، كان كل شيء يركض دون توقف، الساعات والأيام، حتى البشر، الرجال والنساء والشباب، الجميع يركض بلا توقف، وكله في سبيل لقمة
~~~~

العيش داخل إطار روتيني لا يتغير، زال انبهارها بعد وقت قصير، لم تكن هذه اللوحة التي رسمتها بخيالها ونقشها طموحها.

تم قبولها بكلية التربية، كانت تلك رغبتها الأولى التي كتبتها سرًا قبل شهرٍ وكأنها كانت على يقين أن إرادتها ستنتصر في النهاية، وفي المقابل تم رفضها من سكن الجامعة لتأخرها حتى بداية الدراسة، لكن أبوها كان لديه الإصرار الكاف ليجد لها بديلًا، سكن خارجي يتشاركنه عدد من الطالبات الجامعيات أتين من نواحٍ متفرقةٍ للبلاد، شقة بالطابق الخامس، صغيرة المساحة على سبع فتيات لكنها ليست سيئة على كل حال..

يقبع سريرها أسفل النافذة الواطئة التي تطل على مواسير الصرف وجدار خرساني لا ينبثق عنه شمس ولا قمر. سجادة مغبرة ومكتب صغير مع كرسي جلدي، لمبة لها إضاءة جيدة و سرير آخر هو لشريكتها بالغرفة..

عانت كثيرًا في أسبوعها الأول، عالم جديد كان عليها أن تعتاده وتختلط معه، واجبات عليها القيام بها و مسئولية يجب أن تتحملها حتى تتفادى المشكلات مع

زميلات السكن، كان عليها أن تستسلم لبعض التغيرات حتى تتعايش مع الوضع الجديد.

أول مرة وطأت بقدمها بوابة الجامعة انتابتها رعشة طفيفة غزت سائر جسدها، شيء من حلم

قديم عاد يطاردها ويملأها بانتعاش محبب، سرعان ما اعتادت جو الدراسة واندمجت فيه، ربما لأنها تملك شخصًا محبًا للدراسة ولا يمل من الإطلاع على كل ماهو جديد، ورغم ذلك ما كان سهلًا على الغير كانت تقابله بصعوبة شديدة، لم يكن متاحًا أن تلجأ لبعض الحلول المساعدة، كل الحلول كانت تحتاج الكثير من المال، وهذا ما لم تملكه ولم تستطع طلبه من أبيها وهي خير من يعرف الضيق الذي يمر به الجميع، لذا اكتفت بما ترك لها من مال ولم تذكر له قط أن الحياة في العاصمة تساوي ثلاث أضعاف الحياة بداخل العزبة، كان يوجد فقط هاجر، شريكة الغرفة والسكن،تساعدها من

حين إلى آخر، لذا كان عليها أن تعتمد على حالها أغلب الأوقات.

كان الطقس ينبأ عن شتاء شديدة البرودة هذا العام، في تلك الأمسية كانت تتدفى داخل فراشها وبين يديها ماتبقى من مال، احتاجت شراء الكثير من أجل الدراسة، وبعضًا من الأشياء الخاصة، كما تحتاج إلى شراء الملابس الجديدة و معطفًا آخر فما لديها لن يصلح مع هذا الجو، لكن في المقابل ما كان بين يديها بالكاد يكفيها مأكل ومشرب حتى آخر الشهر..

- هل قلت شيئًا صدف؟

كان هذا صوت هاجر، سحبتها من غمغمة النفس لترفع لها بصرها الحائر، تزفر وتقول:

- يجب أن أجد عملًا في أقرب وقت.

- عمل؟!.. سيكون هذا صعبًا جدًا، سيضيع اليوم بين الجامعه والعمل، متى تدرسين؟

- أنا مضطرة لهذا هاجر، لا أستطيع أن أطلب من والدي أكثر في ظل هذه الظروف الصعبة.

أومأت هاجر برأسها في تفهم وعادت تدفن رأسها بكتابها وبيدها قلمًا تدون أمرًا ما، بعد برهة رفعت رأسها إلى الحائرة لتقول:

- عند تقاطع الشارع الرئيسي يوجد مطعمًا، أظن أني رأيت لافتة معلقة يطلبون فيها عاملين، يمكنك الذهاب ورؤية إن كان مناسبًا لك.

لم تفكر مرتين، في اليوم التالي عقب دوام الجامعة كانت تقف أمام مدير المطعم، اسمه سعيد، رجل أربعيني ذو خصلات رمادية يصففها للوراء، له جسد عريض وصوت غليظ به حدة تلزم الرهبة، كانت تفرك كفيها في توتر بينما سعيد هذا يطالعها من أعلى لأسفل، يقول بعد لحظات صمت:

- يوجد لائحة من الشروط أولها الالتزام والجدية، إن لم تتوافر لديك هذه الشروط، رجاءً لا تضيعي وقتك و وقتنا يا آنسة.

قالها سعيد عقب ما أخبرته أنها طالبة جامعية في سنتها الأولى وتحتاج للعمل، كانت فرصة مناسبة لكونها قريبة من سكنها، لذا لن تتحمل

أعباء بُعد المسافات، ولأجل هذا أصرت أن تخوض التجربة حتى النهاية:

- جربني، لن تخسر شيئًا.

لحظة تقييمية أخيرة، غمغم بعدها:

- تعالي غدًا، ونرى.

وفي الغد، جاءت قبل موعدها، تقف أمامه من جديد، بتوتر أقل، وابتسامة مضطربة، ناولها الزي الخاص بالمكان وطلب منها أن تجربه، لم تعتد لبس السراويل، لم تكن تحبذها أبدًا، لكنها مضطرة، قالت هذا لنفسها، ارتاحت قليلًا حين وجدت أرجل السروال السوداء واسعة بعض الشيء، القميص كان أبيضًا ناصعًا مع ربطة

عنق حمراء، رفعت شعرها وجمعته فوق رأسها بمشبك رفيع، حين انتهت أخذت شهيقًا طويلًا وخرجت، وقفت أمامه فرأت في عينيه الرضا، ارتاحت لهذا وذاب كثيرًا من قلقها، تقلق لأنها تفعل هذا من وراء أبيها، سيغضب كثيرًا إذا علم، ولا تدري ماهية رد فعله، لكنها تؤجل كل هذا لوقته..

- هل فهمتِ ما قلت؟.. الآن اذهبي إلى المطبخ وابدأي بمباشرة عملك.

لن تقول له أنها شردت ولم تسمع حرفًا مما قال، لكن هو يريدها أن تعمل، وهي ستفعل، الأمر ليس بهذا التعقيد..

حاولت ضبط مشيتها بينما تسير، عيون سعيد ستظل تلاحقها طيلة اليوم في اختبار جاد، كان هناك ممرًا طويلًا يدخل فيه ويختفي العاملين ثم يعودون لذا لم تتأخر في الوصول إلى بغيتها، عبرت الممر الطويل بضيق ثم وجدت حالها بداخل مطبخ فسيح، يكبر مطبخ أمها بأضعاف، على عكس هدوء الخارج، كان الضجيج هنا، الكل يعمل في حركة دؤوب وسط روائح الطعام والأدخنة المتصاعدة، كلًا يعرف مهامه، أربكها هذا قليلًا، أخذ بصرها يدور ويتخبط بين الوجوه الغريبة، لم تشعر إلا بأصابع قوية تفرقع أمام وجهها وصوت أجش، يقول:

- أنتِ جديدة هنا؟.. مرحبًا أنا عماد.. خذي هذه إلى الطاولة رقم ثمانية.

نظرت إلى لائحة الطعام المدفوعة بين يديها فأخذتها بسرعة وشفاها تتحرك بشبه ابتسامة مع إيماءة خاطفة لتستدير بعدها وتفعل ما أمرت، غصة زارت حلقها بينما تعبر الممر ذكرتها بأيامها الأولى هنا، كغريبة، وحيدة بمكان لا تعرف فيه مخلوق..

سرعان ما تلاشت غصتها وهي تراه أمامها، يذكرها بموطنها وإن لم يكن من أهله، يعيد لها شيئًا ما فقدته الفترة الماضية، رمشت مرتين للتأكد من كونه يقف أمامها بزي مشابه لخاصتها، يبادلها النظرات المذهولة ويقترب

بخطى وئيدة غير مصدقة، حتى تلاقيا في المنتصف..

- أنتِ؟!

حين تكلم، أدركت أن ماتراه حقيقة..

وليس دربًا من الأحلام.

~~~~

حين اختار العاصمة ملجأ لشتاته أراد أن يضيع بين الزحام، أن يعبر بين الوجوه   فلا يسأله أحدًا عن اسمه أو عنوانه، مجرد غريب مثل الآلاف غيره، أراد أن يتناسى وسط هذا الضجيج من يكون ويمضي قدمًا بهويته المزيفة..
~~~~

لم يكن سهلًا إيجاد سكنًا في المتناول ودون ضمانات، لكن غرفة ضيقة أقرب لقبو أسفل بناية قديمة رأى صاحبها أن الانتفاع القليل من ورائها خيرًا من أن تبقى مهجورة يسكنها الغبار وخيوط العناكب، صدَّق صاحب الغرفة الحيلة التي حاكها، بكونه تعرض للسرقة فور نزوله من القطار فاقدًا ماله وكل مايملك من أوراق تثبت الهوية، وهي ذات الكذبة التي صدقها سعيد صاحب المطعم الذي يبعد شارعين عن مسكنه، ولم يهتم هذا أو ذاك حين رأو منه حسن السلوك والتصرف حتى أن نظرة الشك تلاشت من أعينهم بعد حين ولم يعد يراها..

في البداية كانت تمر أيامه ببطء قاتل، روتينه يتلخص في العمل والنوم، مكالمات متفرقة لإلياس وأمه على فترات متباعدة، انتظار لحظة الحكم في جريمة لم يرتكبها بيأس قاتل، لاحقًا، اعتاد هذا، تركه يتسرب بين جنباته ويمر تاركًا طيفًا كئيبًا في نفسه.

بشكلٍ ما اعتاد أن يتكيف حسب ما يفترض الوضع، قرر أنه لن ينخرط مع العالم الخارجي، لن يعلق قلبه بأشياء

مؤقتة، بشكلٍ ما كان يرى نهايته الوشيكة تقترب، لذا احتفظ بعزلته، وسطح علاقاته مع الجميع..

ومن بين هذا الجحيم الذي يلاحقه كان يسكنه شعورٌ آخرٌ بالفقد، شيءٌ ما لا يعرف ماهيته نقص من روحه، دومًا كان يقول لنفسه أنه شعور مؤقت سيزول مع الوقت، ما عاشه فوق أرض العزبة حفر ذكريات كثيرة بذاكرته، لذا لن يكون النسيان ولا مداوة الشعور بالشيء اليسير، نجح الوقت في تخفيفه لكن لم يستطع أبدًا أن يمحوه..

لكن وللغريب في اللحظة التي رآها مقابله، تعبر الممر، بهيئة غير الهيئة التي عرفها، في هاته اللحظة اختفى ذاك الشعور الذي يسكنه، لوهلة ظن أن الممر الضيق يتسع برحابة لا آخر لها، الموج يهدر، ضجيج المراكب ينبعث، هي وهو

فوق الرمل الرطب يدور بينهما حوارٌ مختلفٌ، مشتعلٌ من ناحيتها، وهادئٌ منصتٌ من جهته.

اقتربت خطواته دون أن يشعر، ونطق لسانه قبل أن يأذن له:

- أنتِ..

لم يكن سؤالًا من ناحيته بقدر ما كان إقرارًا لما يراه، كمن يقول: أنتِ هنا!.. لكن فجأة عادت تتقلص الجدران وعاد الممر لوضعه الطبيعي، تفوح روائح

الأطعمة ويعلو ضجيج من نوع آخر، كل هذا حدث حين عبرت من الجوار دون أن تمنحه أي جواب.

~~~~

بالنسبة لها كانت هذه الفترة هي الاختبار الحقيقي لمدى قوة الحب الذي ربط بين قلبيهما، إلى متى ستتحمل غضبه؟ مزاجه العكر أغلب الوقت وغيابه الطويل عنها وعن البيت، مررت الكثير، وتشاحنا أكثر، في بداية زواجهما لم يكن يطول الخصام لساعات، غالبًا ماكان ينتهي في وقته، لكن الآن قد يمتد ليومين أو ثلاث، لا يحادثها، يدخل الغرفة لأجل النوم، ينزوي على طرف الفراش موليًا ظهره، لا ينطق بحرف، لا يعاتب أو يحل خلاف، وفي الصباح تجد مكانه خاليًا، باردًا كحال قلبها بدونه، تغضب عليه
~~~~

أكثر، لكن حين تراه مهمومًا أو متعبًا يرق قلبها وتسعى هي لرأب الصدع..

يتمدد فوق الأريكة بداخل غرفتهما، يضع ذراع فوق عينيه وترك الآخر يتدلى لأسفل، كانت تنظر إليه كل حين بينما تفرد ملاءة السرير وتعيد ترتيب طاولة الزينة، ابتلعت لعابها عشرات المرات، أخيرًا تجرأت لتقول وهي تعلم أنه يسمعها:

- ما رأيك لو ذهبنا غدًا في نزهة؟.. فقط أنا وأنت، نذهب للسوق الكبير، نشاهد فيلمًا ربما، أو أي شيء تريده..

- من أين تأتين بهذه الأفكار؟

قالها بعد برهة وهو على وضعه، تغاضت عن السخرية بصوته و اقتربت تجاوره، تبعد ذراعه الذي يعصب عينيه وتهمس بإبتسامة لطيفة:

- فكرت أننا بحاجة لهذا..

- لا تفكري إذن، لأني لست في مزاج يسمح بتحمل دلالك عتاب.

فاجئها بقوله الضجر، نهضت بحدة، توليه ظهرها وتقول في تهكم يماثل نبرته:

- أنتَ لم تعد في مزاج لأي شيء طاهر.

علق ساخرًا:

- هل ستبدأ فقرة النكد الأسبوعية؟

عادت تستدير نحوه بقوة اختض لها الجسد،

تصرخ في وجهه:

- قل لنفسك!

انتفض من رقوده جالسًا، يرمقها شذرًا ثم ينهض

ضاربًا كتفها بكتفه متجاوزًا إياها بغضب:

- أصبحتِ لا تطاقين.

انتفخت أوداجها إثر كلمته، احتقن وجهها

وأذناها تشعان حرارة الآن، ظلت تراقب تحركه

الغاضب وهو ينوي تبديل ملابسه ناويًا الخروج

تاركًا إياها مشتعلة غير مبال، اقتربت تنزع

القميص من بين أصابعه، تلقي به فوق الأرض

وكل كيانها ينفجر بصياح:

- هل أنا السبب فيما يحدث؟ هل وحدك من تعاني في هذا الوضع؟

- صه! ستوقظين أمي..

كان يمسك بذراعها، يهزها ويهدر بغضب أكبر، نفضت يده عنها بعنف، دموعها تغسل وجهها، تصرخ وهي واعية بكونهم يتشاجران بحق لأول مرة:

- هل فكرت أنني أعاني مثلك؟.. هل فكرت كم أثر بي رحيل أختي وأولادها؟.. حتى صدف ذهبت.. كل يوم صرت أفكر دور من في الرحيل..

بُح صوتها وتحشرج، كانت تنظر لعمق عينيه وأطرافها ترتعد:

- لا أحد يشعر بي.. أنتَ معي بجسدك فقط.. أتحمل تقلب مزاجك.. أقول من له غيرك؟.. أقول فترة وستمر.. سيعود كل شيء أفضل من قبل.. لكن لا شيء يعود.. تسوء الأمور أكثر.. أفكر بك.. أفكر كيف أخفف عنك.. لكنك لا تفهم و تقول أصبحتِ لا تطاقين!..

حين انتهت كانت تلهث، استدرات عنه، لم يعد يرى غير اهتزاز جسدها الذي أحاطه بذراعيه، ألصق ظهرها بصدره، ظل صامتًا يهدهدها بهزات صغيرة أخذتهما معًا لأيامهما الأولى، حين وجد صوته سألها ببحة خاصة:

- منذ متى وعيناك الجميلة تراني بكل هذا السوء؟

همست باختناق:

- ابتعد..

شد على ضمها أكثر، وحروفه مع شفتيه تلامس بشرة جيدها بحرارة:

- أنا أبتعد عن العالم وآتي إليكِ.

- لا تفعل هذا بي إذن.

أدارها إليه، يحيط وجهها الباكي بيديه، مسح دمعها بإبهامه، ثم مال يقبل جبهتها طويلًا، لم يبتعد، فقط أفسح مجالًا لحروفه اللطيفة كي تخرج:

- قد أكون أسوأ زوج بالعالم.. لكن هذا السيء لا يستطيع العيش بدونك.. ولا ليوم واحد.. تذكري هذا كلما أحزنتك.

ثم ارتاح بجبهته فوق جبهتها وأخذ يبوح بقلب مثقل:

- أنا متعب عتاب.. لا أكف عن التفكير.. أمي، أخواتي، أنا وأنتِ، ما مصيرنا؟ كيف أحميكم مما يحدث؟.. لكني مثل العاجز المقيد أطرافه.. إنني آسف.. سامحيني.

أبعدت رأسها للوراء، أخذت تتطلع إلى ملامحه المكسوة برداء الهم، أمسكت وجهه بين يديها واقتربت من خلف ساتر الدموع لتهمس:

- حين تشعر بذلك فقط تعال وألقي بهمك ورأسك فوق صدري.

تركته يقبل يدها.. جبينها.. وجنتها.. شفاهها.. يضيع فيها ومعها عن كل سوء خارج هذه الجدران الأربع، تركته يرتاح برأسه فوق صدرها وذراعه يضم بطنها، ويقول في ختام تلك الليلة:

- أنتِ الجمال وسط هذا القبح.

~~~~

لم يكن عدائها الشديد واضحًا بالنسبة له، كانت تتعمد تجاهله، تمر من جواره دون أن يرف طرفها وكأنه غير مرئي بالمرة، في المقابل سرعان ما كانت تنخرط مع الجميع وتكون صداقات
~~~~

جديدة، تعلمت أصول المهنة وصارت تبلي أكثر من الجيد..

في نهاية يومها الأول حاول أن يلحق بخطواتها بينما يقول:

- أريد التحدث معك.. ممكن؟

لكنه لم يحصل إلا على نظرة صامتة دامت لثوان ثم اختفت مع صاحبتها، زادت من حيرته، في اليوم التالي وقف أمامها وحاول أن يفهم ماهية ما يحدث:

- هل أهلك بخير؟

لكنه لم يحصل حتى على نظرة الأمس، كل ما ناله هو عبور مدموغ بالتجاهل التام، في المساء

الثالث لهما تحت سقف هذا المكان الذي جمع أقدارهما معًا قرر أن يقطع طريقها بشيء من غضب كسى نبرته:

- هل لي أن أعرف سبب هذه المعاملة؟

لحظتها توقفت، كان بداخلها الكثير تريد قوله منذ أول لحظة رأته فيها، لكنها ولسبب ما اختصرت حنقها وغضبها بقول ونظرة إتهام:

- لأنك مخادع.. كاذب.. هل تكفيك هذه الإجابة؟

لم يقترب منها منذ حينها، صار التجاهل دربه هو الآخر، حين تتقاطع بهم الطرق يطرق ببصره وتتوقف خطواته حتى تعبر هي أولًا ثم يتحرك من

بعدها، لحظة ما يجتمعان بمحيط واحد يتسابق كلاهما على من يغادر قبل الآخر، كانت حربًا باردة تدار بين العيون، غير شريفة بالمرة بحكم ما وراء الضلوع، كانت الأجساد تتنافر وعلى عكسها الأرواح تتلاقى في نقطة ما، تأنس بوجود الآخر ولو في الخفاء.

في بداية أسبوعها الثاني كانت تهرول بالخطى، تأخرت ساعتين كاملتين، العمل والدراسة شيئان من الظلم أن يجتمعان، صارت مؤمنة بهذا، دبرت الكثير من الكلمات الصادق منها والكاذب حتى تكسب عفو المدير، تقول:

- توجد أزمة سير كبيرة.. أعتذر عن التأخير سيد سعيد.. لن تتكرر.

لكن سعيد يوبخ، يهدد بطرد ويخصم من الراتب، أحرجها بفظاظته تحت مرأى ومسمع من الجميع، كل العاملين خرجوا برؤوسهم ليشاهدوا حفلة التقريع التي كانت من نصيبها، لم يكن بينهم، لكنه كان يسمع من مكان ما، هذا مؤكد، دلفت إلى دورة المياه، تبدل قطعة وتقطع عبرة وجدت طريقها لتسقط، حين انتهت جلست فوق المرحاض وتركت جسدها يختض ببكاء، ضمت نفسها بكلا ذراعيها ومنحت حالها تلك المساحة لتهدأ، لأنه حين تخرج سترفع ذقنها ولن تسمح لأيٍ كان أن يطرفها بشفقة.

تتحرك بين الطاولات باعتتاد لا يقهر، تذهب وتعود بخطى رشيقة، ثابتة، تحي الزبائن

بابتسامة رغمًا عنها كانت فاترة، حين كانت تقف بالمطبخ تنتظر أن تجهز وجبة الزبون اقترب منها، اصطنع أنه يرتب شيء ما وأخذ يهمس دون النظر:

- الباب الصغير من خلفك يؤدي إلى باحة خلفية للمطعم.. أظنها تفي بالغرض.. الحمام ليس مكانًا جيدًا للبكاء.

ثم حدجها بنظرة تبدو طالت على قدر قصرها وابتعد.

في تلك الليلة كان هناك فتيلًا يشتعل بقلبها، ألم ببطنها غير مبرر، وسهاد طال حد التعب..

يومان آخران ولم تعد تملك سلطانًا على نفسها، وجدت حالها تسرق نظرة، حركة، وإرتباك واضح لرنين تصاعد عبر هاتفه النقال، امتدت بنظراتها حتى رأته يتجه إلى الباحة الخلفيه للمطعم، دار بصرها فيما حولها وجدت الجميع متشاغلًا، حملت إحدى أكياس القمامة وتصنعت أنها ذاهبة لتلقي به حيث مكانها الباحة الخلفية.

خطت بهدوء متعمد لتجده واقفًا على بعد خطوات موليًا ظهره، يد فوق الأذن وأخرى بمنتصف الخصر، يتكلم بلهجة حادة، غير مفسرة، تركت الكيس على مهل واقتربت خطوتين، تتيح لحالها السمع..

- هل أذاها إلياس؟.. أخبرني الصدق؟.. أقسم بربي إن لم يرتجع عن أفعال الخساسة هذه سأقتله حتى يلحق بأبيه، ولتكن الجريمة إثنين..

حفيف خطوات جعله ينفض الهاتف عن أذنه، يستدير بحدة ليجدها تحملق فيه بنظرات واسعة وأنفاس تعلو بصدرها وتهبط، تتلعثم بالكلمات وتصوبها إليه:

- يا إلهي!.. مفاجآتك لا تنتهي.. كم لديك من الأكاذيب بعد؟

- ماذا تفعلين هنا؟!

صاح بوجه مكفهر، لأول مرة تراه بكل هذا الغضب، وجدت حالها تتقهقر خطوتين إلى

الخلف بذعر حقيقي بينما تقول في تحد بنصف وعي:

- سوف أخبر الجميع الآن بكل كذباتك.. أقول لهم أنك مسلم، وأنك تتحدث سرًا مع أحدهم بينما تتوجه له باسمك، تتكلم عن جريمة قتل.. يا إلهي هل قلت قتل!

حين أنهت جملتها كان جسدها يرتطم بأقرب جدار من خلفها، يطبق بذراعه فوق صدرها، يكمم فمها بكفه و صوته الحاد يحذرها:

- أصمتي، لا أريد أن أسمع صوتك.

وبقيا على هذا الوضع للحظات، الأنفاس اللاهثة تتبادل بحرارة، النظرات المفجوعة تحمل

آلاف الاسئلة، حين وعى على حاله كيف يحاصرها ويقطع عنها النفس أخذ يرخي ضغط يده على مهل حتى حررها، ظنها ستهرب لكنها وقفت مكانها، لثوان غاصت لأبعد نقطة داخل عينيه وحين لم تجد هناك شيئًا يريحها.. قالت بنبرة مضطربة:

- حين قلت جريمة.. هل عنيت هذا بالشكل الفعلي؟!

أجاب سؤالها بآخر مشحون:

- لماذا تقحمين رأسك في أمور لا تخصك؟

ردت هروبه بمواجهة وحصار.. واقتراب:

- من تكون؟!

كانت نبرتها نصف إتهام، نصف بوح

وكان سيختار الإتهام..

لكن حين التقى بعينيها؛ اشتهى البوح:

- اسمي هاشم.

(8)

- اسمي هاشم..

لحظتها توقف كل شيء، حركة الجسد، ذرات الهواء، طنين الذباب، ضجيج العاملين، العين لا تطرف، الأنفاس بالكاد تلفظ..

حيث هو وهي يتقابلان فوق جسر الحقيقة المجردة..

تسربلت الكلمات على مهل، وعينه لا تفارق عينها، أخذ يبوح بما أثقل الروح والفؤاد، خلع عنه رداء الصديق و أحيا روح هاشم الشاردة بين الدروب دون مستقر، يحكي عن طمع العم ومقتله مبهم التفاصيل، يحكي كيف ترك كل

شيء خلفه وفر هاربًا تحت جنح الظلام بهوية الصديق متخليًا عن أصله وفصله، يحادثها عن ظلمٍ عانى منه منذ الصغر وبهتانٍ

قضى على مستقبله وما تبقى من العمر.

كانت الكلمات لجوجة، غير مرتبة، تشابكت خيوط البداية مع أذيال النهاية، لكن الصورة وضحت، بشكلٍ ما كانت ترى كلماته معكوسة داخل بريق عينيه المنطفىء.

- يا إلهي!..

كانت همستها المذهولة أول ما تحرر جوار نظرتها المحدقة باتساع، عقلها لا يستوعب كلماته،

كانت أطرافها الأربعة ترتجف، ولسانها الثقيل راسخ بحلقها،

بالكاد تمالكت حالها حتى هوت بمنتصف الدرجات الثلاث المرصوفين بطول الجدار في مقدمة الباحة، قبضتاها مكورتان معًا بين وركيها وبصرها ملقى بفجع نحو الفراغ..

- في النهاية علقت دمائه بيدي.

كان هذا ختام حديثه الفياض باليأس والقنوط وهو يهبط الدرجات ويجلس سابقًا إياها بواحدة، التقطت أصابعه عودًا خشبيًا ملقى فوق الأرضية الصلدة وأخذ يكسره لأجزاء صغيرة ثم أخرى متناهية الصغر، خيم الصمت للحظات لم يعرف مقدارها أيٌّ منهما، كان كلاهما غارقًا في

عالمه حتى قال بصوت هازىء لا يناسب ما يلفظ:

- نسيت أهم مقطع مثير في القصة.. آخر الشهر ستعقد جلسة النطق بالحكم.. سيكون المؤبد من نصيبي، هذا إن خدمني الحظ.

وأطلق ضحكة قصيرة، بلا روح، ثم ابتلع لعابه قبل ما يستطرد ويده تلقي مافيها من كسرات للعود:

- الوضع أصبح عبثي لدرجة تستدعي الضحك.

دارت برأسها تراقب جانب وجهه الجامد لثوانٍ قليلة غمغمت بعدها بشق الأنفس وعيناها تطرفان بشكل غير معهود:

- لا أستطيع التصديق.. كيف.. كيف..

وقبل أن تكمل حديثها المأخوذ من هول ما سمعت تصاعد رنين الهاتف بجيبه، أخرجه دون مبالاة هذه المرة، لم يكن مرتبكًا كما كان قبل قليل، فتح الخط وقال عقب صمت لم يطل:

- لا، لم يحدث شيء، سوء تغطية على ما أظن.. نعم أسمعك..

صمت للحظات كان يستمع فيها لمحدثه عبر الأثير، زفر ثم قال بوضوح تحت مسامعها:

- لم يعد هذا يشكل فارقًا إلياس، الهروب خارج البلاد سجنٌ آخر سيأخذ بي لنفس النهاية..

توقف عن تكرار الأمر رجاءً .. دعنا نتحدث لاحقًا.. أمي بأمانتك، إذا طرأ جديد اتصل بي.

أغلق الخط ثم بكفيه أخذ يمسح عن وجهه مارًا برأسه حتى عنقه من الخلف وبصره يعلو ويلتقي مع السماء المكشوفة من فوقه، أطلق تنهيدة كبيرة وارتخى جفنيه لبرهة، كان يرى خلالها ابن العم يقتحم بيته، يراها جالسه لا حول لها ولا قوة بينما يكيل لها أقذر الكلمات ثم يركل طاولة الطعام المستديرة في طريقه نحو الخارج فتسقط بصحبة المقاعد مصدرة ضجيجًا قراره ومستقره في قلب أمه عجوز..

كان هذا تلخيص كلمات إلياس، لم يشرح الوضع بوضوح لكن هو على يقين أن هذا ما

حدث تمامًا، ابن العم يثور ويسخط ولا يجد غيرها أقرب من لديه في العالم حتى يصب على رأسها غضبه، يعرف عادل من أي طينة خلق ولن يراعي حرمة بيت صاحبها غائب..

ضرب على فخذيه بكفيه بينما يقف دفعة واحدة، وقف بجانبه، لم ينظر إليها، كان ذراعه الأيسر يشير نحوها كموضع اتهام، يقول بنبرة حادة:

- لم يكن في نيتي إيذاء الشيخ رحيم.. أبدًا.. لم أتقصد الكذب أو الخداع، كنت مضطرًا لفعل ذلك..

عاد بيده إلى جانبه، تكورت قبضته بينما يردف بنبرة أهدأ، خرجت من عمق صدره:

- كانت مجرد محاولات يائسة للنجاة.

قال هذا وسار في طريقه، ظلت عيناها تتبع أثره حتى اختفى، أخذت شهيقًا طويلًا يعود بها للحياة ويهدأ من وجيب النبضات، كانت أنفاسها تلهث وتتعثر دون جهد.

بعد حين بالكاد لملمت شتات حالها ونهضت حيث بقي العمل، خلال الساعات المتبقية لم تفعل شيئًا غير مراقبته، بعدد الثوان كانت تطرفه بنظرة، وعلى عكسها كان يفعل، لم ينظر باتجاهها لمرة، فقط يتحرك بآلية ويتحدث للضرورة، ملامح وجهه متجهمة وإن بدا الأرق فيها شديد الوضوح.

حين انتهت ساعات العمل خرجت هي أولًا، ظلت واقفة بالجوار تضم بحواف معطفها عليها حماية من تيارات الهواء الباردة، حتى رأته يعبر البوابة فأخذت تسعل عدة مرات متتالية حتى تنبه لوقوفها رافعًا برأسه ناحيتها، ظل واقفًا في تردد للحظات حتى قرر في النهاية أن ينضم إليها، أخذ يسيران جنبًا إلى جنب دون حديث، دون نظر، الخطوات متباطئة في تناغم، كانت الكلمات متزاحمة برأسها، لم تجد طرفًا تبدأ منه الحديث لذا التجأت إلى أكثر نقطة تشغل بالها:

- يقترح صديقك أن تغادر البلاد؟

احتاج إلى لحظات حتى يهمهم بخفوت مقتضب:

- نعم.

دارت برأسها تتطلع إليه وتسأل في الحال بتقطيبة حاجبين:

- وهل ستفعل؟

وإجابته الجاهزة، قاطعة:

- لا.

عادت تستفهم بقنوط:

- ماذا ستفعل إذن؟

غمغم دون إكتراث:

- أفكر بتسليم نفسي للشرطة.

توقفت خطواتها بغتة، تصيح بانفعال من خلف ظهره:

- لا تفعل!

توقف واستدار إليها، ينظر لها بتعابير وجهه الجامدة ويداه داخل جيوب معطفه، يحرك كتفيه بلا مبالاة ويقول:

- إذن تبقى الاختيار الأخير؛ وهو الإنتظار حتى يجدوني بأنفسهم وحينها سأنال عقاب إضافي بسبب هروبي.

- لماذا تتكلم بهذه الطريقة؟!..

كان صياحها هذة المرة غاضبًا، حادًا، وتتابع بذات اللهجة:

- لست مجرمًا.. لم ترتكب أي جناية!

قاطعها بسؤال:

- هل يعني هذا أنك تصدقين ما أخبرتك به اليوم؟

هزات رأسها الصغيرة شاركتها الجواب الأكيد:

- لم أصدقك في شيء مثل اليوم.

- جيد.

همس بها قبل أن يدور مستأنفًا سيره، خطواتها تلحق به فاصلة عنه بمقدار خطوة واحدة، لم توازه، ظلت تتبعه وبصرها معلق فيه من الخلف، لم تكن تعلم بكونها قادرة على تغير رأيها في إنسان خلال فترة وجيزة، لكن ماحدث أن الصورة تبدلت تمامًا، وخلال وقت لا يذكر، لحظة ما باح لها بحقيقته مؤتمنًا إياها وحدها

على سره، حاجز ما كان يقف بينهما اختفى، كأنما طيلة الوقت المنصرم كانت في انتظار حدوث شيء كهذا..

وشعور آخر صار يكتسحها الآن، في هاته اللحظة، بأن تشاركه وحدته، ألمه النازف من بين عينيه وغربته، تتقاسم مخاوفه وتأخذ نصيبًا من همه فلا يمشي هكذا محني الهامة مثقل الروح..

لكن الوقت دائمًا عدو ما تريد، انتهى الطريق بهما أمام بناية مسكنها، تباطئت خطواته دون أن تتوقف، لا تدري ماذا أصابها وما عادت تجد كلمات تسعفها فيما تريد قوله، كل حروف الهجاء التي تعرفها لم تعد كافية..

كضوء نافذ حضر طيف أبيها بين جوانبها وعقلها، استحضرت كلماته التي زرعها بعقلها منذ الصغر وأجبرت متباطئ الخطى على التوقف والالتفات:

- هاشم..

خفقة قوية خالفت مسار نبضها بينما تلفظ اسمه لأول مرة، تستطرد بطيف ابتسامة اشتقتها لأجله :

- لا تحزن، الله حولنا وبداخلنا، يكفي أن تلجأ إليه بحاجتك حتى يضمك تحت رحمته.

حين قالت هذا تمنت لو أنها تعانقه، تضمه بشده و تربت عليه بدفء كلماتها..

هي و رجل وعناق!

بدا الأمر مثيرًا، دافئًا وحميميًا لأبعد حد.

~~~~

كان تيارها أقوى من سيطرته..

وحين سكن طيف ضحكتها خياله عرف أنه علق.

تذهب إلى الجامعة وتأتي ركضًا إلى العمل، كانت الأجواء تتبدل بحضورها الطاغي، شيء من البهجة ينبعث على الوجوه، بين الطاولات وفوق الوجبات.. العاملين، الزبائن، الجميع أصبح له معها وثيقة صداقة، كانت تبدأ بمصافحة وابتسامة عريضة وقول واحد مكرر:

- أنا صدف، من عزبة موسى.. تشرفنا.
~~~~

وحين تجد جهلًا من محدثها تزيد بإيضاح متفاخر:

-أوه! لدى عزبتنا قصة مثيرة، تبدأ بسيدنا موسى عليه السلام حين أراد الهرب بمن معه من فرعون و رجاله فانشق البحر بعصاه، كانت توجد سمكة مفلطحة وقتها، انشقت لنصفين ثم التصق كل نصف وعاش من جديد.. حين قرر اجداد اجدادي العيش فوق تلك العزبة كان سمك موسى يوجد بكثرة آنذاك فقرروا تسمية المكان نسبة لهذا كنوعٍ من التبرك.. أنا من هناك.. من عزبة موسى.

ولا تترك الزبون حتى تختم ثرثرتها:

- فكر بالزيارة.

كانت تقول هذا بطريقة لا تترك فيها مجالًا لمحدثها أن يفكر أن كان ما تقصه حقيقة أم أسطورة تتناقل عبر الألسنة من جيل إلى جيل، يكفي أن تتكلم هكذا بلهوجة وضحكتها تنير وجهها وعينيها حتى تسحبه من البعيد لأسطورة أخرى كانت هي بطلتها.

كانت تعاني ضعفًا شديدًا في اللغة الإنجليزية، هذا ما عرفه هاشم وسعيد المدير، عماد وخيرية وبقية العاملين إضافة إلى ناجح رجل الأمن ورامز صبي الحلاق والمعلم زاهر تاجر الخضروات والطرقات والأرصفة وأعمدة الإنارة وكل من له روح أو جماد لا روح فيه فوق سطح الأرض..

تشير إلى خيرية المرأة الأربعينية وأم

لثلاث أطفال وتقول بانجليزية..عرجاء:

- A beautiful woman.. have 3 childs.

ثم تدور بسبابتها نحو النافذة المفتوحة وتجرب

من جديد أن تصيغ جملة سليمة تحت مرأى

ومسمع كل العاملين:

- big window.. Color blue.

يتدخل عماد فارضًا آرائه بحشرية لا تطيقها:

-لا تقال هكذا.. بل A big blue window!

تمط شفتيها بعدم اقتناع وتميل برأسها إليه:

- إلياس، هل مايقوله صحيح؟

يشفق عليها، يسب عماد في خاطره ويقول مضطرًا:

- نعم، صحيح.

تعبس وتتنهد وتعود إلى عماد بوجه محبط:

- شكرًا على التصحيح عم عماد.

وعماد هذا لا يترك فرصة حتى يخلق برفقتها حديث، يكبر هاشم بسبع سنوات فقط، أي أنه مازال في متوسط الثلاثينات بعد ومع ذلك لا تتوجه إليه إلا بصفة العم التي تضيفها قبل اسمه فيردها بسخرية واضحة:

- لا شكر على واجب يا ابنة أخي.

تعلو الضحكات والثرثرة فيأتي المدير بوجه غاضب محذرًا الجميع:

- اعملوا في صمت.

تمضي إلى العمل ولسانها يتلعثم ببرطمة خفيضة:

- A bad sheep headed manager!

تداعب ثغره ابتسامة لطيفة، تنجح في إخراجها بشكلٍ ما، يضبطها ثم يميل إلى أذنها بجملته المكررة على مدار اليوم:

- افتحي فمك ودعي الحروف تخرج بطلاقة، لا تطبقي أسنانك.

تنظر إليه بجبين مقطب وتحاول أن تنهض بلسانها من جديد في جدية رهيبة:

- A bad donkey headed manager!

- كان يشبه الخروف منذ قليل؟

- رأيت الحمار يليق به أكثر.

- نهايتنا على يدك.

حين ينخرط معها في الحديث هكذا وتنفرج أساريره..

هي من يبتسم.

~~~~

تناول وجبة الغذاء معًا في الباحة الخلفية فوق الثلاث درجات أصبح عادة يومية، يتقاطع
~~~~

الساقين متربعين فوق الأرضية، متقابلان الوجوه، أفضل لحظات اليوم لكليهما، لم يكن هذا في حاجة لتصريح لأي منهما، يكفي أن يتواجدان معًا دون اتفاق مسبق..

يمضي الوقت وهي تثرثر، عن حال العزبة و عن الدراسة، أكثر الأفلام رواجًا وعن الطقس واحتمالات المطر، كانت تملأ الفراغ بحديثها الغير مرتب، كان النهار دافئًا بشمس خجول تطل من بين الغيوم حين سألته لحظتها:

- لماذا غادرت العزبة؟..

وبين نفسها أكملت: دون أن تخبر أحدًا!.. عبث بصحنه للحظات، شعر بثقل في البوح بالحقيقة الكاملة ولهذا قال مراوغًا ثم مغيرًا دفة الحوار:

- لم تعد مكانًا آمنًا لي منذ أن وطأتها أقدام الشرطة.. كيف حال طاهر، هل تصلك أخباره؟

- يعاني.. المعاناة صارت حال الجميع في العزبة.

قالت هذا بأسف وصمتت، غابت لحظات همست بعدها:

- كيف تقضي يوم العطلة؟

- في النوم غالبًا.

- ما رأيك لو ذهبنا إلى الكورنيش؟.. هل تأخذني إلى هناك؟.. أريد هذا بشدة لكن أخاف الذهاب وحدي، قد أضيع بين الزحام..

كانت كاذبة، هي تريد أن تشغل باله عن التفكير بأمر المحكمة التي ستفصل في قضيته الظالمة

نهاية الأسبوع القادم، تريد أن تخفف عنه وطأة هذا الشعور القاتل.

كان يعلم بنواياها ومع ذلك قال:

- دامك تريدين هذا بشدة، نذهب.

تشكره بألق كسى عينيها وتعود الى شطيرتها بنهم حتى بادرها بثرثرة:

- هل أعجبتك العاصمة؟

ارتخت ملامحها المنبسطة حد تقاربها من العبوس:

- ولا بمقدار واحد في المئة.

- حقًا! .. ظننها تعجبك.

تصدر (تأتأة) بفمها تعني الرفض ثم توضح:

- ولا شيء يعجبني.. مزدحمة بشكل مزعج.. الناس هنا لا يفعلون شيئا سوى النظر إلى هواتفهم المحمولة.. انعدام الأخلاق وصل الذروة.. لك أن تتخيل.. لا أظنك تستطيع تخيل هذا لكن منذ يومين أمام الجامعة رأيت بعيني ثلاث فتيات يركبن سيارة شاب بمفردهن.. سمعة الشاب ليست جيدة أستغفر الله.. الجميع يعرف هذا ومع ذلك ذهبن معه.

- ربما هم أصدقاء وسيقوم بإيصالهم لمكان ما!

حركت رأسها باعتراض شديد على سذاجة تفكيره:

- أنتَ لا تدرك حقيقة هذه الأمور.

هنا لا يبتسم فقط، بل يضحك ملء فيه ثم يغمغم:

- أنتِ مشكلة.

حين يضحك هكذا تشعر كأنما قامت بإنجاز عظيم، وفي مقابل نُبل النوايا كانت تذوب الأنثى فيها، يخفق قلبها بشدة حتى ينتهي فتقول بإعجاب وعينها تتبع ثغره بألق:

- ضحكتك جذابة جدًا.

يفرك جبهته في حياء وقبل أن يأتي برد ملائم كانت تردف باحباط داخلي:

- ومهذب أيضًا لدرجة تجعلك تخجل مثل الفتيات.

والضحكة تعلو بقدر المكاشفة:

- يا له من تشبيه.

رغم أنه قال هذا ضاحكًا إلا أنها سارعت لتنميق كلماتها:

- لم أقصد هذا، كنت أود قول أنك تربيت بشكل جيد وهذا شيء نادر.. وهو جيد بالطبع.. أظن أن أمك كرست حياتها حتى تكون بهذا الجمال.. الأخلاقي.

حين تتكلم هكذا بخوف ومراعاة خالطهما حب ولهفة، تخطف من قلبه دقات أخرى كان يظن أنها نفذت، ولأجلها يتمنى أشياء عديدة، ولأجلها

أيضا يسحبها من تلك الهالة الوردية ما أن تحلق بين تفاصيلها:

- معك حق في هذا، ربتني بشكل جيد، لدرجة تجعلني أتمنى لو أنها لم تفعل.

- كنت تضحك منذ لحظات، ماذا حدث حتى تعود لنغمة البؤس هذه؟

وكعادتها تسأل وتستطرد دون أن تمنحه فرصة:

- أعلم أنك تقلق بشأن جلسة المحكمة، لكن أنا أدعو لك مع كل فجر وقلبي يخبرني أن كابوسك هذا سيزول، ولو عرفت قلبي ستعرف أنه لا يكذب أبدًا.

رغم صغر سنها كانت حروفها مع عينيها تفيض بأمومية عجيبة، كلماتها الغير مفلتره تخرج ببساطة وتربت على قلبه، كانت تفعل هذا دون أن تدري أنها تفعل، ولحظتها..

لحظتها يتعثر القلب ويتنهد صاحبه ويقول:

- من الجيد أنك هنا صدف.

وسيظل يذكر التاريخ أن لحظة ما همس باسمها لأول مرة تضرج وجهها بحمرة خجل.. وللعجب صمتت.

لاحقًا، بينما كانت تتبادل الحديث مع عماد لمح ببعض الكلمات كون العزبة التي تتفاخر بها مجرد خرابة تضم مجموعة من البلطجية بين

جدرانها، وأنه كشخص عاقل، ناضج ارتأى أن القبول بما تعرضه الدولة من بديل والخروج من ذلك القمم هو الحل المثالي، أخبرته في لحظتها أن البديل هذا لا يذكر، مجرد مبلغ بسيط من المال لا يكفي الفرد الواحد حتى يقف على قدميه أو سكن نائي لا تصله خدمات، إما هذا أو ذاك وكلاهما تعويض غير مستحق، وخرابة نعرفها أفضل من أخرى نجهلها، قالت هذا فضحك بسخرية وغير تصديق متهما إياها بعدم الفهم، لحظتها احتد صوتها ومع ذلك لم يتراجع بل زاد في الحديث حتى يقوم من فكر الصغيرة المقوض:

- تطوير تلك المناطق قرار صائب، تركها هكذا يسيء إلى واجهة البلاد كلها، غوغاء وعشوائية،

حال متدني على كافة الاصعدة حتى أخلاق ساكنيها، أنا أعرف تلك المناطق، وليس العزبة وحدها يسكنها ذلك النوع من البشر، الجهل غيب عقولهم..

وبإبتسامة سمجة يجمل كلماته:

- بالطبع أنا لا أقصدك، أنتِ مختلفة عزيزتي.

رمت مابيدها فوق الطاولة وتحركت إليه بتعابير متوعدة، تنظر له بتحد وتغمغم بحدة:

- من قال لك؟ هاه.. من أين أتيت بكلامك السخيف هذا، من أين تعرف العزبة حتى تتهم أهلها بالبلطجة والجهل يا سيد الحضارة والرقي..

بالطبع هذا ما يصدره لكم الإعلام القذر والحمقى أمثالك فقط من يصدقون.

دار محدثًا من حوله مدافعًا عن نفسه، نافيًا ماتحاول إلصاق فيه من تهم، رامقًا إياها باحتقار مغتاظ:

- هل رأيتم كيف تتحدث؟.. هذا ما أقصده تمامًا.

وبعد هذه الجملة تشابكت وإياه بالكلمات حد التناطح، وعلى إثر هذه الجلبه جاء هاشم ركضًا إلى المطبخ، يقترب من الجمع مدهوشًا، يراها في المنتصف، كانت تحاول الوصول إلى عماد كي تضربه حسب ماهو واضح، بينما يكيل لها الآخر من الكلمات متقصدا بذلك إثارة غضبها أكثر، إذ

أنه رأى ضرب فتاة أمام الجميع فعل غير رجولي بالمرة، لذا اختار سكة أخرى يرد إهانتها وتطاولها عليه:

- فتاة عديمة التربية والإحترام، لو البقية على شاكلتك فأنتم تستحقون الإبادة لا الإزالة.

كان يحاول هاشم إبعاده، حين قال هذا دفعه بقرف وحاول الوصول إليها بين أيدي العاملين الذين يمنعون تقدمها، سحبها من ذراعها قسرًا هاتفًا باسمها، لم تسمعه من الأساس إذ كانت تصرخ بصوت جهوري وعروق جبهتها تنفر بغضب كاسح:

- هل تعلم، أنا أشفق على أمثالك، من يعيشون بغرائز حيوانية.. إنني أقرف من النظر إلى وجهك بكل صراحة.

دفعها قسرًا إلى الباحة الخلفية وأغلق الباب من خلفهم بقوة حتى لا تصلها بقية كلمات عماد المغتاظة، من حسن الحظ أن المدير غير موجود وإلا كانت مصيرها الطرد لا محالة.

حين نظر إليها كانت مهتاجه، تدور في الفراغ المظلم حول نفسها وأنفاسها تهيج بلهاث مسموع، وحين اقترب باغتته بصياح مازال يبعث الشرر:

- أرأيت ماذا قال؟.. قال عنا بلطجية وحثالة، هل تصدق هذا.. هل سمعت..

- اهدأي، لا تهتمي بكلامه مجرد حقير لا يفقه شيئًا.

- هنا تكمن المشكلة، أنهم لايفقهون شيئًا، من بين عشرة أشخاص تجد ثلاثة منهم مكتفين بالصورة المصدره إلى شاشات التلفاز والحواسيب، لا أحد يبحث عن الوجه الآخر للحقيقة، وعن البقية فهم يجهلون وجودك من الأساس، لا أحد يشعر بمعاناتنا، لا أحد يهتم لأمرنا..

- صدف..

- لم يجرب أحدًا من هؤلاء المتناظرين أن يمرض ابنه فلا يجد سبيلا للوصول إلى مشفى يسعفه.. لم يروا جثث عشرة أطفال ماتوا غرقا دفعة

واحدة بينما يعبرون النهر حتى يصلون مدرستهم.. فقر ومرض وجهل، نحن من نعيش بقلب هذه المأساة.. نحن فقط.

كان صدرها يعلو ويهبط، تتكلم بعنف، بغضب، بقهر، وبمقلتيها علق دمعتان ظل يتأرجح فيهما ضياء القمر حتى انتهت ودارت على عقبيها، راحت تجلس فوق الدرج، ظلت تتطلع إلى الأمام في وجوم كئيب حتى وصلها صوته القريب وهو يقرفص في جلسته حتى يقابلها:

- الحياة قاسية صدف، الجميع يعاني.. في كل مكان توجد معاناة بشكل مختلف، لا يمكننا أن نلوم بعضنا ونحن جميعًا عالقين بمركب واحد.

دارت إليه بوجهها، تقابله، وتغمغم بصوت مبحبوح:

- ليس مثلنا.. الجمع يعاني نقصًا في الحقوق إنما نحن نعاني من أساسيات توفر لنا حياة أكثر آدمية، نحن المنسيين تحت خط الفقر كان لنا النصيب الأكبر من المعاناة وانعدام الحقوق لا نقصها.

- ليس ذنب الناس..

- ربما، لكن شيء مؤسف أن تعاني وحيدًا وسط هذا الزحام.. أن نكون كما قلت بمركب واحد لكن لا أحد يفهمك، لا أحد يشعر بك.

- أنا أفهمك.. وأشعر بك.

حين قال هذا تهدج صوتها، أمعنت في عيناه النظر وقالت:

- إذن من الجيد أنك هنا.

~~~~

أخذت أفكارها هذا المنحنى منذ أن رأت بعينها كيف يصور الإعلام صورة مغايرة للحقيقة في هوامش الأخبار، بكونهم يكرهون الأفضل، يرفضون الارتقاء ويرتضون القاع، وكأن سوء البلاد تجمع في بقعتهم وتمركز، شاهدت هذا مرة في حاسوب هاجر ولم تعيدها، حين سحب عماد فتيلها لم تستطع غير أن تشتعل، يؤلمها أن تشعر بكل هذا العجز والقهر الذي يطال أهلها وأحبتها
~~~~

ويأتي غريبا يسخر بهذه الصورة المهينة ويحملهم عبء اللوم فوق أحمالهم..

قبل أن ترحل ليلتها اعتذر لها عماد، كانت تعلم أنه مافعل هذا إلا ليكسب احترام من حوله حين تدخل الجمع في محاولة للصلح بينهما، قبلت بهذا على مضض، لكن في خاطرها كانت ساخطة، كارهة لعماد وأمثاله..

وحده كان الشيء الجيد في هذا العالم الكريه، هو من أصر أن يصحبها نهار العطلة إلى الكورنيش كما أرادت مشيرًا بمزاح أنها من تحتاج هذا المشوار ليخفف عنها لا هو.

أخذ يسيران على طول الرصيف، تمرر أناملها فوق حافة السور الحديدي وبصرها يلتقي مع

المياه الساكنة، لم تكن بمزاج رائق في البداية لكن رغمًا عنها حين أبدى اهتمامًا كبيرًا لأجلها انزاح العكر وحل محله سحابة وردية تظللهما معا كحلوى القطن التي اشتراها لها، بعد حين هي من طلبت مثلجات الفانيليا وراحت تحدثه كيف أنها أكثر لذاذة وسط هذا الجو شديد البرودة..

تطمئن بوجوده حولها، وفي المقابل كانت تخاف من تلك الأشياء التي تتضخم فيها، ليس يوما بعد يوم، بل ساعة وراء ساعة، دقيقة بعد أخرى بصحبته كانت تزداد يقينًا بكونها تحمل الكثير من المشاعر الحلوة وتمنحها كلها لهذا الذي يجاورها، كانت تأخذها أحلام اليقظة كل ليلة

قبل المنام لعالم آخر، إذ ترى حالها تأخذ بيده ويبتعدان عن هذا الزحام كله، هي وهو فقط بمكان نائي عن البشر، كوخ صغير ربما يحيطه الخضار من كل جانب، ترعى الماعز أمام بابه وهما بالداخل

يتبادلان الحب وقبلات الشفاه الحارة..

كانت واعية بكونها تسبح في دنيا الخيال، لكنه خيال يسعدها ويجعل قلبها يدق بعنف محبب.

- أريد أن أتكلم معك في أمر ما..

حين قال هذا كانا يجلسان فوق مقعد عريض مقابل النهر، منذ ليلة البارحة وهو غارقا في دوامة من الندم، كيف سمح لها ولنفسه بهذا

التقارب الشديد، وكأن كلًا منهما راح يتناسى في الآخر غربته واحتياجه. هناك شيء عجيب ينمو بينهما ويتوهج بشكل صاروخي حد أنها عبثت بمشاعر الرجل فيه وصارت من ضحكة توقد غرائزه الخامدة.

كان واعيًا تمامًا لحالتها التائهة فيه، من نظرتها وحديثها، كان عليه أن يوقف كل هذا بدلا من الضياع معها في درب المستحيل، ولأجل هذا أراد أن يتحدث معها، للمرة الأخيرة ربما..

- في الحقيقة هما أمرين ليس واحدًا.

واربت جسدها، تمنحه جل تركيزها، وفي داخلها كانت تتمنى أن تكون هذه جلسة تصريح بما

يفيض بين الأعين وماعادت تستره الجوارح..

قالت بابتسامة لطيفة و وجه متورد:

- ماذا هناك؟

وحتى ينهي ما بدأ لم يبادلها النظر، ظل على وضعه مواجها للنهر، يقول:

- العاصمة تختلف عن العزبة، لا تثقي بالغرباء، لا تمنحي ثقتك إلا لمن يستحق، قد يفهمك البعض بشكل خاطىء ويسيء إليكِ.. وما حدث بالأمس مع عماد من الأفضل الا يتكرر.. سُباب وتراشق الكلمات مع رجل!.. هذه الأمور لا تليق بكِ.

تركت خصلاتها حرة تحيط بوجهها وارتدت ثوبها الجديد، أرادت أن ترى جمالها في عينه. لكن على مايبدو أنها أخطأت في تقدير بعض الأمور..

زاحت خصلاتها خلف أذنها وهي تغمغم في حرج ودفاع:

- هو من تقصد إغاظتي، أنتَ رأيت وسمعت.. هل.. هل أغضبك هذا مني؟

زفر قبل ما يدور إليها بوجهه:

- أنا أخشى تهورك صدف، ماذا لو ضربك عماد أو غيره؟

- كنت ستضربه!

- ماذا لو كنت غير موجود، ماذا ستفعلين حينها؟!

- بالطبع لم أكن لأشتبك معه، لست حمقاء.. أنا فقط.. كنت مطمئنة بوجودك.

نهض من جلوسه بحدة متمتمًا بأنفاس تضيق:

- أنتِ تصعبين الأمر كثيرًا.

- أي أمر؟

عاد يواجهها من وقفته بجديه، كانت الصراحة والوضوح أقصر طريق يصل بهما لمركز العقل، فالغياب بين حجرات القلب لن يعود عليهما إلا بالشقاء.. كان مؤمن بهذا، و لحظتها كان شجاعًا كفاية ليقول:

- ما يحدث بيننا.. هذا الانجذاب الذي يحدث.. يجب أن نمنعه.. بل نبتره أن لزم الأمر.

دارت خيبتها بين الضلوع ولسانها يتحرك بمشقة:

- ماذا يعني هذا؟

- يعني لن أسمح لك بالتورط أكثر مع شخص لا يملك أي أمل في المستقبل، سيحكم عليه بالموت خلال أيام.. اليوم أنا هنا، في الغد الله وحده من يعلم..

انتفضت من جلوسها تقابله، تقطع استرسال كلماته القاسية، ظلت تنظر له عن قرب بعيون خائبة، احتاجت لحظات حتى تقول بصوت بهتت فيه روح الحياة:

- أنتَ بائس مثل هذا النهر الراكد تمامًا.

حاول استجماع كلمات كان قد حضرها سلفًا لكن جاء رنين الهاتف ليبعثرها، رمق الشاشة ثم عجل بالرد:

- أين أنت، لماذا لا تجيب على الهاتف؟

لحظات وكان وجهه يكفهر وحركته ترتبك، يقول بانفعال ورعب كبير كسى حروفه:

- ماذا أصابها تكلم؟.. لأجل هذا لا تجيب على اتصالاتي؟.. يا إلهي!..هي قالت ذلك؟..

لا تدري ما الذي حدث بعد هذا الهاتف، يهرول بالخطى، يوقف عربة أجرة و تتبعه دون أن تعلم شيئا، تراقب جموده المخيف على طول الطريق،

حين توقفت العربة اندفع خارجها، حاولت أن تلاحق خطواته الواسعة، تسأله عن ماهية ما يحدث، لحظتها لم تجد غير صراخ دون النظر جوابًا:

- عودي إلى البيت حالًا.

دخل البناية التي يسكنها، ظلت واقفه أمامها وقلبها ينقبض أكثر وأكثر حتى رأته يخرج، يرمقها بنظرة خاطفة ويتجاوزها، ركضت خلفه، عرقلت تقدمه بوقوف مباغت، تصيح بهلع:

- إلى أين؟

توقف يلهث، ينظر لها ويقول بجزع:

- أمي مريضة جدًا.. طلبت رؤيتي.. أنا ذاهب إليها.

صار الجزع من نصيبها:

- هل أنتَ واعٍ لما تقول؟. سيقبضون عليك لو ذهبت إلى هناك.. لن يتركك ابن عمك.. ومحاكمتك بعد أيام.. يا إلهي؛ أنتَ ذاهب للموت!

غمغم بخفوت وحروفه تغالب الغصة:

- هذا هو تمامًا ما كنت أحاول ايصاله لك قبل قليل.

ارتجفت شفتها السفلى وهي تتشبث

بكلا كفيها في ساعده، يتحشرج صوتها ببداية بكاء وبعينيها كان يفيض الكثير من الرجاء:

- لا تذهب.

- قد تكون هذه فرصتي حتى أراها لمرة أخيرة..

العمر لا يتسع للندم صدف.

قال هذا وهو يخلص ساعده من بين أصابعها على مهل، ظلت مكانها بدمع عالق وقلب خاو ترمق خياله الراحل حتى غاب.

~~~~

يستقل قطار العودة، حيث يتغلغل فيه الندم من كل جانب، يشعر كمن ركض أميالا وأميال لمدة من الزمن وحين انتهى وجد كل ما قطعه من مسافة كان مجرد سراب!..
~~~~

الطريق الذي سلكه لم يكن يلائمه من البداية، أسقط هويته ونفسه فوق الطرقات وعاد خاو الوفاض..

حين يصلها ويطمئن عليها وإن كان في العمر بقية سيذهب إلى مركز الشرطة ويقوم بتسليم نفسه، لن يختار الهرب بعد الآن، إذا كان هناك ما يجب أن يحدث، فليحدث دون إنتظار أو خوف ينهش من عمره ويقتله مع طلعة كل شمس.

كانت لوثة من الأفكار تموج برأسه منذ أن هاتفه إلياس يوصل له رسالة أمه الراقدة فوق فراش الموت تطلب فيها رؤيته، كان يرتكز برأسه فوق نافذة القطار هائما في دنياه الغابرة حين شعر بثقل أحدهم يرتمي فوق المقعد المقابل، التفت

برأسه فوجدها تقابله بذات الطلة كما تركها قبل حين، لم تمنحه الوقت ليندهش، كانت تنظر له وتتمتم بصوت مرتجف:

- المسافة من هنا إلى بلدتك تبعد ساعة ونصف بالقطار.. لا أظن هذا بالشيء البليغ.. نذهب ونعود معا..

قاطعها بجذع يميل نحوها وعيون استوحشت نظرتها:

- انزلي!

كانت ترتجف خوفًا، جسدها وصوتها وحتى طرفة عينها ومع ذلك تابعت فيما انتوت:

- لقد قلت قبل قليل؛ لا يتسع العمر للندم.. لو ذهبت مع هذا القطار سأظل نادمة بقية العمر لأني لم ألحق بك.

تقطعت أنفاسها، أخذت شهيقًا كبيرًا تابعت بعده:

- أعدك ستكون هذه آخر مرة أقوم فيها بفعل متهور كهذا.

لم يشعر إلا وصوته يعلو بصياح:

- قلت انزلي حالا.. سيتحرك القطار!

لكن القطار تحرك بالفعل، ومعه كانت تميل بجذعها، تبادله النفس و تلقنه درسها دون رجوع:

- أنا لا أتخلى عن أحبائي هاشم.

(9)

- أنا لا أتخلى عن أحبائي هاشم.

كانت مدركة تمامًا كونها تفتعل أكبر حماقة في تاريخها، أن تصاحب رجلًا إلى المجهول وتشير في التواء على أنه ضمن قائمة أحبائها، كان ذلك تهورًا كبيرًا و غير عقلاني بالمرة. عقلها ينتفض حاسبًا المسافة، كم ستبعد بغبائها؟ أطرافها تزداد برودة ولا تفلح في تدفئتها، أنفاسها حارة، مضطربة، لسانها بات مثقل حد التصاقه بحلقها..

وحده قلبها من كان يقف ندًا لباقي الجسد، يقدم دلائله ويفند براهينه تحت شريعة العشق..

كانت يقينه إذا حمله هذا القطار ورحل ستظل نادمة بقية عمرها، أن يغدو مجرد ذكرى تنهشها مخالب النسيان كل ليلة أو أن تتذكره وأنفاسها تخالط أنفاس رجل آخر، أن تغص بقلبها حين يذكر اسمه بينما تعبر شارع أو تشاهد تلفاز، أن يبقى محفورًا داخل روحها ولا يمحى..

كان ذلك قاسيًا كفاية حتى تفزع الأنثى فيها وتركض فوق الأرصفة لاحقة بفرصتها الأخيرة..

وأن تقول "أحبك" دون أن تقول.

حين تحرك القطار لم يكن هناك غير الصمت ضيفًا ثقيلًا، يتبادلان النظر دون حديث، في الحقيقة لم يكن هناك ما يجب أن يقال، في تلك اللحظات نترك القدر يأخذ بناصية الأمور.

تشبثها أم انسحابه.. من كان الأصدق؟

أملها أم يأسه.. أيهما يربح؟

عيناه مليئة باللوم، الامتنان، الحب والغضب، كانوا جميعًا يمتزجون معًا ليكون شعوره الحالي وهو يبادلها النظر، تصارع الأفكار بعقله أجبره أن ينحي الكل جانبًا ويتبع قدره في صمت، أن تكون هذه محطته الأخيرة، كمن يسحب بساط الحياة من أسفل قدميه ببطء، بشكل ما بدت الدنيا باهتة، بلا روح تغويه ليبقى أو يسعى لأجل البقاء، سيتذكر في السنوات المقبلة إذا ما اختار القدر أن يبقيه حيًا، أنه لم يكن قانطًا و يائسًا لدرجة تثير الشفقة مثل هاته اللحظة.

كان الليل قد أسدل أستاره حين توقف القطار، هبط هو أولًا، أخذ رأسها يلتف يمينًا وشمالًا، تتطلع إلى الأماكن والوجوه الغريبة في قلق، تتنبه أنه ابتعد بمقدار فتقفز في خطوة رشيقة توازي بها اتساع خطوته، لحظة ما غادرا المحطة المكتظة بالبشر لفظت حروفها الشبه مغتاظة، الشبه مرتجفة:

- هل ستبقى صامتًا؟

لم تجد جوابًا يهدأ من وجيب النبضات، أردفت:

- صمتك يخيفني..

- تأخر شعورك هذا.

قال وخطوته تتسع دون النظر.

على بعد أمتار من بيته توقفت عربة الأجرة، أخذ يتطلع إلى البناية القديمة من البعيد في وجوم مطبق حتى تنبه على أناملها تلامس ساعده، تجبره على التفات ليصله همسها المتوتر:

- هل أسبقك؟

ابتلع لعابه بعسر، دار بصره من حوله في نظرات خاطفة ليرد همسها ويده تسحب كفها البارد، يسكنه داخل قبضته ويعبر الطريق:

- بل اتبعيني.

يطرق بيده الحرة باب بيته لأول مرة منذ أشهر، والقبضة الأولى على كفها وقلبها تشد، لم يحتج غير أن ينقر مرتين ببنان أصابعه حتى يلاقيه

وجه الصديق العابس، يلومه على تصرفه الأهوج:

- عرفت من صوتك أنك لن تتراجع..

والبقية لم تصله تمامًا إذ كان قد تجاوزه دون رد يعرف إلى أين تأخذه قدماه وتتمة الكلمات بقيت تدوي لها وحدها في وقفتها داخل إطار الباب وصاحبه يلاحقه بيأس حانق:

- كيف تخاطر بحياتك بعد كل هذا هاشم؟!

لم يكن الوقت مناسبًا بل مشحونًا لدرجة لم ينتبه لوجودها أحد، في الواقع لم يكن هناك أحد، غاب هاشم في الداخل من ثم تبعه صديقه، بقيت وحدها مع الفراغ، أخذت تتحرك

بين الأثاث برهبة، صالون عتيق تغطى مقاعده بقطع من القماش الأبيض المنقوش، مائدة مستديرة تأخذ وضعًا جانبيًا بكراسيها الأربع، طاولة أخرى تحمل تلفازًا من النوع الكلاسيكي القديم تجاوره مزهرية بورود بلاستيكية وأبسطة بهتت ألوانها بفعل السنين، كل شيء من حولها كان يتسم بالبساطة الشديدة، بساطة وعبق ذكرها ببيتها، الشيخ رحيم ودليلة قلبه.

بخطى متعثرة ورؤيا مشوشة أخذت تتبع الهسيس الصادر في تؤدة، من فرجة الباب طلت برأسها، قابل بصرها خيال الصديق يقف مطرق الرأس وكفاه يحطان فوق كتفي امرأة عجوز

بشعر رمادي قصير للغاية تجلس على مقعد جانبي تمسح طفر دمعها بالابهام بينما هو..

هو كان هناك جاثيًا فوق ركبتيه جوار امرأة أخرى طريحة للفراش، يدفن وجهه بصدرها ولا يُرى غير اهتزاز جسديهما معًا وانتحاب المرأة المخلوط بنشيج متقطع يعلو بغير تصديق:

- هاشم.. ولدي..

أخذت تكررها مرارًا وهو يزيد من دفن حاله فيها، حين ابتعد استطاعت أن ترى آثار البكاء ترسم ملامحه وتحفر تقاطيعها، كف أمه المرتجف العالق بالقُنيّة الطبية يرتفع ليتحسس شعره.. عينيه.. وجنتيه وذقنه، شفاها ترجف

كمن يريد الحديث ولا يستطيع، أخذ بكفها الآخر بين يديه، يقبله على مهل ويهمس لها وحدها:

- هل تتألمين بشدة؟

غمغمت بوهن وكفها يضم جانب وجهه:

- العلة في القلب يا هاشم، ليته يفنى ليرتاح.

رأسه يلتف ليلثم باطن كفها المحيط ثم يغمغم بهمس المتعب:

- أنتِ بخير..

ويعود ينظر لها مردفًا بحشرجة خالطها العتاب:

- يجب أن تكوني بخير، من لي غيرك يا أم هاشم؟

- لك الله يا ولدي، القادر على رد كيد الظالمين، من أورثوك الظلم والقهر.. لا سامحهم الله، لا سامحهم.

ظلت تراقب المشهد من البعيد ودموعها تتساقط دون إرادة منها، بقلبها تؤمن على دعاء المرأة المكلومة في ولدها، تبتهل وتتوسل أن تمر الأمور بسلام، أن تنتهي به الليلة مطمئنًا على أمه التي يضم جسدها العليل عددًا لا بأس به من الأمراض، كلما نظرت إليها تثير الكثير من الشفقة بداخلها، أن تكون أمًا لشابٍ مثل هاشم وتهدد بفقدانه مؤكد هذا أمر فظيع وأكثر مرارة من احتماله، كون المرأة مازالت تتنفس الحياة حتى اللحظة يعد هذا أمرًا قدريًا لا شك فيه،

ليت القدر يكون معهم رحيم هذه الليلة، أن تنصفهما الحياة ولو لمرة، أن يمسك بكفها كما فعل قبل قليل ويغادران هذا العالم الآثم، بدت فكرة ترك الوطن التي طرحها الصديق وأنكرتها من قبل أكثر تقبلًا في ظل هذا الظلم الذي تبتدعه أيدي من هم أكثر سلطة ومال..

أن لا تشهد امرأة كحليمة مصير ولدها وتراه يشنق ظلمًا أو يتعفن جسده ويشيخ خلف القضبان، ولأجل ماذا؟ ماذا فعل حتى يلقى عقابًا جائرًا كهذا؟!..

ما بال الظلم والقهر لا يطرق إلا أبواب البسطاء؟! لو أن الظالم لم يجرْ على حقه منذ

البدء لما حدث كل هذا، لما كان الآن متهمًا ضلالة وإفتراء..

كانت أفكارها تتصارع، لكن مالبثت حتى انقطع كل هذا عنوة!

انتفضوا جميعًا على القرع الصاخب، هرع إلياس إلى الباب مسرعًا، ضوضاء، أصوات كثيرة من الخارج تتداخل، عدد من رجال الشرطة يندفعون إلى الداخل، يحتلون الردهة الصغيرة وضابط شاب يسأل عنه بالاسم، تعود الضوضاء تسيطر على المشهد، لكن هذه المرة بختام..

بنهاية قرر أن يكتبها هو بصحبة القدر، يتقدم إلى خارج الغرفة، تصرخ دون صوت، يتقدم

خطوة، تهفو إليه بروحها رغم ثبات الجسد، يخيل لها أن روحها تلتف من حوله، تعانقه بوداع وهو يخطو الثانية، تتوسله لأجل البقاء لكنه يقف ويختار أن يمنح الضابط الشاب ما يريد:

- نعم سيدي.. هاشم محمود علام يقف أمامك.

~~~~

- أنا بخير، شكرًا لك.

كان هذا جوابها المتردد فجر اليوم التالي على سؤال مباغت طرحته السيدة ذات الشعر الرمادي القصير، لا تدري هل غفت في جلوسها أم شردت لدرجة انفصلت فيها عن هذا العالم
~~~~

كله حتى أفاقت على صوتها تسألها إن كانت تحتاج لأي شيء؟

بقاؤها متجمدة فوق هذا المقعد منذ الأمس مؤكد لا يروق للسيدة ولأجل هذا هي تطالعها بتلك النظرات المستهجنة من ثم ترحل عنها دون أن تطيل في الكلام. دلكت وشدت من عنقها المتألم بشدة لتستشعر آلام عينيها الحارقة، منذ أن شيعها بنظرة صامتة وخطواته ترحل برفقة رجال الشرطة ودمعها مايلبث أن يجف حتى يعود، انتهى كل شيء برحيله وعم الصمت، لم يبق غير عويل أمه لتضمه هذه الجدران، ظلت تولول وتنوح حتى جاء الطبيب وغرز في وريدها مهدأ لتغرق بعدها في غياب قسري، من ثم جاء

بعض النسوة من الجيران يسألن عن حالها في مصابها الكبير، استقبلتهم أم إلياس لوقت قصير، حدقن فيها خلاله عشرات المرات وبالطبع لم يكن ليفوتن فرصة السؤال عن هويتها ومن تكون؟ لحظتها حدقت فيها السيدة مريم للحظات ثم عادت لهن بجواب مختصر بكونها قريبة أم هاشم.. عقب رحيلهن اقتربت منها تفحص هيئتها وتعيد سؤال النسوة، بالكاد سيطرت على حالها وهي تخبرها في تلعثم:

- أنا.. أنا صدف.. زميلة هاشم بالعمل.

- هل كنتما تعملان معًا بالعاصمة؟

- نعم.

- إذن أنتما صديقان وجئتما معًا؟

- أجل، وهذا ما حدث..

وأردفت بسؤال:

- هل لي أن أسأل عن مصيره الآن؟

قالت هذا بجزعٍ لكن المرأة تجعد وجهها بتقاطيع اليأس واكتفت قبل تركها بهز كتفيها في جهل دون تعليق..

تذكرت كل أحاديث هاشم عن الرابط القوي الذي يجمع بينهما، لم تكن بحاجة أن يعلمها أحد أن الذي لحق به ولم يعد حتى اللحظة هو إلياس، الصديق الذي انتحل اسمه وشخصه وتاريخ عائلته لكي ينقذ حاله، وأن هذه التي تهتم

بشأن أمه ولا تفارقها هي السيدة مريم، الجارة الوفية لسنوات العشرة الطويلة.

نهضت صدف عن جلوسها، دارت حول نفسها لثوان مالبثت حتى توقفت، لا تدري ماذا تفعل، ماذا عساها تفعل حتى ينتهي هذا الكابوس، الأخبار مقطوعة منذ ساعات، ولا تدري لماذا لا يأتي أحد ويخبرهم بما آلت إليه الأمور؟

صراع مؤلم يقتسمها..

هل تذهب أم تبقى؟

ماذا تنتظر؟

إلى متى ستتحمل كل هذا!

هي نفسها لا تعلم.

مرت من أمامها السيدة مريم من جديد، لكن هذه المرة دون سؤال، دون النظر، فقط غابت داخل المطبخ مع خلفية لطرطقة الأطباق، عندئذ تقدمت خطوتين تقترب من باب الغرفة الموارب، دفعته برفق وفي شجاعة خطت إلى الداخل، تطلعت إليها وهي بنصف رقود تنظر إلى العالم بعيون فارغة، كئيبة، عيون خالطها الحزن والعبرات الجارية دون توقف، جاورتها فوق حافة الفراش، وارتبت جلوسها حتى لا تقابلها، لن تستطيع أن تنظر إلى عينيها وتتكلم معًا، أخذت تلضم كلماتها كصديق ودود، تنتشلها من بؤرة الألم بصوت مبحوح:

- لا أجيد كلمات الرثاء لكن..

وتوقفت لحظة تستجمع حروفها المبعثرة، تبتلع لعابها وتعود تهمس برأس مطرق:

- لكن عليكِ التماسك أكثر، لأنه سيعود إليكِ.. يجب أن يجدك في انتظاره حين يفعل..

لم تجد غير صفير الفراغ يرد حروفها، تخيلت أن هناك خواء مضاعف يطفح من بين عيون المرأة، كل قصائد الرثاء لن تضمد جراح هذه الأم، فالجرح غائر ومحاولة تضميده تؤلم، فكرة الاستشفاء ليست مبهرة أمام الوجع المستوطن بين ثنايا الفؤاد في هاته اللحظة، لكنها تحاول، لأجله تفعل، جاهدت كي تهرب من غصة حلقها بينما تتحدث من جديد:

- آسفه لكوني أبقى في بيتك منذ الأمس دون إذن منكِ.

نجحت في إخراج المرأة عن صمتها بل وتنال فوق الكتف ربتة، شعرتها حانية:

- أخبرتني مريم أنك جئتِ مع هاشم وضيوف هاشم لهم الدار ولنا العتب.

وطفحت عينا المرأة بدمع كثيف بينما تديرها ناحيتها، تتحس بأناملها وجه الصبية التي جاءت برفقة ولدها وتغمغم بنبرة أعياها الألم، صبغها الكثير من الشجن والحنين:

- كان كلما ألحيت في أمر زواجه يخبرني أنه حين يجد العروس المناسبة سيأتيني بها.. لكن أين راح

ولدي؟.. أخذوه مني.. ضاع أمام عيني ومازال الموت يعاندني.

رفعت صدف وجهها المطرق، تقابلها، تنظر لعمق عينيها الغائرة، تلملم طفح الألم وتغمغم بشبح إبتسامة عنوانها الأمل:

- أتذكر قبل سنوات حين كان أخي بعمر الرابعة، كان برفقة والدي و ضاع منه في زحمة السوق الكبير، لم أرَ أمي تبكي مثل ذلك اليوم، ظلت تندب فوق وجهها حتى نهرتها جدتي وأمرتها أن تدعو له خيرًا من هذا النواح، راحت تدعو كثيرًا وتبكي، تدعو وتبكي.. حين فعلت هذا لم يمضِ الكثير إلا وكان أخي بين ذراعيها وقد عاد لنا سالمًا.

ومدت بأيديها تشد على كفيها بأمل مضاعف:

- سيعود خالة حليمة، دعوات الأمهات لا ترد.

كفكفت المرأة عبراتها التي عادت تتجدد وهي تتطلع إلى وجهها، تتشبث بكلماتها كحال الغريق مع القشة:

- هل سيعود ولدي حقًا؟

داهمتها صورته وهو يحكي لها عنها، فوق الدرجات الثلاث عند باحة المطعم، كانت عيناه تضوي، تلتمع فيهم العبرة ويبتسم بحنين، هي تفعل مثله الآن:

- أظنه سيفعل، إنه يحبك كثيرًا.

كانت كلتاهما تأمل، ترفض بداخلها الحقيقة الواقعة و تبكي في هاته اللحظة، حتى أن صدف انهارت أكثر فأخذت بها حليمة تعتصرها بين ذراعيها وتشم ريح ولدها فيها.

مضت لحظات على العناق الطويل قبل ما ينبعث الأمل الحقيقي ويجيء مهرولا مع مريم وهاتفها العالق بين أصابعها، ترسمه في ضحكتها المستبشرة:

- هاتفني إلياس يا حليمة، كان متفائلًا جدًا، يقول أن هناك مستجدات طرأت في القضية.. لم يقل أكثر من هذا لكنه سيأتي ويخبرنا بالتفاصيل.

وعلى خيط الأمل الوليد انفرجت الأسارير وعلقت الأمنيات، نفضت الأم عنها رداء المرض ونهضت تتوكأ على صدف حتى تتوضأ، وفي زاوية الغرفة كانت تلوذ إلى خالقها وتسأله اللطف في الأقدار.

~~~~

في المساء ظهر إلياس أمام الباب، هذا الصمت الطويل الذي يتبعه منذ ذهابه برفقة الصديق زاد من قلقهم لا طمأنتهم. كان ثلاثتهم ينظرن له في ترقب وقلق، حليمة فوق الأريكة تحدق فيه من جلوسها ونبضها يدوي حتى كاد أن يصم أذني مريم التي تجلس جوارها وتضع كفها فوق فخذها تربت عليه بصبر كل حين، أما عنها فتحت الباب وتسمرت خلفه، تنظر إلى جانب
~~~~

وجه إلياس الجامد وتقاطيعه المبهمة فينقبض قلبها بين الضلوع..

- لماذا تقف عندك، تعال وأخبرنا ماذا فعل المحامي؟

تكلمت مريم بلهجة شبه زاعقة مع ولدها الذي تقدم خطوتين وتوقف عند الثالثة ليقول في تردد فاركا وجهه بتعب:

- الصداع يفتك برأسي، لم أنم لحظة منذ البارحة.

- كيف حال ولدي إلياس.. هل رأيته؟ هل يسمحون برؤيته؟

كانت تلك حليمة، قالت هذا وجسدها يتقدم للأمام بفزع، وفي نهاية الجملة تحشرج صوتها وبكت، إقترب إلياس منها، وضع كف أعلى رأسها وراح يقول:

- لماذا البكاء الآن يا حليمة؟.. ألم أخبرك على الهاتف قبل قليل أن هاشم بخير؟ أم أنك تريدين هاشم شخصيًا هو من يخبرك بهذا؟

- الوقت ليس مناسبًا لمزاحك إلياس!

نهرته أمه بعقدة حاجبين فدار لها بنبرة جادة:

- من قال أني أمزح؟..

وعاد إلى حليمة:

- إذا قالت الست حليمة أريد هاشم ولدي حبيبي الآن، أحضره لها بفرقعة أصبع!

بكت حليمة أكثر، وأخذت بدورها تنهره:

- أسكت، أنتَ توجع قلبي يا ولدي.

مال إلى رأسها يلثمه ثم انحني بجذعه حتى قابلها وجهها لوجه:

- وأنا لأجل قلبك هذا لم أرد العودة إلا وهو معي..

ولم يمنحها الفرصة لتعِ كلامه إذ تابع في الحال وثغره ينشق باسمًا:

- انظري عند الباب ست حليمة..

كان هناك، ليس خيالًا ولا دربًا من الأحلام، بل هو بشحمه ولحمه، ولدها، هاشم فرحة قلبها الأولى والأخيرة، يتقدم نحوها.. يضمها.. يقبل رأسها.. كفيها.. ويعود يضمها بكلا ذراعيه ويتكلم:

- توقفي عن البكاء يا حبيبة..

تسمع صوته ولا تصدق، تتحس جسده وكفها ذا الجلد الرقيق والبروز الزرقاء يرتعش، تميل تقبل كتفه و تبكي أكثر فيتكلم مرة أخرى بغير تصديق:

- انتهى الكابوس أمي، انتهى ولن يفرقنا شيء بعد اليوم.

حين قال هذا كان بصره يعانق صورتها عند الباب وهي تقف هناك مذهولة تضم بكفيها معًا

فوق صدرها وكل شيء فيها انقسم لنصف، الضحكة والعبرة، النبض والنفس..

كانت تراه لأول مرة، دون هوية مزيفة، دون خوف، دون قيود وأحلام مسلوبة، كانت روحه مع كل ضحكة يطلقها يعلنها صراحة: أنا حر.

- اقتربي صدف، لا تقفي عندك..

تحركت صاغرة تستجيب لندائه اللطيف، تحتل الصورة وتجلس فوق أقرب مقعد في صمت، فقط عينيها معلقه فيه، مع ابتسامته التي اتسعت وهو يتحدث إليها مباشرة:

- أراكِ صامتة.. عساه خيرًا؟!.. ماذا حدث للفتاة التي أعرفها، آلا ينتابها الفضول لمعرفة بقية الحكاية؟

بالكاد تحرك لسانها:

- حمدًا لله على سلامتك هاشم.. أنتَ هنا.. أظن هذا أهم ما في الحكاية.

أخذ يشيعها بابتسامته الدافئة حتى قالت حليمة وعينها تضم الفتاة بنظرة حنون:

- كانت مؤمنة بعودتك..

وعادت إلى ولدها تضمه بدوره في نظرة، وتردف:

- ظلت تردد لي أنك ستعود حتى عدت، كان في وجهها الأمل والسعد جاء على قدميها.

ظللت عيناه نظرة إمتنان طوقها بها ولسانه يردد دون أن يحيد عنها:

- نعم أمي، هذه هي صدف.

ثم أطلق تنهيدة كبيرة عنوانها الراحة وبصره يتنقل فيما بينهم واحدًا تلو الآخر بادئًا الحكاية:

- قبل ساعات فقط كانت أصابع الإتهام كلها موجهة إلي.. لكن تغير كل شيء مع ظهور غادة.

غادة فايد علام، ابنة العم وفي رواية أخرى ابنة المقتول ورواية ثالثة من يميل قلبها إلى المتهم الأول في قضية مقتل أبيها، ورابعة كونها إنسانة رغم كل شيء وفوق كل اعتبار للمشاعر التي تملكها سرا، ضميرحي لم يستطع جشع الأب ولا

دناءة الأخ أن يميته أو يخرسه، كانت البداية حين اصطدمت في جوف الليل المصاحب لوفاة أبيها بصوت أخيها المرتعب وهو يجثو أمام أمها ويبكي كولد صغير تسبب في مصيبة جديدة، لكن هذه المرة لم تكن مصيبة بل كارثة بما تعني هذه الحروف من معنى، كان يقول بارتجاف والزبد يتطاير من فمه:

" قتلته يا أمي.. لم أقصد، أقسم لك.. هو.. هو سقط ومات.. قتلته.. أنا قتلت أبي!"

كان عقله المغيب بدأ يعود إلى وعيه وقد زالت عنه ثمالته، استطاعت غادة أن ترى المشهد كاملا وهو يشرح بارتباك ولجلجة كيف حدث الأمر، كان هاشم يغادر غرفة أبيها الخاصة

والواقعة بالدور العلوي لمتجر الأقمشة الكبير والذي يعود في أصل ملكيته إلى جدها. اللهب يخرج من أذنيه ومن بين عينيه في تلك اللحظة التي اصطدم به عادل أثناء دخوله، عقارب الساعة تشير إلى تجاوزها العاشرة والنصف مساءً وقد انصرف أغلب العمال إلى منازلهم والبقية القليلة غادروا بأمر من صاحب المكان، لم يكن المعلم فايد يحبذ أن يشهد أي مخلوق على معاركه مع ابن أخيه، كان يفضل دائمًا أن تبقى صورته ثابته لدى العاملين ومن حوله، لذا كان المكان خاليًا لسوء حظ الأول، غادر هاشم تاركًا عمه يتقلى فوق مراجل الغضب بعد حوار صاخب بشتى الإهانات، ليأتي عادل بنصف وعي

طالبًا للمال بشكل مستعجل، وهنا نشب عراك آخر، دائمًا وبشكل تقليدي للغاية كان يوجد جملة واحدة يكررها فايد كل يوم في وجه عادل بإزدراء واضح:

"ماذا ينقصك حتى تكون مثله يا عرة الرجال؟ لا يملك ربع ما تملك وانظر إلى حاله وحالك؟!.. لا تفلح في شيء، حياتك عبارة عن تراكمات من الفشل"

كانت هذه المقارنة دومًا بداية جيدة لشجار متواصل يقوم بين أمها وأخيها ضد أبيها، لكن لم يكن يعلم أحد أن في تلك الليلة المشؤومة سيجن عادل ويصرخ بينما يسب أبيه متهما إياه بقسوة سافرة:

"لم تحب أخيك يومًا لأنه كان أفضل منك في كل شيء، والآن تريد مني أن أفعل مالم تستطع أنتَ فعله. آسف يا والدي العزيز كلانا خاسر في هذه المعركة.. "

"ولد فاشل بوعي غائب ودماغ نتنة"

"وأنتَ عجوز بائس، أكرهك من كل قلبي"

ومن هنا جاءت النهاية، ثار الأب وراح يصفعه مرة بعد مرة ولأجل أن يحمي عادل حاله دفع بجسده بكل قوته بعيدًا عنه. سقط الأب في الحال واصطدم رأسه بلوح زجاجي يعلو الطاولة القابعة بالخلف، تهشم الزجاج وانغرز الكثير في لحم رأسه. صار ينتفض كالطير الذبيح مطلقًا صوت غرغرة من حلقه مع رغوة خرجت من

جانب فمه الشبه مفتوح، لم تكن فارقته الروح بعد حين تركه الابن مبحلقًا في السقف وراح يركض إلى الخارج مترنحًا، مصعوقًا، يصطدم بالعاملين وسكان الحي صارخًا بجملة واحدة:

(قتل هاشم عمه!)

كان هذا خيط النجاة الذي تمسك به وعمل جاهدًا كي يتقن إمساكه، استعمل العداء القديم كي يشهد الجميع ضده، وساعده الهروب الغير مبرر لابن العم في إثبات ما يريد، بشكل ما كانت الأم تدعمه كي يتمم ما بدأ، لن تضحي بابنها في سبيل أن ينجو ابن حليمة، حين أعترف لها تلك الليلة شدت من أزره وراحت تدعم

القضية وتبعد الشبهات عن ولدها بكونه كان بالبيت أثناء وقوع الجريمة..

لم تكن تعرف أبدًا أن ابنتها الشابة تملك قلبًا صغيرًا ينوح بين الضلوع كل ليلة، قلبًا دفعها لتمسك بهاتفها ذات ليلة مستغلة عقل شقيقها المغيب وجسده الثمل حتى تقوم بتسجيل اعترافاته الكاملة و قد أقنعتهما سلفًا أنها في صفهما، دليل براءة احتفظت به لشهور غاب فيها طيف ابن العم عن الساحة، كانت تتقلب كل ليلة وتفكر، مرت لحظات كثيرة أوشكت فيها أن تمحي ذلك الدليل من الوجود، آلا تضحي بأخيها، لكن شيء من ضمير كان يدفعها لتركه، للانتظار، لمعرفة إلى أين ستؤول الأمور، وحين

جاءت اللحظة الحاسمة ووصلها خبر ظهور ابن العم تجلجل فكرها، أصابتها لوثة من الأفكار فلم تستطع تمييز الصواب من الخطأ حتى دوت أصوات الحي ورأته بعينها بكل ظلم بَيِّن يُدفع به لداخل صندوق العربة التابعة للشرطة، لم يكن هناك مجالٌ للشك أن عادل هو من بلغ عن وجوده إذ كان يترقب عودته بل وسعى لها عن طريق الضغط على والدته حتى يعود ليزج به أمام المدفع وتنتهي القضية.

نشوة النصر التي غمرت عادل قتلتها، جعلت تفكيرها ناقم، كيف لأخيها أن يلوث يديه بدماء أبيها ثم ابن العم دون ذرة ندم؟..

كان هذا فعلًا قاسيًا بنظرها، ومجردًا من رابط الأخوة الذي يجمع بينهما، كما كان هناك في زاوية ما صوتا خفيا يهمس لها أن ما تنتوي فعله مدفوعا من قلبها المعلق في هوى ابن العم دون أمل، أنها امرأة بائسة تسعى لكسب قلبه بأي طريقة ممكنة وأن كانت بخساسه، ربما هي هذه أيضًا، لكن مالم تستطع تحمله أن تكون جزءًا من هذا الظلم الواقع، ظلمًا بدأ بأبيها وختم بأخيها، هي ليست مثلهما، ولن تكون، كانت هذه الحقيقة التي تعرفها ولن تقبل فيها الطعن..

لن يصدقها عادل ولن تفعل أمها ولا أي مخلوق، لن يصدق أحد أنها أرادت له النجاة أيضًا، أنها كانت تبكي أمام الضابط بينما تدفع بدليل براءة

هاشم لتجرم أخيها، لم تكن نيتها وشاية بالشقيق بل كانت تسعى له عن درب الخلاص، تخلصه من دنس الأحقاد التي غرست في صميم نفسه حتى حالته إلى سواد فاحم، أن تقيه طريق الهلاك مع ذاك السم الزعاف الذي يخالط دمه ولن يتركه حتى يرديه قتيلًا ذات يوم.

حين انتهى هاشم من سرد الحكاية الأقرب لفيلم تفاصيله مقتطفة من درب الخيال طال الصمت، كانت النظرات آسفة مقابل الحقيقة العارية، بالطبع هو أمر مؤسف أن تكون معاصرًا لزمن يقتل الابن فيه أبيه، أمر محزن ومرعب للحد الذي تفقد فيه الكلام وتبادل الآراء.

أخيرًا تكلمت حليمة بعد ما نفثت تنهيدة كبيرة:

- ماذا عسانا أن نقول بني، رغم كل شيء يؤسفني أن أرى شابًا يافعًا مثل عادل يكون بهذا الحال.

وعلقت مريم:

- فايد هو من غرس في ابنه كل هذه الضغائن، أورثه الظلم حتى انقلب عليه في النهاية.

عادت تعلق حليمة:

- مسكينة غادة.. دائمًا أقول هذه البنت لا تشبه أخيها في شيء.

وتسأل مريم بفضول:

- صحيح؛ هل اعترف عادل بفعلته؟

هنا تكلم إلياس الجالس إلى جانبها فوق ذراع الأريكة:

- ثار وغضب ورفض الاعتراف لكن بعدما واجهه الضابط باعترافاته المسجلة انهار باكيًا وأقر بها فيما بعد.

- هل سيكون عقابه كبيرًا؟

تسألت صدف بقسمات متغضة أقرب للإشمئزاز، ويجيبها هاشم:

- قال المحامي أنه قتل خطأ وليس عن عمد، لكن عقوبته ستكون مشددة لأجل التعاطي.

وبشكل ما بدأت حليمة في وصلة بكاء جديدة، أخذت تشهق دون سبب واضح ولسانها يتحرك

بالحمد سرًا، ماحدث كان أقرب لمعجزة ربانية، مازالت لا تصدق أنها تراه ويجالسها، أرغمها إلياس الذي قفز عن ذراع الأريكة أن توقف سيل الدموع، راح يصفق بيديه ليعم الصمت قبل ما يقول بصوت إذاعي:

- حسنًا يا سادة.. دعونا ننتهي من فصل البكاء الكئيب وليعم الفرح والسرور.. وبمناسبة هذا اليوم.. احم.. احم.. الموافق لعودة الغالي هاشم سنقيم عشاء مميز..

ومن بين الضحكات والهمهمات التي تعالت راح ينظر إلى صدف متابعًا بغمزة عين:

- وأيضًا لأجل أن نرحب بضيفتنا بشكل لآئق.

انتفضت صدف من جلوسها مرددة بتجلجل وعينها تلتقط قرص الساعة الذي يشير للثامنة مساءً:

- أي عشاء سامحك الله؟ أنا يجب أن أغادر الآن، بالكاد ألحق قطار التاسعة.

- الآن! في هذا الليل تغادرين؟.. هذا لن يحصل أبدًا.

- صدقيني خالة حليمة لا أستطيع.

تدخلت مريم بجدية:

- لا يمكن الذهاب قبل أن تأخذي واجبك.

- شكرًا سيدة مريم لكن..

قاطعها إلياس:

- لا يوجد لكن، هذا الحدث يستحق الاحتفال..

لماذا لا تتكلم هاشم؟

نهض هاشم عن مقعده مقتربًا من وقوفها المرتبك، ينظر إلى عينيها ويهمس بصوت خفيض:

- ابقِ الليلة.

ابتعد الجميع وتشاغل باصطناع مانحين إياهم بعضًا من خصوصية للحظة، كان بؤبؤي عينيها يتذبذبان وهي تهرب من همسه:

- لا أستطيع البقاء أكثر.. أنتَ تعرف هاشم..

يجب أن أعود.

تلاعبت فوق شفاهه إبتسامة، مذكرا إياها بكلماتها:

- أظن المسافة من هنا حتى هناك ليست بالشيء البليغ.

تآوهت دون صوت وهي تغمغم:

- الآن يبدو الأمر جنونيًا للغاية.

إقترب بهمس جديد:

- ولو قلت لخاطري؟

هربت من حصار نظراته بتنهيده ونصف اغماضة:

- لا تفعل أرجوك.

احتاج لثوان حتى يقول بصوت رجولي، أجش:

- هذه ليلة خاصة جدًا بالنسبة إلي..

وأتبع هذا بهمس قريب جدًا، دافئ جدًا جدًا:

- و أريد كل أحبتي معي.

اختنقت أنفاسها بصدرها وهي تهمس باسمه في رجاء خفي:

- هاشم..

ابتعد بمقدار يسمح لها بالتنفس بينما يقول في ثقة وإبتسامة خاصة هذه المرة:

- إذن اتفقنا، ستبقين.

وعلى إثر تنهيدتها راح يتحرك الجميع لتحضير مائدة عشاء تليق بهذا المساء المميز، ذهب إلياس ليأتي ببعض الأغراض بينما دلفت أمه إلى المطبخ وأم هاشم التي لا تقوى على وقوف احتلت

مقعدًا إلى جوارها تقوم فيه بدور المرشد. أخذت صدف على عاتقها تحضير المائدة، رتبت الكنب المنجد ثم بدلت مفرش السفرة لآخر نظيف، وضعت الأطباق بشكل جميل وحين إنتهت راحت تساعد في تجهيز الطعام..

كان المطبخ الضيق لا يتسع لكل هذا الاحتلال لكن بشكل ما كان هناك براح يضم هذه الضحكات والأصوات التي تتبادل، صوت إلياس يعلو بأغنية قديمة بينما ينهره هاشم لأجل هذا التلوث السمعي.. اندمجت سريعًا وسط هذا التجمع العائلي الدافيء، وجدت حالها تنخرط في الحديث والضحكات دون أن تشعر، تلتقط بطرف عينها حركته الخفيه فتصيح بانفعال:

- انتبهي خالة مريم لص الكفتة يقترب.

تتنبه مريم فتزمجر في وجه ولدها وتهدده بالمعلقة الخشبية العالقة في يدها، يتراجع إلياس مستسلمًا وعيناه تحدج صدف بتوعد شرير فترد وعيده بسكينها الكامن داخل راحتها وهي تلوح به أمام رقبتها في تهديد مباشر، تلتقط حليمة من بين جلوسها وتقطيعها للسلطة النظرات المتبادلة بين ولدها والفتاة، تتبسم في غبط وتعود تراقب فتلتقط الابتسامات، ينتفخ قلبها بسعادة، تقول بصوت مبتهج، تقصد الفتاة:

- أسعدتنا حبيبتي ببقائك، أنرتي البيت وقلوب أهل البيت.

تجيبها صدف بخجل وحرج:

- شكرًا.. خالتي..

- لو تقولين ماما أفضل من خالتي، والله من اللحظة التي رأيتك فيها حسبتك ابنتي.

تصعقها حليمة بكلماتها فيصيبها الخرس وينتقل بصرها إلى هاشم الذي تفاجىء بدوره وراح يبحلق في أمه ويحثها بإشارة متواريه عبر شفتيه أن تسكت، ويقول مغيرًا دفة الحديث:

- انتبهي إلى السكين بيدك يا غالية، لا يلهيك الحديث فتجرحين.

تصمت للدقائق ثم تعود في دورة تقييم لعود الفتاة، أو عروس ابنها حيث وصلت بخيالها:

- خصرك نحيل جدًا يا ابنتي، بالطبع أفهم كونك بعيدة عن أمك ولا تأكلين بشكل جيد، لكن عليكِ الإهتمام أكثر بصحتك حبيبتي، الخصر المتتلىء يكون جذابًا أكثر في ثوب الزفاف.

تشهق صدف وتنظر إلى خصرها ويصيح هاشم:

- أمي!..

- أسمعك، لماذا تصرخ؟

يقترب منها ويميل بزمجرة خفيضة:

- ورحمة والدي لا تتكلمي، أحرجتها بما يكفي.

تهمهم في اعتراض وتصمت على مضض.

حول المائدة كانوا يتبادلون الأحاديث الجادة، يقص عليهم هاشم أيامه في العزبة وكيف تنتمي

لها صدف، يحكي لهم عن الشيخ رحيم وطاهر، عن الأزمة الكبيرة التي يمر بها ساكنيها، تتدخل صدف وتأخذ حصتها من الحديث، تصف لهم كيف يغيب الصيادين باليومين والثلاث داخل البحر ثم يعودون إلى بيوتهم يقتلهم فرط التعب، كيف يتعلم الصبيان قبل سن العاشرة كل مهارات الصيد وكلًا يأخذ نصيبه من الصبر بينما النساء تتقن الأعمال اليدوية وبيعها حتى يساعدن أزواجهن، تحكي عن أفراحهم والمآتم، تحكي تفاصيل أزمتهم بصوت مختنق، تتكلم كثيرًا وحين تسكت تشعر بالحنين.

بعد العشاء أصرت عليها حليمة أن تأخذ حمامًا دافئًا، أحضرت لها ثوبًا نظيفًا له أرضية بيضاء

ونقوش بلون البنفسج، تقول أنه يعود لأيام زواجها الأولى وعمره أكثر من خمس وعشرين عامًا، كانت تفضله وهي عروس وحين امتلأ جسدها ولم يعد يمر من الذراعين احتفظت به كذكرى داخل خزانتها مع بعض الأشياء التي لم تستطع التفريط بها، رأى الجميع أنه لاق بها كثيرًا، وأحبته بدورها رغم طوله الذي تخطى الكاحلين وراح يعثر خطواتها، وكذكرى أخيرة أحضر إلياس كاميرا تخصه وأصر أن يلتقط بعض الصور لهذا التجمع العائلي.

كانت تقف مع هاشم حين استغل إلياس انشغال السيدتين و جاء يكسر الصمت، يضبط وضعية الكاميرا ويقول بمكر:

- هيا، سألتقط لكما صورة خاصة، بمفردكما..

ارتبك كلاهما وراح ينظر للآخر دون أن يعرف ماذا يفعل ولا كيف يعدل من وضعية وقوفه، لكن الصوت مع الضوء اللامع أعلن أن اللقطة تمت بالفعل، وهما هكذا، يقفان معا أمام إطار الشرفة الأخضر، راحتهم تحيط بكوب من الشاي الساخن، ومن الخلف كانت تظهر حزمة الثوم المعلقة وقصاري الصبار مرصوفه فوق الجدار، ينظران إلى بعضهما و كأعينهم تلتمع نجوم السماء المضيئة.

كلاهما يقف داخل الشرفة الآن، يراقبان الشارع الهادىء بأضواءه الشاحبة، بخار النفس يتصاعد على مهل ثم يتلاشى مع الصمت،

يرتشفان الشاي الساخن للمرة الثالثة، يتقيان لسعة البرد بشال لفته حول جذعها وسترة ثقيلة ذات قلنسوة يرتديها..

سألت تقطع صمته الطويل حين رأت الإبتسامة الشاردة تتسع دون فهم:

- لماذا تضحك؟

التف بجسده ناحيتها، ارتكز بساعده فوق السور مع تبسم حقيقي وهو يغمغم:

- أنتِ وأنا.. هنا.. في شرفة بيتي.. نشرب الشاي بالنعناع الساعة الثالثة فجرًا.. أليس هذا غريبًا؟

تبسمت بدورها:

- بلى، إنه كالحلم.

وارتفع صخب ضحكتها المتعجبة قليلًا قبل ما تتابع:

- لو تعرف كم مرة منذ الأمس سألت نفسي باستنكار: عما أفعل هنا!..

- أنتِ هكذا دائمًا؟

- كيف!

- تتبعين قلبك..

- ليس دائمًا، فقط حين يطمئن ويخبرني أن أفعل.

- إذن أنا ممتن لقلبك هذا جدًا.

- لماذا؟

- لأنه السبب في جعل هذه الليلة استثنائية.

- ولد.. هاشم.. أنتَ تهور!

وعلى إثر الجملة الأخيرة اندثرت الغيمة الوردية وهاشم يمد بجذعة إلى خارج الشرفة، صوب بصره نحو الأعلى وراح يغمغم بحروف مغتاظة:

- ماذا تفعل عندك، قلت ستنام منذ ساعتين؟

تقدم إلياس بجذعه ليهتف عقب تنهيدة مفتعلة:

- حديثك الشاعري أقلق نومي وحالة العزوبية التي تعتقلني.

- لم لا تصمت وتنادي على أمك؟.. تثرثر هي وحليمة وكأنهما منذ دهر لم تلتقيان.

- أمي؟!.. أمي لن تغادر بيتكم حتى ترحل صدف بأمان، أنتَ غائب منذ شهور وفي الحقيقة لا أحد منا يعلم لأي ذئب بشري تحولت.

- كلمة أخرى وكل فضائحك ستخرج أمامهم.. أنا جاد.

- حبيبي هاشم مازال طبعك جاف، ما فائدة العشق إذا لم يلين الأشياء؟

- أي الأشياء تقصد؟!.. اخرس إلياس أو أخرسك بطريقتي.

- أقصد القلوب يا حبيب إلياس.. القلوووب.

لم تستطع صدف منع ضحكتها الصاخبة وهاشم يهز برأسه دون فائدة قبل ما يشاركها اللحظة

وما أن يتوقفان حتى ينظران لبعضهما فينفجران في نوبة ضحك جديدة تنتهي بالأعين دامعة.

~~~~

مع حلول الصباح كانت ترتدي كامل ملابسها التي غسلتها وجففتها سلفًا متأهبة للرحيل، عانقتها مريم وأوصلت لها سلام إلياس الغائب في عمله، وداع أم هاشم كان عاطفيًا جدًا، قبلتها كثيرًا وضمتها مطولًا، أوصت بها هاشم الذي ينوي مصاحبتها في طريق العودة، في مدخل البناية وقبل مغادرتهم توقفت الخطوات على دلوف أحدهم، توقف هاشم أولًا ينظر إلى الفتاة بسابق معرفة، كانت شابة في مقتبل العشرين
~~~~

على ما يبدو، شعرها أسود فاحم يصل حد كتفيها في استرسال ناعم، ملامحها رقيقة، تملك جمالا محبب للعين رغم الإرهاق الكبير البادي على وجهها، كان هذا تقييم صدف السريع قبل ما تصلها الهوية بشكل واضح على لسان هاشم:

- صباح الخير غادة.

شملتها غادة بدورها في نظرة خاطفة قبل ما تتكلف بإبتسامة باهتة وجهتها نحو ابن العم:

- صباح الخير هاشم.. كيف حالك؟

- بخير الحمد لله، وأنتِ؟

حاولت ضبط صوتها كي لا يهتز وهي تغمغم:

- لست بخير تمامًا، طردتني أمي من البيت وتقاطعني، سأبقى عند خالي هذه الفترة.

تأثر هاشم كثيرًا بنغمة صوتها الحزينة مما دفعه ليقول:

- هل تحتاجين لشيء؟.. أي شيء أستطيع تقديمه؟

ردت في إمتنان وحروفه تسعدها بشكل خاص:

- أعلم أنك هنا دائمًا، شكرًا لك هاشم.. لكن لا بأس سيعود كل شيء إلى طبيعته، في النهاية أنا ابنتها.. الوقت كفيل بإصلاح كل شيء.

ومال بصرها ناحية صدف مطولا هذه المرة، لن تسأل عمن تكون هذه الشابه الصغيرة، وإلى أين

يذهبان معًا، الحقيقة هي تخاف أنا تسأل فتجد ما تخافه، ابتلعت لعابها بعسر وعادت إلى هاشم من جديد:

- جئت كي أهنئك بسلامتك وأن.. أن أعتذر لعدم استطاعتي الحديث قبل ذلك.. حقًا إنني آسفة هاشم.

حين أتمت جملتها كانت تنشج بخفوت، وهذا لم يردع صدف التي أصابها الحنق لتقول باندفاع غاضب:

- يجب أن تكوني آسفة، في الحقيقة حتى أسفك هذا لا يفي.

- صدف!.. رجاءً لا تتدخلي.

قال بصرامة جعلتها تعقد ساعديها فوق صدرها في تزمت وتبتعد عنهم بمقدار خطوتين، أخذ هاشم بغادة إلى الخلف بضع خطوات حتى يبتعدان عن البوابة وأعين المارة، يدنو منها ويتحدث بلطف:

- لا تعتذري، أتفهم صعوبة الموقف، في النهاية أنا شاكر لك، صدقيني ممتن جدًا لما فعلته لأجلي.

رفعت وجهًا باكيًا تقابله:

- لم أكن لأقبل أن تحاكم ظلمًا..

لعقت شفتيها بلسانها قبل ما تتابع:

- تستطيع أن تسترد حقك الآن، لم يعد هناك من يمنعك، أنا سأشهد بأحقيتك فيه وسوف

نستعين بالسيد راضي محامي العائلة كشاهد ثان، كان دائمًا يتكلم مع أبي بشأنك لكن سامحه الله لم يكن يستمع إليه.. ونصيبك في مال عمك ستأخذه أيضًا حين يتم تقسيم الميراث..

قاطعها بقسمات متغضنة:

- كل ما أريده هو حقي في إرث أبي فقط لا غير.

- لكن هذا حقك، أنتَ وريث شرعي.

- خسرنا الكثير بسبب هذا المال، لا أريد لتلك العداوة أن تتجدد بيني وعادل، أنا متنازل عن نصيبي في مال عمي غادة.

مرت لحظات وهي تتطلع إليه من خلف غشاوة الدموع، أخذت شفاها ترجف بينما تلقي بحالها فوق صدره لتنشج حروفها بهمس متألم:

- ليت هذا كله لم يحدث، ليته فقط.

لاحقًا، حين ترجلت من عربة الأجرة وقبل أن تدلف إلى محطة القطار برفقته كانت قد وصلت لذروة غضبها، طوال الطريق وهي تنفث وتحترق وتكتم بداخلها حتى لا تتدخل فينهرها كما فعل قبل حين أمام المبجلة ابنة عمه، لكن حقًا ما يفعله كبير، كبير لدرجة أجبرتها على كسر صمتها لتصيح فيه:

- حقًا لا أصدق، كيف تفعل هذا؟..

توقف ينظر إليها للحظات قبل ما يقلص ما بينهما من مسافة ويغمغم بصوت هادىء زاد من غيظها:

- ماذا فعلت؟

كادت أن تصرخ وهي تقابله بانفعال:

- تتنازل عن حقك في ميراث عمك؟!.. بالله هاشم كيف تفكر!.. أليس هذا الرجل هو من حرمك من مالك كل هذه السنوات؟ أليس ابنه هذا من أراد أن يلقي بك في أسفل سافلين حتى ينجو بفعلته؟.. كيف ترد ظلمهم الكبير بمسامحة وغفران!

ابتسم لانفعالها الشديد لثوان قبل ما يتكلم برزانة حروفه:

- لأنهم أهلي صدف، أنتِ لم تجربي أن تقفي يومًا بوجه أحدهم تجري في عروقكم نفس الدماء تتبادلون الكراهية في العلن، أن يجافيك النوم لأن قلبك يعتصر قهرًا فتجدين نفسك تلعنينهم دون ذرة ندم.. لست مثاليًا كما ترينني.. أنا فقط لا أريد أن أحمل بداخلي مزيدًا من الكراهية، ذلك الشعور مقيت ومؤذي جدًا.

احتاجت وقتًا حتى تقول بنبرة أهدأ من الأولى:

- لا يمكنني تقبل منطقك، مازلت أرى هذا غير عادل، قد تكون تسرعت في..

- هذا قراري، لن أغيره.

عادت تستأنف سيرها مبعثرة حروفها المغتاظة من خلف كتفها:

- كما تريد، افعل ما تشاء، تنازل عن حقك، عانق الفتيات المتباكيات وتأسف لحالهن، ما شأني أنا؟ لن أتدخل.

- أي عناق وأي فتيات، ماذا تقولين؟

دارت بغتة تواجهه حتى كاد أن يصطدمان ببعضهما، تزمجر بنبرة غيور:

- أقول ما رأيته قبل قليل..

- كانت الفتاة في حالة يرثى لها، أنتِ رأيتها، هل أحاسبها أم ماذا؟

هتفت بعصبية ساخرة:

- ولماذا تحاسبها في حين يمكنك تقديم الدعم بألطف طريقة ممكنة.

تنهد قبل ما يغمغم بصبر نافذ:

- انتبهي إلى كلماتك ولا تحرفي الحقيقة، الأمر كله رد فعل عابر.

أطلقت ضحكة قصيرة، مستهجنة:

- تقول رد فعل عابر؟!

ولم تمنحه الفرصة ليتكلم إذ صوبت له نظرة قاتلة وهي تتابع:

- كل شيء في الفتاة ينطق بحبك، وأنتَ تعي هذا جيدًا لا تدعي التغافل.

- لن أدعي، هي بالفعل كما تقولين.

- جيد هاشم، دعنا ننهي الحديث هنا، لا أريد أن أسمع المزيد.

لاحقًا حين كانت تجلس جوار نافذة القطار وهو يجاورها، انتظر حتى يتحرك القطار ليغطي الضجيج على حروفه القريبة:

- انظري إلي..

لم تستطع نبرته اللطيفه أن تكسر وجومها لكنها استجابت لمطلبه في صمت، ليتابع:

- لا تحاسبيني على أشياء لا أملكها..

وراحت أصابعه تتخل أصابعها حتى تشابكت مع بقية حروفه:

- الأمر معك مختلف، أنتِ تعلمين..

- أعلم ماذا؟

- أنني أُحبك.

~~~~

في تلك الليلة الباردة كان عليها أن تتخذ القرار، غياب حماتها وشقيقات طاهر الثلاث جعل التوقيت أكثر من مناسب إذا ما أختارت أن تنهي الأمر، وجود طفل في أحشائها وسط هذه الظروف الصعبة بدى لها جريمة، منذ وقت والأوضاع تسوء بشكل كبير، ضيق ذات اليد صار هو الحال الدائم، حين غابت عادتها الشهرية عن موعدها قبل أسبوعين وهذا القيء
~~~~

الذي بدأ يداهمها قطع الشك بوجود جنين ينمو في رحمها.

سلم حديدي آكله الصدأ عادة مايستخدمه طاهر في إصلاح الأشياء المرتفعة، ثبتته بوسط الغرفة وصعدت درجاته حتى اعتلت عليه واقفه، على مهل فردت ضهرها حتى اتزن جسدها، قفزتين أو ثلاث كل ماتحتاج لينتهي أمر هذا الجنين الصغير جدًا، مسؤولية كبيرة ظروفهم لا تسمح باستقبالها، لن تخنق طاهر في هذه الزاوية، أقدامها تهتز وتتعرق فوق الرقعة الحديدية للسلم، تستشعر العرق يتفصد من جميع خلاياها رغم هذا الصقيع الذي يجمد الأطراف، أنفاسها تتلاحق وتتحشرج داخل

صدرها دون أن تتنفس بشكل سليم، وفي لحظة، لحظة أجبرت عقلها على التوقف والتفكير لتتخذ القرار، تركت جسدها يسقط، يتهاوى ويرتطم مع الأرضية الصلبة، للحظات ظلت بمكانها ساكنة، وجهها يلاقي الأرض وجسدها مسجى دون حراك..

هي ليست امرأة سيئة، كانت تحب أن يكون لديها طفل من طاهر، كانت لتسعد إذا صارت أمًا كحال كل النساء، أن يكون لديها قطعة منها تكبر أمامها، طفل يناغيها وينام فوق صدرها، تشم رائحته وتعد أصابعه، تراقب أول ضحكة وأول خطوة، أن يحبها دون مقابل، يحبها أكثر من أي شيء فقط لأنها من جاءت به للحياة، لكن تريد لهذا الطفل أن يعيش كما ينبغي، يلبس

ويأكل ويتعلم لا يقتله أويذله الفقر المدقع، هي ليست أمًا سيئة لكن ستكون إذا جلبته إلى هذه الحياة القاسية، حياة أقرب لخراب ليس فيها ما يستحق، حياة لن يجد فيها غير حبها وأمومتها..

هكذا فكرت عتاب قبل أن تقفز، لكن بعد أن فعلت بدت كل هذه الأفكار صغيرة جدًا، متناهية الصغر مقابل إحساس الندم الذي غمرها والألم الذي سكن جوفها، لتدرك في هاته اللحظة أن حبها وأمومتها ليسا أبدًا بالشيء الضئيل أو التافه وأنها بالفعل أم سيئة، الأم التي تقتل طفلها هي شيطان في صورة بشر، هكذا صارت تفكر الآن.

مرت ساعات وهي على حالها، متكومة فوق الأرضية تحيط بطنها بذراعيها، تبكي وتشهق حتى جف حلقها وأنت عظامها، حين فتح الباب كانت قد تعبت ولم يتبق منها غير نهنهات متقطعة، استطاعت أن تسمع خطواته الهادئة قبل أن تتوقف ثم تعود لتهرول إليها، يجثو بقربها، يرفع جذعها الواهن بين ذراعيه، ترى صورتها معكوسة داخل جزع عينيه، يسأل بلهف وفزع عما أصابها بينما يمرر بصره فوق السلم ويعود إليها متفقدًا عظامها، يهز رأسها ليتأكد أنها واعية، وهي كانت واعية لدرجة جعلتها تنظر في عينيه وتهمس بصوت جاء من أعماقها البعيدة:

- قتلته..

- ماذا!

- أقول لك أني حُبلى.. وقفزت من فوق هذا السلم حتى أتخلص منه.. أردته أن يموت.. طفلي.. طفلنا.

أحيانًا يكون الارتطام بالكلمات قويًا لدرجة تفقدك كل خواص الفعل، فقط تعيدها وتعيدها، تبقى الحروف هناك تنبض بشكل مؤلم داخل الرأس دون أن تملك القدرة على فعل شيء، مرت لحظات طوال وهي هكذا بين ذراعيه تحدق في وجهه وحشرجة مكتومة لأنفاسها تزاحم الصمت بينما طاهر يلقي بصره نحو الفراغ، نقطة وهمية تبتلع صمته وشعوره

في هاته اللحظة، حين تكلم طرح الأمر الوحيد القابل للتصديق بنبذها لطفله خارج رحمها:

- لا تريدين أن يكون لك طفل مني؟

قال هذا بصوت جامد، دون أن ينظر، دون أن يكون هناك أي شعور خلفه.. لم تتحرك بها شعره، لم يعد هناك ما يوجد ليحرك فيها أي شعور، فقط تزحزح جسدها عن مرماه وبصرها ثابت عليه، ظلت هكذا للدقائق حتى امتلأت عينيها بالدموع فردد لسانها بخواء وأنين:

- لا أريد لطفلنا شبه حياة.

بدا هذا ساخرًا جدًا ليميل جانب فمه ثم يعود لموضعه مع بصره الذي دار وأستقر عندها، كل

هذا الندم والحسرة الذي يشكله صوتها وهيئتها لم يكن كافيًا لتقبل فعلها، كل هذا الانهزام الذي تحياه ليس بقادر لردع حروفه التي خرجت بمرارة:

- ليس نحن من نهب الحياة..

وصمت هنيهة تذوق فيها حروفها القاتلة مرة أخيرة قبل ما يقول:

- ما فعلته كبير وغير قابل للغفران.

وأعقب ذلك برحيل.

~~~~

على من يقع اللوم؟

هو..
~~~~

هي..

المجتمع.. الفقر.. الوطن.. القدر!

من المسؤول بالضبط على دفع امرأة للتخلص من جنينها حتى لا يأتي للحياة؟..

من المسؤول عن منظومة الخلل هذه؟

من سرق الغد واغتال الأحلام..

من أي نافذة فر الأمل ليحل محله اليأس والقنوط..

لأي درجة وصلنا حتى تتشوه الغرائز وتتحطم تحت صخرة الواقع الغير عادلة بالمرة؟!

بدت كل الإجابات لدى طاهر بلا قيمة وهو هائما على وجهه في هذا الليل البهيم..

في هاته اللحظة صار كل شيء بلا قيمة.

توقف طاهر على هيئة الشيخ رحيم يجالس ظلمة البحر، كان قد أعتاد على هذه الجلسة مؤخرًا وأعتاد بدوره أن يشاركه إياها، اقترب يلقي السلام بخفوت ويجالسه بصمت، بدت هذه العتمة الوافرة أمام أعينهم ساتر يحميهم من غد مجهول، مع كل شمس تشرق كان الجميع يتساءل عن القادم، منذ أيام وكل الطرقات مغلقة، كل معبر يؤدي إلى خارج العزبة أو داخلها هو مغلق بأمر من الحكومة، أسلوب ضغط جديد تم اتباعه حتى يرفع البقية الباقية راية الإستسلام.

- أنتَ تحترق بني، على مهلك.

قالها الشيخ رحيم بشيء من فكاهة وهو يرى كل هذه الكآبة تطل عبر عيني جليسه، لطالما كان طاهر يذكره بشبابه، ذلك الكد والشقاء والصبر الطويل على مصاعب الحياة، الدماء الحاره التي تتدفق لأجل الأرض والشرف والكرامة، لكن الفارق بين الأمس واليوم كبير، كانت الحياة آنذاك صعبة لكن خالية من هذه الحروب الداخلية التي تحرق الشباب وتحيله إلى رماد.

- لماذا اخترت البقاء يا شيخ رحيم؟

خرج السؤال من فم طاهر بشكل مفاجىء، ذا ضجيج عالٍ مزعج وسط هذه العتمة الشاسعة ولسعة البرد الشديدة فوق الوجوه، أحتاج

الشيخ وقتا ليسحب نفسا طويلا ويقول بعده بنبرته الرخيمة وبصره يسبح مع الفضاء الحالك:

- أنا ولدت هنا طاهر، كبرت وشخت في هذا المكان، أخترت البقاء لأني لا أعرف مكانا آخر غير هنا.

- هذا تعود أم إنتماء؟

- هذا حق، حقي كإنسان فيما أملك وأريد وأرغب.

لثوان فكر طاهر: هو حتى لا يملك الحق في أن يأخذ زوجته إلى طبيب ليرى أن كان طفله ينبض أم توقف نبضه للأبد، عليه الانتظار حتى يقرروا

أصحاب الأمر فتح الطرقات، بعد غد بعد شهر، وعندها سيكون قد فات الآون..

أغمض عينيه وأخذ شهيقا طويلاً حبسه بصدره، قسرًا سحب حاله من تلك الدائرة التي تقهر روحه، وجد حاله يغمغم بسخرية عائدًا لمحدثه:

- ظننتك ستحدثني عن الوطن، الإنتماء..

حرك الشيخ رأسه بلا معنى وهو يردد:

- هذه الأشعار والروح الوطنية نصدرها للعدو الحقيقي ليس لأبناء الدم الواحد والدين الواحد.. معركتنا غير شريفة بالمرة يا طاهر، في الحقيقة هي أقرب لعار.

غمغم طاهر يشاركه الهم بقهر مكتوم:

- طوال عمرنا منسيين، أسقطونا من حساباتهم حتى قرروا أننا مجرد ذباب فوق قطعة حلوى وجب التخلص منه بأي طريقة كانت.. الحقيقة أننا كنا ومازلنا بلا ثمن.

حين قال هذا بدت له أفكار زوجته المضللة منطقية، السر في الخوف، نجح الظلم والفقر في زرع الخوف داخل النفوس، الخوف من الغد، أن تكون بلا مأوى ولا مأكل، أن تكون غريب فوق الطرقات، مواطن بدرجة لاجيء، بشكل ما بدت له رؤية عتاب محقة، رغم بشاعتها وقسوتها كانت تحاكي الواقع بعدل..

في تلك اللحظة أدرك أن اللوم والذنب يقع على عاتق الصمت..

صمتهم الكبير أمام كل هذا الجبروت.

~~~~

كانت رقعة الأحلام تتسع يومًا بعد يوم، ذاك السحر المسمى بالعشق شيد فيها قصورًا من الأحلام، كل الأحلام كانت بدايتها ونهايتها عنده ومعه، ربما قبل نهاية العام يكونان متزوجان، يساعدها على إتمام دراستها وهي في بيته، وربما يكون كل أحبائها أيضًا معها، هي ورحيم ودليلة وحسن، جميعًا بمكان واحد، قال هاشم أنه سيتكلم مع الشيخ رحيم في هذا الأمر لكن بعد ما يخبر الحقيقة ويضع الأمور في نصابها
~~~~

الصحيح معترفًا بأصله وفصله، قال أنه مدين لأبيها وطاهر بإعتراف واعتذار، هي تعلم أن أبوها يملك قلبًا مثل اسمه، سيسامحه لأجله مرة ولأجل قلب ابنته ألف مرة، قال أشياء كثيرة، مؤخرًا صار بينهما الكثير ليقال.

قررت أن تعود وتفاجئهم بالزيارة قبل أن تبدأ إختبارات الفصل الأول، وجدت حالها مشتاقة لأهلها وبيتها، غالية وعتاب والبحر، هي بحاجة لأن تقضي معهم بعض الوقت بعد غياب دام وتواصل لأشهر، لم تكن تعلم وهي تتخذ قرار العودة المؤقتة أن أحبائها يمرون بمنحة ما بعدها منحة، منذ أن قرروا كسر الصمت وحاجز الخوف، منذ أن قرروا استرداد حق آدميتهم قبل

أي شيء، حين وقفوا أمام الباطل وصرخوا بصوت جهوري وقلب رجل واحد ب: لا..

لا للإهمال

لا للظلم

لا للتعدي

لم تكن تعلم أبدًا أن ذويها يتجمدون بردا ويعيشون ظلاما فوق الظلمات، ثلاثة أيام متواصلة لا كهرباء لا ماء، كل الطرقات مغلقة، لا أحد ينفذ منهم ولا أحد يدخل عليهم محاطين بأسوار من الأسلحة الحديثة ذات العيار الثقيل، عقاب مستحق يناله المتمردين..

نجح أبوها في حجبها وإبعادها عن كل هذا اللغط الذي يحياه الكبير والصغير، كانت تلك إرادته ونواياه، أن يبعد أولاده عن دائرة الخلاف وأن ينشأ لهما حياة أخرى بديلة خارج حدود العزبة الصغيرة والغير آمنة، لذا لم تكن تعلم أبدًا حتى وصلت ورأت بعينها كل ما يحدث بشكل حي وأدركت تمامًا تفاصيل الحدث حين أرادت عبور النهر لتصل أبيها وأمها وتم منعها، نادت، صرخت، لن تستسلم، لن تكف عن المحاولة مرة بعد مرة، لكن ضابط ثلاثيني كان له رأي مخالف إذ دفع بمؤخرة كلاشنكوف في صدرها بقوة حتى تعثرت وسقطت مع كلماته الصارمة:

- أذهبي من هنا حتى لا تتأذي.

- أمي وأبي بالداخل!

- أخبرتك، كل الطرق مغلقة.

- ماذا فعلتم بأهلي!

- كلمة أخرى وسوف أتعامل بطريقة أبدًا لن تعجبك.

نهضت تتلفت حولها بضياعٍ، المراكب والمعديات كلها مرصوفه داخل المياة بجانب بعضها وفي حالة توقف تام، النهر أمامها ساكن، حزين كقلبها، رجال الشرطة في كل مكان، كل بضعة أمتار يقف واحد حاملا فوق كتفه سلاح، لا تدري ماهية مايحدث لكن الأمور ليست بخير على الإطلاق، كانت تدور حول نفسها دون هدف،

دون اتزان بعقل مشوش وقد أوشك النهار الغائم على نهايته، أين تذهب؟ والأدهى كيف تترك أهلها بهذا الحال دون أن تعرف إن كانوا بخير أم يتعرضون للأذى بالداخل!

على بعد خطوات كان هناك بعض المباني الحديثة الغير مكتملة بعد، جلست فوق كومة من الطوب الأحمر، بقلب مفطور، برد ينخر عظامها وبطارية هاتف فارغة، رجلاها لم تعد تحملاها بكل هذا القلق والرعب الذي يجتاحها، رويدًا رويدًا وفي وقت قصير كان الظلام يزداد وحشة، ضوء شاحب مصفر من عامود فوق الرصيف كان يبعث لها بعض الرؤية لترى الأشباح المسلحة تتحرك كل حين في تؤدة ثم

تعود إلى مكانها، كانت العزبة أمامها عبارة عن كتلة من السواد العظيم، لا يوجد شعلة ضوء واحدة تنفذ، صار فؤادها يتلوى بين جوانبها، ألم رهيب في حلقها ودموع ثقيلة تعبأ خلف الجفون، فجأة ضرب البرق السماء ليحيل سوادهم في لمح البصر لضوء غامر قبل أن يعود الظلام ليسيطر وتعج السماء بضجيج ينبأ عن فيضها القريب، ركضت تحمي حالها تحت أحد الأسقف،

تقرفص جالسة في زاوية باردة وذراعيها يلتفان حول جسدها، أسنانها تصطك ببعضها بردا ورعبا، كانت وحيدة، خائفة..

في ليلة طويلة أولها عذاب وآخرها عذابات.

وعلى الطرف الآخر..

كان البحر ثائرًا لدرجة تثير الهلع بالنفوس، أمواجه تقاتل بعضها بعضًا، كأنها قررت التناحر في ذروة عراك، فقد سحره تحت قتامة الجو، السماء ملبدة بغيوم شتوية مثقلة والقرقعة القائمة تهدد بنذر قريب، يشق البرق الفضاء واليم الثائر يبتلع انعكاسه بين طياته حتى عصفت، زخ المطر، أغرق واجهات البيوت الباهتة، عبر الأزقة و الطرقات، وربما غسل في طريقه القلوب المتضرعة خلف النوافذ.

كانت ليلةً طويلةً على الجميع، فمنذ ما حدث ماعاد للزاد نفس تجبره، النوم صار ضيفًا وخمًا، الوجوه تتقابل بتيهٍ، بضياعٍ سبغته قلة الحيلة والعجز، يتساءلون.. ماذا بعد؟

لا أحد يجيب

لا أحد يملك إجابة

حتى بزغ فجر الليلة العاصفة، كانت قد هدأت السماء وتشبعت الأرض بالماء حتى فاضت.

شابٌ نحيل الوجه بشعرٍ كث هو من حمل الخبر وطار حيث صار يجتمع رجال العزبة عقب صلاة كل فجر، تتبدل الصفوف السوية بعد السلام إلى حلقة تتسع للكل رغم ضيق المكان، يتباحثون في أمرهم ويتشاركون مصابهم بنفوسٍ صابرةٍ، لم يكن قد ابتدى أحد بالكلام حين اقتحم الشاب صمتهم بلهاثٍ متقطعٍ، يقلب بصره فوق الجميع ويستقر في النهاية فوق كبيرهم:

- لقد عادوا..

تتعثر أنفاسه لوهلة، يقاوم حشرجة مختنقة و يعود بعدها خلال لحظات لينطق بما نطقته القلوب الوجلة في صمت:

- انتهى أمرنا.

(١٥)

الأخير

- انتهى أمرنا.

ككل شيءٍ في هذا العالم يجب أن يصل إلى نقطة نهاية تفيد بعدها إن كان ما يعني الفناء أو الاستمرارية بطرح جديد، وكان هذا نهج أهل العزبة الذي اجتمعوا عليه حين أدركوا أن في السكوت مهانة..

ذل سوف يلازمهم بقية حياتهم من ثم يورثوه لأبنائهم فيما بعد، لحظة ما قرروا الانتفاضة مطالبين بحق آدميتهم في الحياة كاسرين حاجز

الصمت والخوف، كانوا مدركين تمامًا أن أبواب النيران ستفتح على مصراعيها، أن معركتهم الغير متكافئة قد تكلل بالنصر البعيد أو ينهزموا وهم في طور المحاولة، في البداية تم اعتقال اثنين من شباب العزبة كتحذير شديد بكون القادم أشد وطأة وبأس لكن لم يكن التراجع متاحًا آنذاك، الاستسلام والقبول لم يعد من مستساغات النفس التي جبلت على الرضوخ وقبول المتاح، كانت لعنة الحلم والأمل تطاردهم وتدفع بهم نحو الثبات والصمود..

حين اقتحم الشاب مجلسهم معلنًا عودتهم فجر ذاك اليوم الغائم عرفوا أنهم ما عادوا إلا لينفذوا وعودهم الطاغية بهدم الجانب الشرقي

للعزبة والموازي لشاطىء البحر، أنهم سيحتلون مصدر رزقهم و يدفعون عن طريقهم البيوت المهترئة التي بيعت من قبل أصحابها وعلى البقية الرافضين تحمل الخسارة حتى ينهضوا بأخرى أكثر رقيًا ونفعًا للبلاد، كانت تلك البقعة محط اشتباك وقد تعاقد نخبة من رجال الأعمال على هذا مع أكبر شركات البناء الحديث تحت ظل القانون، قبل أيام حين جاءوا معربين عن نواياهم في البدء وقف لهم أهل العزبة بالضد، لكن مع بزوغ فجر اليوم أحضروا آلات الهدم والحفر ونواياهم تتخذ حيز التنفيذ..

- يتقدمون ونواياهم شر يا شيخ رحيم، ماذا سنفعل!

كان هذا شاب آخر غير الأول، يقول هذا بانفعال، بغضب، فبيته وأهله يقعون على خط الخلاف، يتدخل طاهر بحمائية ودماء تفور:

- نكسر أيديهم قبل أن يهدموا جدارًا واحدًا!

ويهتف رابع بذات النبرة:

- سنردهم خائبين، الملاعين!

من بين الحلقة المستديرة والتي تضم رجال العزبة وشبابها يرفع الشيخ رحيم يديه ويقول بلهجة صارمة:

- لحظة شباب.. اتفقنا أن كل شيء سيتم بهدوء، لا نريد أن ينقلب الحق ونصير مديونين، نحن

أصحاب حق.. هل سمعتم؟.. نطالب بحقنا دون أن نخسره.

أومأ الجميع برؤوسهم متممين على كلمات الشيخ التي يمررها إلى عقولهم ببطءٍ وتروٍ منذ أيام، هو لن ينتهج الأذى، لا يريد خسائر أكبر مما تحدث بالفعل، تحركوا جميعًا إلى خارج المسجد بروح واحدة، سيردون الطامعين وينتهي هذا العبث..

النفوس الصابرة منذ زمن لم تعد تطيق هذا الظلم الساحق، أسلوب القمع الذي يمارس عليهم ماعاد يحتمل، محتجزين داخل المياه منفصلين عن العالم بشكلٍ قسريٍّ، ثلاث ليال دون كهرباء في هذا الطقس القاتل، الصغار يبكون من البرد والظلام كل ليلة، يبيتون على

ضوء شمعة بالكاد تضيء موضع القدم، تمر الساعات ببطءٍ قاتلٍ حتى يتنفسون نور الصباح على أمل جديد أن ينتهي هذا الكابوس، وهذا النهار هو نهار الحق الذي سيسطع بعد طول الظلام، مع كل خطوة كانت هناك عزيمة جديدة تولد و إصرار يتحد حتى تقابل الطرفان، طرف من العمال الذين ينفذون الأوامر بهدم هذه الجدران وطرف هم ساكني هذه الجدران، عرض كبير الصيادين أن يلملموا نواياهم ويرحلوا بالحسنى، لكن أحدهم لم يمنح الشيخ رحيم ليتمم جملته التي بدأها إذ دفع بكتفه في غلظة آمرًا إياه بفظاظة أن يأخذ من معه ويبتعد..

وكانت هنا بداية الاشتباك!..

~~~~

كان الصباح قد حلَّ حين انتفضت صدف من جلوسها في تلك الزاوية من الطوب المرصوف على أصوات تعلو وتنخفض من البعيد بشكل تدريجي، تقدمت إلى خارج الطريق لتجد المكان خاليًا، لا رجال شرطة، لا مارة، لا أحد، أخذت أقدامها تهرول على جانب المرسى والوحل يثقل خطواتها، تعدو للأمام ومن ثم تعود خطواتها بنصف عقلٍ، احتاجت دقائق حتى تعي وتقرر..

مركب نصف جيد رابض على جانب المرسى بحبل شبه معقود حمل جسدها الذي قفز في منتصفه، احتاج المحرك لدقائق حتى يشخر ويعلن عودته للعمل، خلال هذه المسافة
~~~~

البسيطة التي قطعتها حتى تصل الطرف الآخر استطاعت أن ترى الكثير..

وكان الكثير يحدث، كتلة هائلة من الغبار في قلبها تحتدم معركة حامية، الأذرع تتشابك، الأجساد تتلاحم، تتقاتل في نزاعٍ بشريٍّ مفزعٍ، كانت المعركة مع رجال الشرطة بعدما تدخلوا وانسحب عمال الهدم وقد أشعلوا فتيل الفتنة كما طلب رؤوسائهم، تعاون إثنان من الرجال على سحب الشيخ رحيم من قلب العراك قبل أن تنقطع أنفاسه، تركوه جانبًا، متعبًا، مكدومًا، لاهثًا لا يقوى على حديث فقط يشير بيده وحروفه تتقطع في نداءٍ باسم هذا وذاك، كان يجاهد حتى يقول: تراجعوا..

تراجعوا يا أولادي..

معركتكم ضد الظلم خاسرة..

لا تهدروا دمائكم..

ليس اليوم..

ليس في هذا الزمان..

كان يريد أن ينطق بهذا كله لكن الغبار الثائر أعمى بصره وقطع أنفاسه قبل أن تمتد له ذراع تدعم ترنح جسده الكهل وتمنع سقوطه.

وعلى جانب آخر كان الهلع يسيطر على الأطفال، تغسل الدموع وجوههم المغبرة بينما حناجر النساء اتحدت لتشق عنان السماء في نواحٍ وندبٍ، فهناك كان ولدٌ و زوجٌ، أبٌ وأخٌ يقاتل

ليسترد حقًا مسلوبًا، هناك إنسان يبحث عن كرامةٍ مهدورةٍ وآدميةٍ دهسها ظلم بعض البشر وهم في طريقهم نحو عروش دنيوية زائلة، حرب ضد دولة اللاإنسانية التي نهضت وشيدت أعمدتها من خلف الضمائر الميتة والنفوس العفنة.

ذعرٌ أصاب صدف وهي تركض حافية القدمين تاركةً خلفها عويل النساء والصغار يشتد ويدوي، كانت الصورة أقرب لحربٍ، خرابٍ، جدارن مهدمة، الحجارة في كل مكان تجرح الأقدام الراكضة، الناس تشتتوا في كل مكان داخل لوحة عنوانها الرعب الذي صبغ وجوه الأطفال وهلع استوطن قلوب النساء، وعن

الرجال والشيوخ كان الغضب بين أعينهم ينافس الجمر المتقد..

يصطدم كتفها بشابة تركض وتصرخ باسم أحدهم، تحدق في أثرها بعيون جاحظة و رأسها يهتز برفض لهذه الحالة المروعة، تركض من جديد وعينها عن أبيها تفتش هنا وهناك، يمنة ويسرى، كانت أكيدة أنه هنا وسط هذا القتال..

حين اقتربت من دائرة الزحام لم تستطع أن ترى شيئًا غير أجساد تتناحر وأصوات تتداخل، سباب، تهديد، عصي تتكسر وحجارة تتطاير، أهلها بأيدي فارغة في وجه رجال الشرطة المسلحين، معركة غير متكافئة بالمرة، وجدت حالها تصرخ في نداء لأبيها بكل ما أوتيت من قوة،

تردد مرة وثانية وثالثة، لكن كان من العبث أن تنتظر إجابة وسط هذا الشغب، بالكاد كانت تسمع حالها، أخذ بصرها يدور في جنون حتى وجدت مجموعة من النسوة يحتشدن فوق قارعة أحد الأزقة يتابعن ما يحدث بقلوب واجفة، ركضت إليهن علها تجد أمها بينهن لكن بدلًا من هذا وجدت عتاب بحال يماثل خاصتها، أمسكت صدف بذراعيها تهزها دون أن تجد القدرة لتسأل أو عقل يحدد ماهية السؤال، على كل حال لم تكن الصديقة لتأتي بأي جواب، كانت مثلها فزعة، تبكي دون دليل..

و من بين الحناجر المجروحة بكلمات الرفض والأقدام التي تحفر ثباتها فوق الأرض التي تعرفها

وتملك فيها أحقية البقاء دائمًا هناك رصاصة غادرة..

رصاصة تخرج لتوقف هذا الصراع بعد ما تسيل دماء وتفتك بروح، روح لم تطلب أكثر من مستحقات بسيطة، روح هتفت لآخر مرة بكونها إنسان وطالبت بقهر العالم عن حقها في الآدمية:

- لن نتراجع، أسلحتكم باردة وظلمكم فاجر!

عرفت الرصاصة طريقها إلى حنجرة طاهر لتخترقها..

أخرسته واستقرت..

دائمًا هناك رصاصة وجدت حتى تخرس إنسان.. للأبد.

~~~~

تروى الأرض بدماء أبنائها..

تلك الحقيقة التي ستعرفها ما إن تقرر أن تعرف.

هناك قصص لا ترسم إلا بالدماء والخسارة، وهذه حقيقة أخرى.

ظلال الحزن التي غيمت فوق سماء العزبة كانت ترثي فقدانًا جديدًا، شاب كانت روحه قربانًا لأهله وعشيرته، روح لم ينجح الفقر أو الحاجة في كسر صلابتها بل استقبلت نهايتها بشرف وغادرت هذه الدنيا الآثمة دون ذرة ندم.
~~~~

حين سالت دمائه توقف كل شيء، رفع الظالمين أيديهم ورحلوا، انسحب الجميع للخلف تاركين أمه وزوجه تأخذان نصيبهم فيه لآخر مرة، دماؤه التي لوثت أيدي حامليه إلى مثواه الأخير كانت خير دليل على صدق كلماته يوم قال أنه بلا ثمن.

بأصابع مترددة كبست فوق زر الضوء فشاع النور وغمر عينها على حين غرة، احتاجت عتاب بعض الوقت حتى تستجمع شجاعتها وتخطي خطوتها الأولى إلى غرفتها، غرفتها وطاهر سابقًا، بقلبٍ مثقلٍ أكثر من القدم خطت إلى الداخل وأغلقت بابها من خلفها برفقٍ، وجه شاحب فقد الكثير من اللحم والحياة حتى ذبل سحر العينين وزاد حجمهم، وشاح يماثل ثوب الحداد

الفضفاض تهدل عن رأسها، تركته يستقر فوق كتفيها وهي تمرر بصرها في كل ركن وزاوية، تغمض عينيها وتسحب شهيقًا طويلًا..

تستحضر عبقه، صورته، صوته والضحكة، كان الأمر مشوشًا وغير واضحٍ في بيت أبيها، لكن هنا يمكنها بسهولة أن تستحضر ملامحه، تستطيع أن تراه جالسًا فوق الأريكة، واقفًا عند النافذة، نائمًا ورأسه مرتاح فوق وركيها يحكي لها، يتكلم ولا يمل، تسمع همس اسمها بصوته

" عتاب.."

شهقت وفتحت عينيها تتطلع لما حولها في ارتعاب، يدها فوق بطنها المنتفخ بشدة، تلملم بعثرة نفسها وتتحرك خطوات أخرى تنتهي بها

فوق الفراش المهجور منذ ما يقارب الثمان أشهر، لم تكن العودة إلى دياره ممكنة منذ أن أخذ دنياها معه ورحل.

قضت أصعب أيامها في كنف أهلها،

والآن بما أنها شارفت على موعد ولادتها قررت العودة، تحدت رفض الجميع وجاءت، تريد أن تلد طفل طاهر في بيته، تريده أن يشعر بها كما تحتاج بشدة أن تشعر به في أيامها هذه.

تحركت يدها فوق جانبه من الفراش، أخذت تمررها ذهابًا وإيابًا، الآن وجدت الدموع طريقها لتهطل وتعبر وجنتيها ثم تموت مع همسها القريب للمكان الخالي:

- نحن هنا..

قالتها واليد الأخرى مازالت تضم بطفلها، تخبره أنهما هنا لأجله ثم ترتفع يدها وتحط بها موضع قلبها المعذب بهمسٍ آخر:

- وأنتَ هنا.

تمددت على جانبها بتعب، كفها يمسد بطنها كحركة اعتادت عليها مؤخرًا، بصرها يضم نقطة وهمية برؤيا غير واضحة، كانت دموعها الثقيلة تسقط واحدة تلو أخرى، كانت تظن أنها قوية كفاية لتعود، لكن هي امرأة فقدت زوجًا وحبيبًا، هي امرأة وحيدة ومتعبة حد الموت..

كانت تظن أنها قوية كفاية لتطوي أحزانها وتبقيها سجينة صدرها لكن كل خلية فيها كانت تئن وتنوح في هاته اللحظة. اهتز الجسد المكدود ونشج بألم، آهة وجع عبرت شفتيها نكأت في طريقها جرح القلب الغائر، جرح لن يداوى لأن جِراح القلوب تُحمل إلى القبور..

وجدت أذرعًا ضعيفةً تديرها، تحيطها وطفلها بقوة واهنة، أيدي تسكن من ألمها وتربت على وجعها..

ستظل شاكرة لأم طاهر على رحابة صدرها في تلك الليلة، وكل ليلة.

ولو بحثنا عن حقيقة ثالثة سنعرف أن خلف كل جدار في هذا العالم توجد امرأة محزونة، نصيب

من كدر اجتمع وتكور في بقعة، وربما لأجل هذا منحنا الخالق هبة النسيان، لكن طريق النسيان وعر، مرصوف بجمر الحزن وشوك الحنين، الترياق في الصبر، ونفوس كهذه معجونة بالصبر لكن ليس قبل أن يعرف الزمن طريقه.

~~~~

على مدار أشهر كل مرة كان يجد سببًا وجيهًا ليأتي، أكثرها مرض أبيها، يجالسه ويسأل عن حاله، حتى نشأت بينهما صلة تمنحه أحقية ذلك..

لا يأتي فارغًا أبدًا، في كل مرةٍ تكون كلتا يديه تحملان اللحم والخضر والطحين، كقريب يود أهله.
~~~~

أدهشتها مرونة أبيها في تقبل حقيقة هاشم، لكن حين تتذكركل التغيرات التي حدثت ومازالت تحدث تزول الدهشة، فأبوها كله تغير، آلام الركب تتضاعف بشكلٍ رهيبٍ، أصبح لا يغادر البيت إلا لمامًا، المسجد بالكاد يزوره كل جمعة، أغلب الوقت يجالس نفسه، مقتل طاهر أثار في نفسه عظيم الحزن، مع حال العزبة الذي يرثى، من يومها والشيخ رحيم تخلى عن كل شيءٍ مكتفيًا بعزلته، النهاية كانت قاسيةً، مؤلمةً لأناسٍ تأملوا ثم قنطوا، لم يتغير شيء، الجانب الشرقي على حاله لم يتهدم لكن في المقابل راحوا يتطاولوا في البنيان من أمامهم وهم في الخلف يتدنى حالهم من سيءٍ لأسوأ، وصمة عار تلطخ

جبين الوطن، لن يتوقفوا عن محاولة إزالتها، بعد عامٍ بعد عشر، ستعاد المسرحية الهزلية ولن يتغير سوى أحزانهم ومآسيهم التي تتضاعف وتتراكم.

- أريدك أن تتزوجها.

كان هذا الشيخ رحيم، يكلم جليسه الذي حضر ليلة عيد الفطر ليوصل الود ويطمئن على حاله كما يقول.. فما رآه من الشاب خلال الأشهر الماضية وصراحة نيته اتجاه ابنته دفعه ليعجل بالأمر ويمنحه مايريد قبل أن يطلبه..

احتاج هاشم للحظات أدرك فيها معنى الحروف ليردد في شك مما سمع:

- أتزوجها؟!

- نعم، تتزوج ابنتي.. ألا تريد؟

- بلى يا شيخ بلى ولكن..

ولكن هنا تفتح المجال لأشياء كثيرة، بدايتها تنهيدة وتبادل نظرة كلاهما يعرف معناها، ماحدث لم يترك المعنية بلا عطب، كوابيس تزورها كل ليلةٍ، أصبحت محطمةً، تقاتل لأجل أن تكمل دراستها، تذهب وتعود، وأحيانًا تضطر البقاء لأن الطرق مغلقة، تنتظر حتى تفتح ثم تعود، انتهت من سنتها الأولى بعد رحلة عذاب، روحها خامدة، عيونها يملأها الحسرة، ليس وحدها، الجميع داخل العزبة كانوا يتشاركون المحنة في صمت، يدفعون معًا الأيام كي تمر دون

رغبة حقيقية في العيش، يخبو الأمل وقت الوجع والخسارة، يبقى الفقد أمّر ما قد يعانيه إنسان، فقدان حلم.. حبيب.. والأعظم فقدان وطن.

- لكن ماذا بني؟

- لا أعلم يا شيخ رحيم، لا تبدو صدف في حال جيدة حتى أحدثها في أمر الزواج؟

- وأنا لأجل هذا أتكلم معك، خذها من هنا.

اجعلها تنسى.

وأردف بخاطره

اجعلها تحيا.

~~~~
~~~~

في كل زيارة وقبل رحيله كانا يلتقيان.. فوق ذات البقعة التي تقابلا فيها أول مرة ليلة عرس غالية، لكن دون صخب العرس.. دون صياح زهير أو عشق طاهر وعتاب..

فقط هما وحدهما بمعزل عن العالم، تكون في انتظاره، يقترب وكفاه داخل جيوب سرواله، يقف مثلها وجهه إلى البحر وظهرهما إلى العزبة، أو ما تبقى منها، يطول الصمت فتميل بطرفها مرغمة،

تروي روحها العطشى برؤيته ويطفو القهر بعيدًا للحظات، ستواجهه الآن لكن لتذهب الغصة قبلاً، تشد وترخي بجفنيها حتى تجف المقل وتهدأ

النغزات، عادة تتكلم هي أولًا، تدور تقابله وتغزل لثغرها بسمة، باهتة كروحها:

- أتيت؟

وكانت تقصده والعيد.

يبتسم، يتأملها مطولًا، توجعه نظرتها المنطفئة، تضنيه دون أن تدري، يسألها بعد صمت:

- هل أنتِ بخير؟

تتلعثم وتشرد ثم تجيب:

- بخير.. أظن ذلك.

وتعود سريعًا إليه بنظرة كللها الشوق:

- وأنتَ.. كيف حالك؟!

يقترب خطوة ويدنو بجذعه قليلًا ليهمس:

- حالي يفتقدك.

- وأنا أفتقدني.

تقول هذا بلا روح وبصرها يهرب من لقياه، لحظات وتعود إليه بتركيز كامل، ابتسامتها تتسع في محاولة حقيقية هذه المرة:

- وضعت عتاب طفلتها ليلة البارحة.. آه لو تراها هاشم، صغيرة جدًا وجميلة جدًا..

وزفرت بصعوبة بينما تقلب كفيها في قلة حيلة لتغمغم بهمس أخير، فاتر:

- ومسكينة جدًا.

مر أمام عينيها حالة عتاب المروعة ليلة الأمس وهي تصرخ حتى كادت أن تفقد الوعي بين يديها والقابلة تحثها أن تدفع أكثر حتى تخرج طفلتها للحياة، وحدها كانت تعي أن صراخها ليس ألمًا جسديًا وفقط، وجع عتاب بروحها، صراخها كان أنينَ روحٍ تبكي وليس امرأة تستقبل مولودتها الأولى..

أصابتها قشعريرة سرت على طول ظهرها وهي تتذكر كيف مرت ليلة البارحة بين دموع عتاب وأم طاهر..

كانت ليلة طويلة، باردة، موجعه لأبعد حد.

أمسكت بجانب رأسها وهي تعود له بنصف استدارة، تفضي إليه بألم عشش بداخلها منذ

أشهر ومازال يتكاثر ويتعاظم بكلمات تشابكت وتهدجت:

- صورته لا تتركني، كلما نظرت إلى عتاب أرى جسده المسجى والدماء تغرق ملابسه، كل ليلة حين أغمض عيني أرى اهتزاز قدمه وروحه تنازع الموت، والآن!.. الآن جاءت ابنته لتنكأ جرح عتاب وتنبش أوجاعها.. يا الله؛ متى ينتهي هذا العذاب؟!..

وهو لديه نصيب من هذا الوجع، وكأن القدر ساقه إلى هذا المكان ليعشق ويشقى، كان يعني له طاهر الكثير، الأيام التي قضاها برفقته تستحق أن تخلد في قلبه وذاكرته وأن يبقى نادمًا بقية حياته أنه تأخر في المجيء ليوفي بوعده.

أغمض عينيه متنهدا، مترحما عليه في خاطره، في
النهاية لا نملك غير التسليم
والانحناء للقدر.

- تعالي معي.

قالها بجدية آمرة مع الكثير من الرجاء..

ويردف بذات النبرة شاملا روحها وحزنها في نظرة:

- تكلمت مع أبيك، نتزوج وتذهبين معي.

لم يتغير فيها شيء، أخذت تتطلع إليه في جمود، تنظر له بعين بعيدة، بعيدة جدًا، وكأن محيطات العالم تجمعت لتفرق بينهما في هاته اللحظة..

أخيرًا نطقت في استهجان وسكين ثالم يشطر قلبها لنصفين:

- أذهب؟!

- نعم، تكملين جامعتك، سأكون إلى جانبك حتى نأسس حياتنا معًا..

- هاشم..

- ستكونين سعيدة، أعدك بهذا.

- كيف أتخلى عن عائلتي وهم بحاجتي؟

- انظري إلى حالتك، أنتِ تعسة صدف.. إلى متى تظنين أنك ستتحملين؟

- لا أستطيع تركهم خلفي والذهاب..

- وأنا صدف؟.. ماذا عني؟!

أدارت وجهها عنه، تجاهد حتى تمنع العبرة والغصة فلا تستطيع، تهطل العبرة وتغص حروفها بشهقة:

- أنتَ أفضل ما حدث لي، صدقني..

وتعود له بتماسك مقلقل:

- لكن لا أستطيع، ليس الآن.

يتشبث ويأمل:

- لا بأس، ننتظر، لن نأخذ خطوة كهذه إلا وأنتِ راغبة تمامًا.

تتنهد بحرارة وتمسد جبهتها في إرهاق، تحاول أن توصل له حروفها المتعبة:

- أنتَ لا تفهمني.. قد لا أكون أبدًا هاشم.

يقبض على كتفيها، يهزها، يرفض ما تسعى لايصاله، يرفض غلق الستارعلى بداية حكاية لم تكتمل. يقول بحدة مناشدًا روحها.. خليلته:

- لا تتخلي عن نصيبك من الحياة صدف، الوقت مازال مبكرًا حتى تقولين وداعًا!

- إذًا أعطني نصيبي من الحياة.. ومنك.. أريده كله الآن.

بدت كلماتها المتهدجة ضرب من الجنون وهي تنظر له في قلة حيلة وعبرات راحت تترقرق بمحجريها وتتراقص على معزوفة حزينة عنوانها الفراق، ضاقت عيناه بجهل وقبل أن ينطق قاطعت تشوش أفكاره مردفة بلهف قلبها و وجيعتها:

- عانقني هاشم.. عانقني بكل قوتك!

ماتت الكلمات والعبرات فوق رحابة صدره، لملمت كل أحلامها وأمانيها المبعثرة وأستبدلتهم بهاته اللحظة، كانت ترى إثمها صغيرً وقابلًا للغفران وسط هذا السوء الذي تحياه..

و لو أن الزمان غير الزمان لكانت أخبرته أن دفء ذراعيه فاق أقصى خيالاتها، لكانت أخبرته أنه رجل أحلامها وقلبها..

لكن الحياة لم تكن عادلة معها لتهبها القول والزمان.

- لا تفعلي هذا بي.. بنا!

كان يرجوها بهمس جاور أذنها أودعه مكنون قلبه وعشقه الساكن، شد من ضمته أكثر وقد أدرك أنها أخذت نصيبها فيه وانتهت.

حررت حالها من بين ذراعيه على مهل، تمحي ماتبقى من العبرات بظهر كفها وتنظر له بابتسامة ممتن..

ابتسامة مودع..

جفونها تتلاقى بارتجاف، أذرعتها تضم بنفسها إليها، تبحر أفكارها نحو البعيد، تفند وتصحح، لن يفهمها أحد، ليس الآن على الأقل..

تلاحقت مشاعرها في صراع، يأس، هروب، ضعف، انكسار، لكنها كانت قادرة أن تهمس بحروفها الأخيرة قبل أن تتلاشى من أمامه..

للأبد:

- أنا سأبقى هنا، حيث يجب أن أكون.

الخاتمة

كانت تؤمن بأن هناك مايجب أن تقوم به فوق هذه الرقعة المنسية بينما الحياة تسير بالخارج، لقد رأت بعينها كيف يتشاغل الجميع بالهاتف، في العمل، ملبين حوائجهم البيلوجية لا يدرون أن ثمة من يعاني، ربما أعبائهم الثقيلة أنستهم، أم علهم يجهلون وجودهم من الأساس، هي لا تبحث عن الصورة المثالية، لكن يقتلها القصور وتدهور الحالة الإنسانية لهذه الدرجة، كان من السهل أن نكون أكثر شعورًا ورحمة لبعضنا البعض وسط هذا اللغم، لكن كل ماحدث معهم من ظلم لم يستحق في نظر الصامتين سوى خبر

جانبي في جريدة لا يقرأها أحد، نحن العرب ملعونين بالصمت..

هذه على رأس قائمة الحقائق.

كانت الساعة تشير للسابعة صباحًا وهي تفتح بوابة الباحة الخلفية ليمر أول طفلين..

- صباح الخير مُعلمتي.

استقبلتهم بضحكة مشرقة:

- صباحكم باسم يا أحبائي.

واربت الباب وراحت للركن المسيج في زاوية الباحة، خطت إلى الداخل، وضعت الحب للدجاجات وملأت أوعية الماء للشرب، أخذت البيض من القن وتركته جانبًا في طبق..

حين عادت أدراجها وجدت الأطفال صاروا أربع، ترمي لهم قبلة في الهواء بينما تحضر بساط كبير وتفرده فوق الأرض ثم تأتي بواحد آخر وتمدده إلى جانب الأول، يجلس الأطفال وقد وصلوا لثمان الآن، تهتف بنبرة عالية:

- كيف حال أبطالي اليوم؟.. هيا لنرى، افتحوا دفاتركم سوف أطلع عليها كلها..

تقول هذا بجدية معلم، ثم تغمض نصف عين وتسأل في تهديد مبطن:

- همممم وجوهكم لا تعجبني، أصابع من سألتهم اليوم يا ترى؟

"ليس أنا.."

"ولا أنا يا معلمة"

"أنا أنجزت واجباتي كلها"

"مريم لم تكتبها"

" كاذب، كتبتها كلها معلمتي"

- حسنًا، هدوء يا أطفال.. دقائق وأعود.

تتركهم وتصعد إلى الأعلى، لحظات وتعود بكتبها، دفاترها وعلبة الطباشير.

على جانب المساحة العريضة تدون اليوم والتاريخ ثم تدور تقابلهم، خمس وأربعون طفل وطفلة، تسعين زوج من العيون تحدق فيها، توليها جل تركيزها..

- انتباه يا أطفال، سنبدأ درسنا..

وقبل أن تبدأ يفتح الباب مرة أخيرة لهذا الصباح، تركض إليها كعاصفة صغيرة تتلقفها بين ذراعيها بترحاب وحرارة شفتيها تمطر وجنتيها بالقبل بينما تردد:

- الآن اكتمل صباحي، صباح الخير ياحلوتي.

تظهر عتاب بأنفاسٍ لاهثةٍ تلحق بابنتها، تحمل لها حقيبتها وتوبخها في آن:

- على مهلك بلسم، كانت الدراجة على وشك أن تصدمك!

تتوقف صدف عن تقبيلها وتحدجها بنظرة مؤنبة مع عقدة حاجبين:

- ماذا فعلت بلسم ماما؟

- سأتركها تخبرك، هذا نتيجة دلالك في النهاية.

- ماذا فعلتِ يا شقية حتى توبخنا أمك معًا؟

وبلسم يعني الشفاء من كل جرح، الراحة بعد التعب، وبلسم طاهر هي "بلسم ماما" كما اعتادت أن تقول لها صدف.

وبينما الصغيرة تلف ذراعيها حول عنق صدف وتدفن حالها في تجويفها تتبادل الصديقاتان قبلة الصباح وابتسامة مشرقة تهبط على أثرها الصغيرة وتركض لتجاور بقية الأطفال بصخب يميزها وعتاب تتخذ مكانها الجانبي وتجلس تراقب صدف والأطفال.

يتجاورون جنبًا إلى جنب في صفوف متتالية فوق البساط الممدود، لا كراسي، لا طاولات، لا زي موحد، الحقائب عبارة عن قطع من القماش خاطتها الأمهات لصغارهم، السبورة مجرد جدار أسمنتي وقطعة إسفنجية مربعة تقوم بمهمة الممحاة..

تمد يدها إلى السبورة خاصتها وتخط عنوان اليوم بخط كبير ثم تعود إليهم من جديد بابتسامة فخورة:

- هيا، افتحوا دفاتركم واكتبوا ما أقوم بإملائه..

لا تستطيع أن تمنحهم كتب ولا شهادة معتمدة في مدرستها الصغيرة والمجهولة هذه، لكن

ستعلمهم القراءة والكتابة، ستمنحهم خلاصة معرفتها في الحياة..

فالآن؛ وبعد مرور خمس سنوات المرأة التي أصبحتها صدف لديها هدف تسعى بكل وجدانها أن تسمو به لأعلى درجات

الأمل، نعم الأمل..

أن تأمل وتطمح وتكون الشخص الذي تريد..

ما فائدة اليأس؟

ماذا ستجني لو تركت نفسها ضحية للأسى؟

ما النفع!

- أنا طفل صغير..

تلقي بداية جملتها وتمر من حولهم، تتفحص هذا وذاك وتتابع:

- أحلم أن أكون طبيبًا..

هي وجدت في هذه الحياة لأن هناك ما تقدمه، ستعلم هؤلاء الصغار كيف يغزلون أحلامهم بأيديهم، فهذه مريم تعشق القراءة وتهوى الكتابة، وهذا الشقي طارق بارعًا في الحساب، أما فاطمة لديها شغف خاص بالرسم، كل واحد من هؤلاء لديه غد يحلم فيه، ستمسك بأيديهم وتشعل السراج ليستنير الطريق، سوف تزرع بذرة المستقبل، لو تركتهم ينطفىء السراج ويموت المستقبل.

- طبيبٌ يعالج المرضى ويساعد الفقراء..

مال بصرها وهي تسير عائدة ناحية عتاب التي تشرد بعيدًا عن دنياهم، هي هنا أيضًا حتى تكون إلى جانبها، حتى تعود بها إلى دنياهم حيث تحتاجها ابنتها، تمسك بكفها وتشد عليها فترفع لها عتاب وجهًا باسمًا ويدها تضغط بدورها مع رفة عين، تعني: أنا بخير.

تتركها وتعود إلى أطفالها بختام قطعتها لليوم:

- أنا طفلٌ صغيرٌ في داخلي إنسانٌ كبيرٌ.

هي هنا لأجل الشيخ رحيم الذي يرى العالم من خلال عينيها مع كل جلسةٍ مسائيةٍ تجاوره فيها داخل الفراش، تتبادل هي وهو الحديث والضحكات، والكثير من الصمت أحيانًا.

هي هنا لأجل أمها، أمها التي تخبرها أنها ظلمت نفسها ثم تبكي وتأخذ بها الى صدرها وتغمغم أنها لم تكن لترضى بفراق ابنتها.

ولأجل شقيقها الذي يغادركل صباح برفقة الصيادين، حسن الآن عمره إحدى عشر عامًا، يقوم بدور رجل البيت بدلًا عن أبيه الشيخ وقد ودع حلم الطائرات منذ زمن، لكن هي هنا لأجل أن يكمل دراسته رغم الصعاب، حتى لا يتقاعس، ستفعل معه ماكان يفعله أبوها معها حتى يصير ذا شأنٍ بعقله المستنير.

هي أيضًا لديها آمالها الخاصة، مازال طيفه يزورها كل فترة ليغزوا أحلامها، لا تعلم إن كان قد تزوج، ربما من غادة أو غيرها، من الممكن أن

يكون لديه طفل أو اثنين الآن، هل يمكن أن يكون قد نسى ملامحها بتفاصيل امرأة أخرى؟

في الحقيقة هي لا تفكر كثيرًا في تلك المسألة، هي فقط تتذكر أنها ذات يوم لحقت برجل حتى آخر محطاته ويوم قررت الوداع أخذت كل نصيبها فيه.

أحيانًا يغلبها الحنين فتغمض عينيها وتستحضر أحلى ذكراها، هي وهو عند شرفة بيته، راحتهم تحيط بكوب من الشاي الساخن، ومن الخلف كانت تظهر حزمة الثوم المعلقة وقصاري الصبار مرصوفة فوق الجدار، ينظران إلى بعضهما تحت ساتر من نجوم السماء المضيئة.

ذلك الجنون القديم هو سرها الخاص جدًا ونصيبها من الأحلام حتى يعرف الوقت طريقه وينزلق حبه وتفاصيله من بين قبضة الذكريات.

وحده الزمن قادرٌ على طي الأحزان مهما كانت مؤلمة و كبيرة..

هي هنا حيث اختارت أن تكون..

أينما كنا وبأي حال نكون تبقى الإنسانية هي ما تميزنا عن الغير، إيماننا الكبير بأننا قادرين على المنح..

كلٌ منا لديه الكثير ليقدمه، فقط إذا أراد ذلك..

وهي أرادت أن تمضي قدمًا بين أهلها، تقاسمهم الأحزان والأفراح، تشاركهم قارب المحنة وترسو

بصحبتهم متابعين معًا نهج الحياة كما عهدتهم وعهدوها في البر والبحر، مع الصيد وضجيج المراكب..

نمضي ونتناسى لأن هذا شأن الإنسان، يتعثر ويسقط ثم ينهض لأن البقاء هو السبيل.

كلمة أخيرة

قد تكون هذه النهاية قاسيةً بنظر القارىء، كان من السهل أن أقدم نهايةً سعيدةً ترضي الجميع ونغلق هذا الكتاب بكل راحةٍ وقد زال هذا الشعور السيء..

على مر السنين والمعاناة سلاح لا يخيب، في كل مكان في هذا العالم ثمة من يعاني على شتى الألوان، حين قررتُ أن أكتب عن واحدة من تلك المعاناة التي يحياها بعض البسطاء كان من السخف أن أنهي العمل بسعادة كاذبة لأجل أن نسعد نحن بينما نسترخي في بيوتنا متنعمين دافئين.

تلك المسكنات التي نتدفق عليها وتدفعنا للمرور دون أن نلتفت أو نقف للحظات. ذلك الخدر الذي يمنحنا انتشاء مؤقت كان من الظلم أن يحدث هنا..

أنا أؤمن بأن القراءة دائمًا وأبدًا هي نافذتنا على العالم حتى نرى، نفكر، نشعر ونعي..

بثينة عثمان

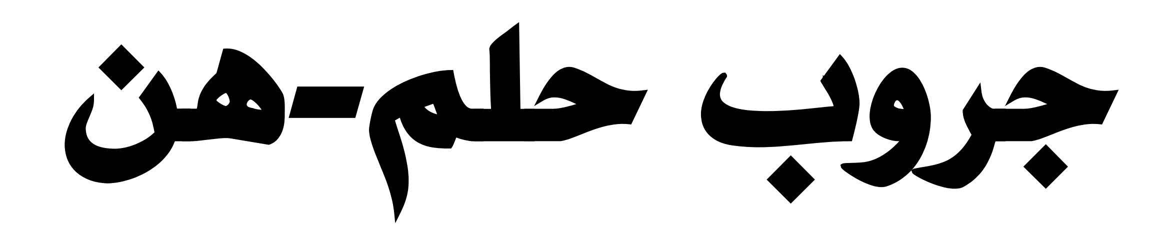
٥ أكتوبر ٢٠١٩

تمت بحمد الله

شكر خاص

الاستشارات القانونية

الأستاذة/ نادية فتحي الأبلق



"لنا مع الحرف حلم"

https://www.facebook.com/groups/7elmhon/?ref=bookmarks

